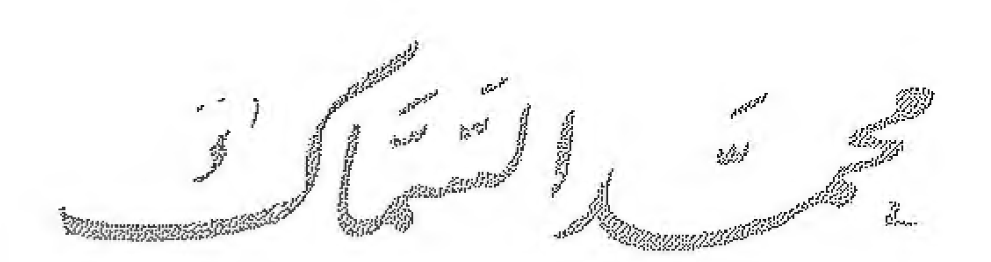
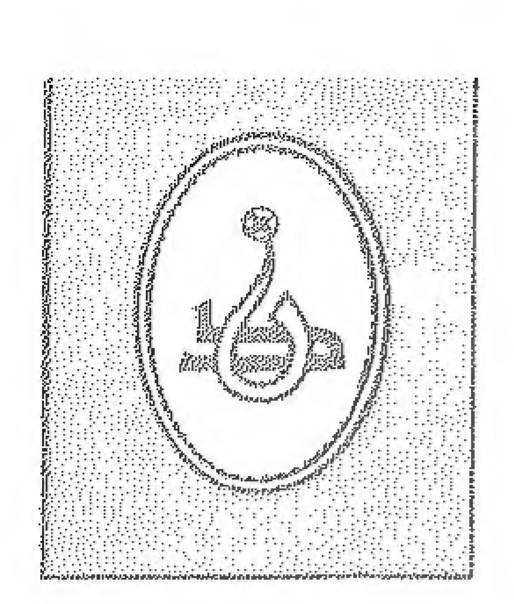
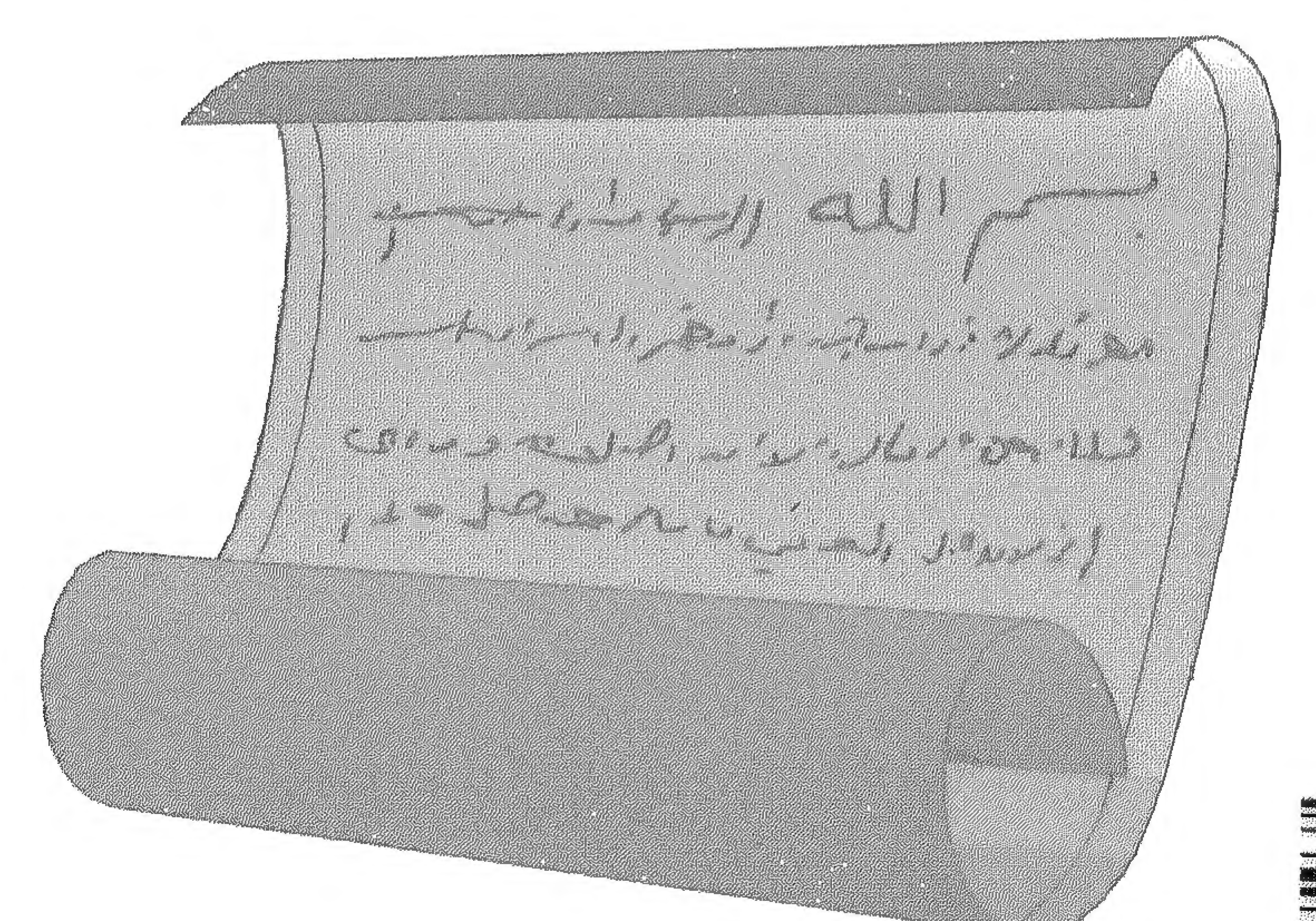
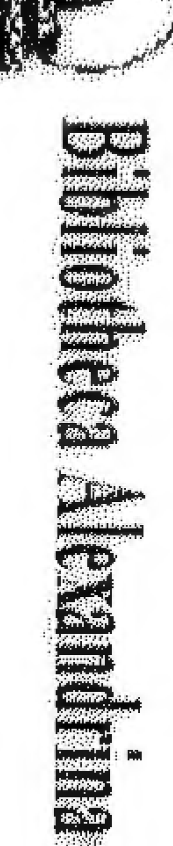


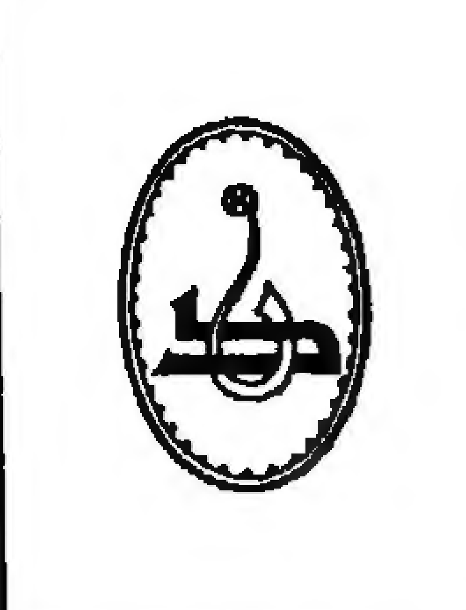


مقدمة إلى الحوار الإسلامي - المسيحي





دار النفائس



مقدمة إلى الحوار

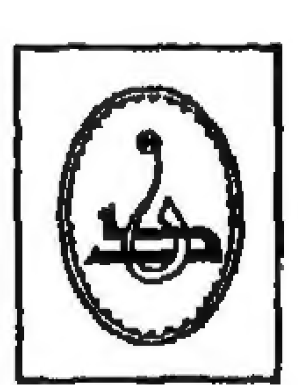
الإسلامي ـ المسيحي

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد السماك

مقدمة إلى الحوار الإسلامي - المسيحي

دار النفائس



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص ب 14/5152

فاكس: 861367 ـ هاتف: 803152

أو 810194 بيروت ـ لبنان

DAR AN-NAFAÉS

Printing-Publishing-Distribution

verdun str. Saffi Aldeen Bldg.

P.o.Box 14/5152

Fax: 861367 - Tel. 803152 -

810194. Beirut - Lebanon

الطبعة الاولى: 1418 هـ ــ 1998م

الإهداء

إلى الرئيس رفيق الحريري

تقديم الناشر

الحوار الإسلامي المسيحي قديم قِدَم الإسلام، بدأه الرسول ﷺ، كما ذكر المؤلف في بداية بحثه، واستمر حتى هذا التاريخ، وهو في هذه الأيام، ضرورة ملحَّة. فالغرب (الرأسمالي) بزعامة «الإدارة الأميركية» بعد تخلصه من عدوِّه الأول، الاتحاد السوفياتي (الشيوعي) اتخذ من الإسلام عدواً جديداً، وهو يسعى إلى تحطيم المسلمين بشتى الوسائل، ولا يستثني من يتعايش معهم، ويعيش بينهم من المسيحيين، وما مثل ما حدث ويحدث لشعوب العراق، وليبيا، والسودان، عنا ببعيد.

ومن دون الغوص في «مسيحية» الغرب وعلى رأسه الإدارة الأميركية و«إسلامية» الأنظمة التي تحكم المسلمين، أو التنظيمات التي تتخذ من الإسلام شعاراً ووسيلة للوصول إلى السلطة، فإن العالم يواجه حالة تستدعي الحوار الإسلامي المسيحي، بعيداً عن «الدعوة» أو «التبشير»، فليست الغاية منه «أسلمة» المسيحيين، ولا «تنصير» المسلمين، بل غايته أن يفهم كل فريق الفريق الآخر، ويتعايش معه. وهو أمر غير مستحيل على الرغم مما يعتريه من صعوبات، وبخاصة إذا علمنا أن المسيحيين السريان، سكان سوريا، حين فتحها المسلمون، وقفوا مع الفاتحين المسلمين الذين خلصُّوهم من اضطهاد إخوانهم في الدين، وأنهم ـ في بعض الروايات ـ كانوا يسمون الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، «الفاروق» أي «المخلص»، وأن الأخطل الصغير كان شاعر البلاط الأموي، وكان يفاخر بنصرانيته في شعره، ولا ينكر عليه أحد ما يقول.

وإذا علمنا أن الإسلام انتشر في القرن الأول للهجرة من بلاد الهند والصين شرقاً إلى أجزاء من أوروبا غرباً، من دون قتال في معظم الأحيان، لأنه استوعب الديانات الأخرى، ولم يفرض على أتباعها الدخول فيه، ولأن المؤمنين في تلك الديانات وجدوا فيه العقيدة المؤهلة لقيادة

أي حوار، لأنه يعترف بالديانتين السماويتين السابقتين، ولأن البشر في نظره متساوون بخلاف كثير من الديانات الأُخرى.

إن ما يحكم العلاقات بين الشرق والغرب ليس المعتقدات ولا الأديان، ولا ينفي هذا أن حروباً كثيرة وقعت لِدوافع لدينية، أو تحت شعار الدين؛ فالتاريخ يحكي لنا عن حروب وتبادل احتلالات قبل المسيحية وقبل الإسلام، وكل ذلك حكمته الرغبة في السيطرة واستلاب الثروات، وهذا ما يسعى إليه الغرب عموماً، والإدارة الأميركية خصوصاً، في تعاملها مع المسلمين. وقد يحدُّ من الخسائر جدِّية الحوار الإسلامي المسيحي، والوصول به إلى نتائج مرضية.

ولتحقيق هذه الغاية لا بد من فهم كل طرف الطرفَ الآخر على حقيقته بعيداً عن العواطف والأهواء والأحكام المسبقة.

في هذا الكتاب يستعرض المؤلف المراحل التي اجتازها الحوار، والعقبات التي تعترضه، بقلم الأديب، وروحية الباحث المؤمن بالحوار والممارس له فعلياً لا نظريًاً، وبعقلية المفكر الذي يغوص في أعماق المشكلة ويعرض لها حلولاً بجرأة وإخلاص.

في الفصل الأول استعرض تاريخ الحوار الإسلامي من عهد الرسول ﷺ حتى العصر الحاضر.

وفي الفصل الثاني سرد الآيات القرآنية التي تتحدث عن المسيح وأمه في القرآن الكريم، وهي تنزِّه مريم التي اصطفاها الله على نساء العالمين، وعرض الإشكاليتين الرئيستين اللتين تواجهان الحوار الإسلامي المسيحي، وهما: ألوهية المسيح في عقيدة المسيحيين، التي ينكرها المسلمون؛ ونبوة محمد ﷺ التي ينكرها المسيحيون.

وفي الفصل الثالث تحدث عن الجوامع المشتركة بين الأديان السماوية، وأن المسلمين يرون الدين الذي أنزله الله لعباده بوساطة رسله هو واحد **﴿ملّة أبيكم إبراهيم، هو سمّاكم المسلمين﴾** أما الشرائع فقد اختلفت بحسب العصور. وضمَّن هذا الفصل قصة مخطوطات البحر الميت التي اكتشفت سنة ١٩٤٧ واحتفظ بها في متحف القدس، حتى وضعت إسرائيل يدها عليها سنة ١٩٦٧، فتحفظت عليها ومنعت العلماء من

الاطلاع عليها حتى سنة ١٩٩٢ حيث سمحت بالاطلاع على بعضها تحت ضغوط عالمية، وذلك لأنها تناقض ما تتبناه دولة إسرائيل والصهيونية العالمية. ثم استعرض المؤلف جزءاً مهماً مما ورد في هذه المخطوطات وقارن بينه وبين ما ورد في القرآن الكريم والإنجيل، وبيَّن نقاط الالتقاء التي تدل على أن مصدر الأديان الثلاثة واحد.

وفي الفصل الرابع تناول بالبحث دور الدين في صناعة القرار السياسي. فعلى الرغم مما يسمى «فصل الدين عن الدولة» في الغرب فإن رجل الدولة والسياسي الذي يتولى منصباً لا يتخلَّى عن معتقده، ويظهر هذا المعتقد في قراراته. ويميل كثير من المفكرين إلى أن محاولات فصل الدين عن الدولة وحياة الناس أدت إلى الخواء الروحي، الذي يسود المجتمعات الغربية، ولذلك تنظم المؤتمرات وتعقد الندوات في الغرب لإعطاء الدين دوراً أخلاقياً في تلك المجتمعات.

ثم أشار إلى أن الإسلام الذي لا يتضمن أية صيغة تميز بين الدين والدولة لا يرفض التعددية ولا ينكرها، وتاريخ المسلمين شاهد على ذلك، باستثناء حالات خرج فيها الحكام عن مفهوم الإسلام. وإن أساء بعض المسلمين فيجب ألا يتحمل الإسلام وزر ذلك.

وفي الفصل الخامس تحدث عن الحوار في القرآن الكريم وبيَّن أهمية الحوار مع «الآخر» وفوائده، وأنه مبدأ من مبادىء الإسلام.

وفي الفصل السادس استعرض العلاقات الإسلامية المسيحية بتجرد كامل، وأشار إلى مغالطة اعتبار المسيحية العربية امتداداً للغرب، أو اعتبار المسيحيين العرب حليفاً للأنظمة، عندما تصطدم هذه الأنظمة مع الحركات الإسلامية، ونبَّه إلى رسم خط فاصل بين الإسلام ديناً والاستغلال السياسي له من حركات تتطلع إلى السلطة. وأشار إلى ضرورة عدم القفز فوق الكنيسة الشرقية والتحاور مع الغرب مباشرة، بحجة التعامل مع المرجع. فالمسيحيون العرب ليسوا أقلية في العالم العربي بل هم جزءٌ من الأمة العربية، ويجب عليهم ألا يشعروا بأنهم أقلية، وعلى المسلمين ألا يدعوا هذا الشعور يتنامى عندهم.

وفي الفصل السابع، وتحت عنوان تسعمائة عام من الصراع، استعرض

تاريخ الصراع الذي أجّجه خطاب البابا أوربان الثاني سنة 1095 في إحدى قرى فرنسا واعتُبر إعلاناً للحروب الصليبية التي استمرت إلى سنة 1291، واستغرب استمرار العداء للمسلمين في وقت تعتذر فيه الدول عن أخطائها السابقة، وتساءل لماذا برّأ الفاتيكان اليهود من دم المسيح ولم يدن الجرائم الصليبية التي تواصلت بصيغ مختلفة منذ بيان البابا أوربان الثاني وحتى اليوم، ولماذا يستمر تشويه الإسلام ولصق صفة الإرهاب به، و«الإدارة الأميركية» تقدم الدعم إلى الكثير من الحركات التي تسميها أصولية وإرهابية بغية تشويه وجه الإسلام.

وضمّن هذا الفصل العامل الإسرائيلي في الصراع في مراحل عدة: مرحلة قبل وعد بلفور، وبعده، ومرحلة قيام إسرائيل، ومرحلة ما بعد حرب حزيران ـ يونيو 1967 وصولاً إلى الحرب اللبنانية ومؤتمر مدريد.

وفي الفصل الثامن تحدث عن الحوار الإسلامي المسيحي في لبنان، ودور المرجعيات الدينية والطائفية فيه، وذكر البيانات التي صدرت عنها، واقترح الطرق الكفيلة بنجاح الحوار، وبيّن دور المدرسة والإعلام والدولة للانتقال من الطائفية إلى اللاطائفية، وأكد على ضرورة فك الارتباط بين الصراع الإسلامي الغربي، والعلاقات الإسلامية المسيحية.

وخصص الفصل التاسع للسينودس من أجل لبنان، ابتداءً من الدعوة إليه سنة 1991 وحتى انعقاده، وأشار إلى المشاركة الإسلامية فيه، واختصر أعماله، وهو حضره شخصياً بصفة مراقب. وختم الفصل بالنداء الأخير الذي حظي بنقد بناء منه ومن المرجعيات الإسلامية، فعمل الإرشاد الرسولي على تلافي النقاط التي أثارت التحفظات.

وأما الفصل العاشر فقد جاء بعنوان «من جدران الجماعات إلى وحدة الشعب» وقد خصّصه للبنان وللثوابت الإسلامية.

وخصص الفصل الحادي عشر لزيارة البابا إلى لبنان سنة 1997، وأشار إلى الاستقبال الرسمي والشعبي الذي حظي به، وشارك فيه المسلمون بمختلف طوائفهم.

وختم الفصل والكتاب بكلمة عن الإرشاد الرسولي الذي أعلن دفن الحرب ودعا إلى التعايش والمحبة في لبنان عربي واحد موحد.

وربما يكون هذا الكتاب من أكثر الكتب شمولية وحياداً في موضوعه، وهو يسدُّ ثغرة في المكتبة العربية، ويؤمل أن يستفيد منه المخلصون من المسلمين والمسيحيين، وان يعملوا على تنمية الحوار بينهم ويصلوا به إلى نتائج مرضية.

ولا بد من الإشارة إلى أن استعمال مصطلح "الشرق الأوسط" الدخيل على قاموسنا العربي إنما اقتضاه سياق البحث أحياناً للدلالة على أقطار محددة في العصر الحاضر، ولا يعني أن هذا المصطلح مقبول عربياً أو إسلامياً، أو أنه سيترسخ تاريخياً، فالدنيا دول؛ إن كانت الغلبة فيها لأعدائنا اليوم فلا شيء يمنع أن تكون لنا غداً، ولا مستحيل على الأرض.

أحمد راتب عرموش

الفصل الأول

المنطلقات الأولى
للحوار الإسلامي ـ المسيحي

بعد أن أستتبّ الأمر لرسول الله محمد ﷺ في المدينة المنورة، وبدأ إرساء القاعدة الأولى للدولة الإسلامية، استقبل في بيته وفد مسيحيي نجران. أثناء اللقاء حان وقت صلاتهم، فدعاهم الرسول إلى أدائها في بيته، إلا أنهم آثروا أداء الصلاة خارج البيت، فكان لهم ما أرادوا. استؤنف اللقاء بعد الصلاة وانتهى كلٌ على دينه وعلى معتقده، فودّعهم الرسول بمثل ما استقبلهم به من حفاوة وترحيب.

صدر بعد ذلك عن النبي ﷺ عهد للنصارى بتاريخ الثالث من محرّم في السنة الثانية للهجرة، وشهد عليه كبار الصحابة، منهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌ. يقول العهد النبوي[1]: «وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو ردنة أو بيعة، فأنا أكون من ورائهم ذابّاً عنهم من كل عدة، لهم بنفسي وأعواني وأهل ملّتي وأتباعي كأنهم رعيّتي وأهل ذمّتي، وأنا أعزل عنهم الأذى. .». إلى أن يقول: «ولا يغيّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا حبيس من صومعته، ولا سائح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مسجد ولا في منازل المسلمين. فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله. ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا

---

(1) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ جمعها محمد حميد الله. دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة السادسة 1987، ص561.

من يتعبَّد، جزية ولا غرامة. وأنا أحفظ ذمّتهم أينما كانوا من برّ أو بحر، في المشرق والمغرب والشمال والجنوب، وهم في ذمّتي وميثاقي وأماني من كل مكروه. وكذلك من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضيع المباركة. لا يلزمهم ما يزرعوه لا خراج ولا عشر». ويختم نص العهد قائلاً: «.. ومن خالف عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله».

شكّل اللقاء مع الرسول نفسه ﷺ وفي بيته، وفي المدينة المنورة، أول لقاء حواري إسلامي ـ مسيحي في التاريخ. ويؤكد ذلك اللقاء، في ضوء أدبيات السلوك التي رافقته، وفي ضوء النتائج الفورية التي انتهى إليها، مدى الالتزام بما ورد في الآية 256 من سورة البقرة والتي تنص على أنه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، والـ«لا» هنا نافية وليست ناهية، أي أنها لا تعني لا تكرهوا الناس في الدين، ولكنها تعني لا يكتمل الدين، بل إنه لا يكون أصلاً بالإكراه.

تواصل الحوار الإسلامي ـ المسيحي بعد ذلك في عهود متعددة، وخاصة في العهدين الأموي والعباسي، ولعل من أبرز معالمه الحوار الشهير، في القرن الثامن، بين الخليفة العباسي المهدي والبطريرك تيموثي الأول، كما تواصل في ظل أوضاع وظروف مختلفة، ولعل أبرزه الحوار الذي جرى أثناء حروب الفرنجة «الحملات الصليبية» في عام 1219 في مدينة دمياط بمصر، بين السلطان الأيوبي الملك الكامل والقديس فرنسيس، المتحدر من مدينة أسيزي في إيطاليا. وقد أطلقت منظمة سانت جيديو من هذه المدينة، وفي ذكرى القديس فرنسيس مؤسس أخوية الفرنسيسكان، حركة جديدة للحوار بين الأديان في عام 1986م برعاية ودعم البابا يوحنا بولس الثاني.

يشكل المجمع الفاتيكاني الثاني (21 تشرين الثاني، نوفمبر 1964 ـ 28 تشرين الأول، أكتوبر 1965) المحطة الأبرز في مسيرة الحوار الإسلامي ـ المسيحي؛ ذلك أن المجمع تحدث، في القسم الثالث من الوثيقة التي صدرت عنه، عن الإسلام بإيجابية وانفتاح مناقضاً بذلك ما ورد في رسالة البابا الأسبق بيوس الثاني عشر في عام 1957، والتي وصفت انتشار الإسلام في أفريقيا بأنه «خطر على الكنيسة»، كما وصفت الحضور الإسلامي العالمي بأنه حضور كارثي لا يقل خطراً عن الشيوعية[1]. وقد جاء في دراسة أعدّها الأب جوزف

(1) **Histoire Universelle des missions Catholique, vol. 3- 4 Paris, (1958- 1959) P. 176.**

كوك ولويس غارديه وقدّم لها الكاردينال ماريللا المسؤول عن أمانة شؤون غير المسيحيين في الفاتيكان[1]:

«يجب أن نعترف، وبكل شجاعة وصدق، أن المسلمين لم يلاقوا من العالم المسيحي إلا القليل من التعاطف والودّ. . . وقليلون هم الذين أولوهم العناية الكافية، بالرغم من أن الرهبان والراهبات أظهروا اهتماماً أكبر في مجالات التعليم والمساعدة والرعاية، ولكن جهودهم بقيت جزئية أمام اتساع الاحتياجات، كما أن الغربيين، المستشرقين منهم والعلماء المتخصصين بالإسلاميات، أظهروا تعاطفاً وتفهماً لكل ما يتعلق بأهداف دراساتهم، ولكن تفهمهم للإنسان وتعاطفهم معه كان أقل. . وهذا ما يأخذه المسلمون عليهم في أيامنا هذه، مع شيء من اللوم والعتاب. وحتى اليوم، وفي أكثر الأحيان، عرف المسلمون العالم الغربي من خلال الأنظمة الاستعمارية. وباختصار، يجب أن نعي، بكل موضوعية، أن المسيحيين لم يحققوا بعد، كمجموعة، الشرط الأول والأهم الذي يؤهلهم لأن يكونوا موجودين وحاضرين في عالم المسلمين كما هو، وعلى حقيقته».

وجاء في الدراسة التي وُضعت في الأساس لتنفيذ مقررات المجمع المسكوني الثاني أيضاً: «إن عاطفة القلب دون الروح غير كافية إذا لم يكن الذكاء يعمل في قيادته وتوجيهها، ولا يمكن استقبال الإنسان الآخر إلا إذا كنا نعرفه، وأُولى مهام المسيحي هي التعرف على شريكه المسلم، لا كما هو بكل بساطة بل كما يريد أن يكون، وهذه المعرفة يجب أن لا تكون معرفة عالم الاجتماع، وهي معرفة جافة وغير حارة، ولكن يجب أن تكون معرفة الصديق للصديق الذي يعمل على أن يكتشف في صديقه كل ما هو حسن وجيد، وعلى أن يحبه حباً صادقاً».

عَكَسَ هذه الروح، لأول مرة، البابا بولس السادس في رسالة وجّهها تحيةً أخوية إلى المسلمين، وذلك أثناء زيارته للقدس وعمان (مروراً ببيروت) في كانون الثاني ـ يناير 1964، حيث أكد على «احترام أولئك الذين يعتنقون الأديان التوحيدية، والذين يعبدون معنا إلهاً حقيقياً وواحداً». أما الترجمة

---

(1) من أجل حوار إسلامي ـ مسيحي ـ موقف المسيحية من الإسلام كما حدّده الفاتيكان ـ ترجمة د. سليم الياقي ـ زهير مارديني ـ دار الجديد، 1983، ص31.

العملية الأولى لبيان المجمع الفاتيكاني الثاني فتمثَّلت في إنشاء الأمانة العامة لشؤون الديانات غير المسيحية، والتي حدَّد البابا يوحنا بولس السادس مهمتها في رسالة كنسية جامعة وهي «إجراء الحوار مع كل المؤمنين لإرساء علاقات جديدة بين الكنيسة والديانات الأخرى، وعلى ضرورة التقارب بصفة خاصة مع المسلمين». دلَّت تلك الرسالة ـ لأول مرة ـ على أن ثمة مؤمنين بالله غير مسيحيين، وأن ثمة أدياناً غير المسيحية، كما دلَّت على توجُّه من رأس الكنيسة (البابا) حتى قاعدتها (المجمع) على ضرورة الحوار والتقارب مع المسلمين، مع ذلك لم يصدر الموقف الأكثر جرأة والأكثر وضوحاً إلا في عهد البابا يوحنا بولس الثاني الذي اعترف بأن الخلاص ليس وقفاً على المسيحية وحدها، وأن الخلاص يمكن أن يتحقق من خلال أديان أخرى مستنداً في ذلك على دراسة أعدتها مجموعة من علماء اللاهوت أمثال «رانير» و«فون بالتزار» و«دي لوباك» و«دانيال».

فتح هذا الموقف الفاتيكاني بوابات الكنائس الأخرى على الإسلام، ولعل أهمها بوابة مجلس الكنائس العالمي (مقرُّه في جنيف) الذي أنشأ في عام 1971 دائرة للحوار مع الأديان، وخاصة مع الإسلام. وكان المجلس قد أقام في آذار ـ مارس 1969 أول مؤتمر له في بلدة كارتينيي ـ Cartigny ـ قرب جنيف خُصِّص لموضوع الحوار بين الأديان على المستوى العالمي. وبعد عشر سنوات، في عام 1979، صدرت عن المجلس وثيقة تضمنت المبادىء العامة للحوار مع أهل الأديان الحية حاولت إبراز القضايا الفقهية ـ اللاهوتية والقضايا العملية للحياة المشتركة بين المؤمنين بالأديان المختلفة. وهذه المبادىء هي[1]:

1 ـ على الكنائس إيجاد السبل لتمكين الجماعات المسيحية من الدخول في حوار مع جيرانها من المؤمنين بديانات وعقائد مختلفة.

2 ـ يجب الإعداد للحوار معاً.

3 ـ على المشاركين في الحوار أن يأخذوا بالاعتبار الموروثَ الديني والثقافي والتنوعَ العقدي الخاص بكل منهم.

4 ـ على المشاركين في الحوار أن يتمتعوا بحرية التعريف عن أنفسهم.

---

(1) **Meeting with faith,** Compiled by Stuart E. Brown. W.C.C., Geneva, 1989, P. VIII.

5 ـ على الحوار أن يحرِّك الجهود الثقافية في المجتمع.

6 ـ يكون الحوار مهماً للغاية عندما يجعل المتحاورون من حياتهم جزءاً منه.

7 ـ يتحتم متابعة الحوار من خلال قيام مؤسسات مشتركة في المجتمع.

8 ـ على المشاركين في الحوار التنبُّه لالتزاماتهم العقدية.

9 ـ على المشاركين في الحوار التنبه لانتماءاتهم الثقافية.

10 ـ على الحوار إثارة مسألة المشاركة في الاحتفالات: الطقوس والعبادة والتأمل.

11 ـ يتحتم التخطيط للحوار وتنفيذه بصورة جماعية عندما يكون ذلك ممكناً.

12 ـ يتطلب التخطيط للحوار وضع أسس عامة له، محلية وإقليمية.

13 ـ يمكن دعم الحوار من خلال المشاركة الانتقائية في اللقاءات والمنظمات المتعددة الأديان.

تتابعت اللقاءات والمؤتمرات والندوات الإسلامية المسيحية[1]، وانعكست إيجاباً على موقف مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، الذي أصدر رسالة راعوية[2] قال فيها:

«يعود الحضور المسيحي في معظم البلدان العربية إلى نشأة المسيحية. ويشهد التاريخ على وجود جماعات مسيحية عربية في مختلف مناطق الشرق. وبمجيء الإسلام في القرن السابع بدأ تاريخ مشترك جمع بين المسيحيين والمسلمين في الشرق العربي، وحضارة مشتركة ورثت جميع الحضارات السابقة في هذه البلاد. ولقد أدت خبرة الماضي بالمسلمين والمسيحيين إلى الانصهار في بوتقة واحدة هي الحضارة العربية، مع احتفاظ كل منهم بأصالته الدينية وخصوصيات تقاليده. ويشكل هذا التراث الحضاري المشترك ضماناً

---

(1) راجع: البيانات المسيحية ـ الإسلامية المشتركة من 1954 إلى 1992. معهد الدراسات الإسلامية ـ المسيحية، جامعة القديس يوسف ـ بيروت ـ 1995.

(2) معاً أمام الله في سبيل الإنسان والمجتمع ـ العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين في العالم العربي. مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك ـ الأمانة العامة ـ بكركي ـ 1994.

لاستمرارية التفاعل الذي يواجه اليوم مستجدات لا بدَّ من استيعابها، وإمكانات لابدَّ من بلورتها، وتحديات لا بدَّ من مواجهتها، وهذا كله يفتح الأبواب واسعة أمام مستقبل هذه الخبرة بكل حيويتها وأصالتها».

«ظهر التلاقي الإسلامي المسيحي في الماضي على المستويين الثقافي والشعبي. أما على المستوى الثقافي فقد تعاون رجال العلم المسلمون والمسيحيون، وعملوا جنباً إلى جنب لإرساء أركان حضارة مشتركة، تحولت فيما بعد إلى منارة للإنسانية طيلة عصور كثيرة متعاقبة، واستمر هذا التعاون مدى الأجيال، وظهر بنوع خاص في العصور الحديثة، وهذا إرث نفتخر ونعتزُّ به، لأنه مرجع من مراجع تأصُّلنا وأصالتنا وغنى عيشنا المشترك».

«عندما وجدت اللغة العربية طريقها إلى الجماعات المسيحية في منطقتنا، على اختلاف انتماءاتها الكنسية، أصبحت في الغالب وبسرعة أداة تعبيرها اللاهوتي والكنسي والطقسي واليومي، وهذا ما أسهم في بناء جسور التواصل بينها وبين هذا العالم الجديد الذي نشأ، كما أسهم، في الوقت عينه، في إعادة التواصل الثقافي بين مختلف كنائسها، بعد عهد من القطيعة والغربة».

«إن التراث العربي المسيحي هو الوجه المشرق لهذا الغنى الثقافي في الكنائس المسيحية المختلفة في ظل الحضارة العربية. ولا بدَّ من القول إن جزءاً كبيراً من هذا الفكر نما وترعرع في علاقته بالإسلام، وهذا يعطيه طابعه الخاص والمميز ضمن التراث المسيحي العام. ولقد أتاح التسامح الديني السائد في الحضارة العربية والإسلامية قيام حوارات دينية جادة بين مسلمين ومسيحيين تجدر الإشارة إليها، بالرغم من روح الجدل العقيم الذي اتسم بها بعضها أحياناً».

«وأما على المستوى الشعبي، فقد اندمج المسيحيون والمسلمون في مجتمع واحد يتقاسمون فيه «العيش والملح»، ويقف الواحد منهم إلى جانب الآخر في السراء والضراء، في ظل قيم مشتركة وأنماط جيدة خاصة تجمعهم وتوحِّدهم..».

توِّج هذه المسيرة بيان الإرشاد الرسولي الذي أذاعه البابا يوحنا بولس الثاني من بيروت في أيار ـ مايو 1997، أثناء زيارته الرسمية للبنان، والتي

جاءت في إطار المرحلة الأخيرة للمؤتمر الراعوي من أجل لبنان ـ السينودس ـ الذي عُقد في الفاتيكان بدعوة من البابا وبرئاسته في كانون الأول ـ ديسمبر 1994. يقول البيان[1]:

«هناك عدد من القيم الإنسانية الروحية الراهنة تجمع بين الإسلام والمسيحية، وقد أوجز أهمها المجمع الفاتيكاني الثاني، بقوله: «تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحيَّ القيوم، الرحمٰن القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلَّم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خُفيت مقاصده، كما سلم الله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه. وإنهم، على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهاً، يكرِّمونه نبياً، ويكرِّمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بتقوى. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي فيه الله جميع الناس بعد ما يبعثهم أحياء. من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية، ويعبدون الله خصوصاً بالصلاة والصدقة والصوم».

«لقد كانت العلاقات بين الكاثوليك والمسلمين في لبنان شاقة في مناسبات مختلفة، وقد تكون اليوم أيضاً، في نظر بعض المواطنين اللبنانيين، متَّسمة بالحذر بسبب ما حدث أحياناً من سوء تفاهم غذَّته ذكريات مؤلمة. وهناك أحكام راسبة في عمق الذهنيات تسهم في استمرار انعدام الثقة المتبادل، وهناك أيضاً بروز أشكال متنوعة من التطرف تبعث على القلق، ولا يمكن إلا أن يسيء إلى وحدة البلد، ويوقف الاندفاع الجديد الذي يجب إيلاؤه إياها، ويعيق العيش المشترك بين كل الفئات التي تكوِّن مجتمعه».

«من أجل الحوار البناء والاعتراف المتبادل، وعلى الرغم من التباينات الهامة بين الأديان، من الأهمية بمكان أن يصار، أولاً وقبل أي أمر آخر، إلى تمييز ما يجمع اللبنانيين في شعب واحد، في أخوة واحدة تتجلى كل يوم، ولا سيما في العيش معاً. بالإضافة إلى ذلك، يعدُّ المسيحيون والمسلمون بعضهم بعضاً شركاء في بناء البلد، فتتألق أكثر فأكثر في الأذهان الرغبة في تعزيز التفاهم والتعاون في ما بينهم، وتنشأ في الواقع هيئات التقاء في سبيل مزيد من التعارف العميق رغبة في خدمة البلد معاً».

(1) جريدة «النهار» 13/7/1997.

كان التجاوب الإسلامي مع هذا التوجه المسيحي الكاثوليكي إيجابياً. من مظاهر هذا التجاوب زيارة الكاردينال فاكينغ، في آذار ـ مارس 1965، إلى القاهرة حيث كان أول مسيحي يلقي محاضرة من على منبر جامعة الأزهر. بعد ذلك بحوالي أحد عشر عاماً، قام الكاردينال بينيدولي، أمين سرّ الأمانة العامة لشؤون الديانات غير المسيحية في الفاتيكان، بزيارة المملكة العربية السعودية حيث قابل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز (وكان وقتها ولياً للعهد)، ورداً على هذه الزيارة قام وفد سعودي، في تشرين الأول ـ أكتوبر من العام نفسه، بزيارة للفاتيكان لمواصلة الحوار الإسلامي ـ المسيحي الذي بدأه الكاردينال بينيدولي. وفي نيسان ـ أبريل 1978 قام الكاردينال بزيارة رسمية إلى جامع الأزهر حيث أجرى حواراً مع الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود.

وشمل التجاوب الجناح الغربي في العالم العربي، ليبيا وتونس والمغرب. ففي أيلول ـ سبتمبر 1974 نُظّم لقاء إسلامي ـ مسيحي في تونس حول مشكلات التطور المعاصر. وفي شباط ـ فبراير 1976 صدرت وثيقة طرابلس (ليبيا) إثر ندوة إسلامية ـ مسيحية بين جمعية الدعوة العالمية والفاتيكان حول الأسس والمبادىء العامة للتفاهم بين الإسلام والمسيحية.

وفي آب ـ أغسطس 1985، استقبل الملك الحسن الثاني، عاهل المغرب (الذي يتمتع بلقب أمير المؤمنين باعتباره من أهل بيت النبي محمد ﷺ) البابا يوحنا بولس الثاني الذي قام بزيارة رسمية للمغرب (المسيحيون في المغرب أقل من واحد بالمئة) وألقى خطاباً في إحدى ساحات مدينة الدار البيضاء.

يبرز، من خلال معالم هذه المسيرة الحوارية، أمران أساسيان: الأمر الأول هو أن التجاوب الإسلامي لم يرتقِ بعد إلى مستوى المبادرة. صحيح أن الموقف الإسلامي انتقل من التحفظ إلى التجاوب إلا أنه يحتاج إلى مزيد من الانفتاح، وإلى المزيد من الإعداد، وإلى المزيد من مراجعة بعض المفاهيم والنظريات حتى ينتقل إلى المرحلة الأهم وهي مرحلة المبادرة.

أما الأمر الثاني فهو أن الحوار يكاد يكون محصوراً مع الكنيسة الكاثوليكية. فالجسور الحوارية لم تمتد بعد بقدر مماثل مع الكنائس الأخرى، وخاصة مع الكنيسة الأرثوذكسية سواء في أسطنبول أو في موسكو، ومع الكنائس الإنجيلية في الولايات المتحدة. يقلل من حجم هذا الفراغ الحواري الدور الذي يقوم به مجلس كنائس الشرق الأوسط (ليماسول ـ قبرص).

فالمجلس الذي يضم الكنائس الشرقية المتعددة، يحرص على إقامة جسور من الحوار والتفاهم مع المجتمعات الإسلامية في الأقطار العربية ثقافياً واجتماعياً وحتى سياسياً، ولعل من أبرز إنجازاته مؤتمر «مسلمون ومسيحيون معاً من أجل القدس»، الذي عُقد في بيروت في حزيران ـ يونيو 1996 بالتعاون مع الفريق العربي الإسلامي المسيحي للحوار والذي لي شرف تمثيله، وهو المؤتمر الذي جمع، ربما لأول مرة، المرجعيات الدينية الإسلامية والمسيحية من دول عربية مختلفة تحت سقف واحد، وحول هدف واحد وموقف موحد، عكسه البيان المشترك الذي صدر عن المؤتمر.

وقد نصَّ البيان على ما يلي:

مدفوعين بعذابات القدس، إنساناً وأرضاً مباركة، متضامنين مع لبنان الناهض من محنته، أوفر قوة وأصلب وحدة، تلاقينا في بيروت، ما بين 14 و16 حزيران ـ يونيو 1996، بدعوة مشكورة من مجلس كنائس الشرق الأوسط، والفريق العربي للحوار المسيحي ـ الإسلامي، مرجعيات وقيادات روحية، إسلامية ومسيحية، من الوطن العربي، لنُبلغ العالم، أدناه وأقصاه، شعوبه ودوله، صوتنا الواحد، صوت أبنائنا كل المؤمنين العرب، مسيحيين ومسلمين، نابعاً من تاريخنا الواحد، متوجِّهاً بنا إلى مستقبلنا الجامع.

مسألة القدس، عندنا، هي أم المسائل، فلسنا حيالها فرقاً، وليس بيننا من يريدها على اسمه وحده. نحن مقدسيون بالانتماء وبالحب، ولا يطمئن لنا إيمان ما دامت القدس في الأسر. والقدس مسألة لا يجوز إرجاء الحديث عنها ولا تأجيله، فهي قبل كل قضية، وفوق كل قضية بيننا وبين الصهاينة الغاصبين لأرض فلسطين.

والقدس، شعبها أبناؤها الفلسطينيون الذين سكنوها جيلاً فجيل، منذ كانت القدس، فلم ينقطعوا عنها ولا عرفوا سواها عاصمة، ولا تعرَّفوا إلى أنفسهم خارج تاريخها.

هؤلاء هم من يكابد اليوم عسراً في رزقه أو طرداً من بيته، أو مهانة في حياته، أو مصادرة لأرضه. وقلقنا معهم وعليهم يدفعنا إلى إعلان موقف واحد من قضيتهم، قضيتنا جميعاً: قضية القدس.

في هذا الموقف يتراءى الحل في استعادة السيادة العربية استعادة تُعيد

وصل القدس بفلسطين، وهي منها بمنزلة القلب، لا في حل سياسي يقطعها عن جسم القدس وشعبها وتراثها وهويتها. فالمقدسات تستمر حيَّةً بالمقدسيين الذين يُقيمون فيها عبادة لله، في الصلاة والسجود، وفي الحج والتبرُّك، وإلا غدت المقدَّسات متاحف، فيما هي بيوت للدعاء.

إنه لا توجد سلطة في العالم تملك حق تهويد القدس أو تدويلها، أو نزع صفتها العربية الإسلامية ـ المسيحية عنها، على مستوى العالم، وعلى المستوى العربي الإسلامي ـ المسيحي، فضلاً عن مستوى أية دولة على حدة. لا توجد سلطة، أياً ما كانت، لها حق التصرُّف في هوية القدس المسيحية ـ الإسلامية. وكل قرار من أية جهة، محلية أو دولية، يمس هذه الهوية باطل لا قيمة له، ولا مشروعية تُستمدُّ منه أو تُبنى عليه.

وإذ نجتمع حول القدس ولها، تستفزنا الوقائع التي تشهد أن إسرائيل لا تكف عن انتزاع الأرض من أصحابها بحجج لا تنهض على حق، ولا تكف عن حجب رخص البناء والإعمار عن أبنائها الفلسطينيين، ولا تكف عن حصار المدينة بما يخنقها ويمنع أبناءها من الوصول إليها بحرية، ولا تكف عن الحيلولة دون الفلسطينيين وممارسة حقِّهم في التعبير السياسي عن وجودهم، ولا تكف عن تبديل وجهها السكاني بتوطين من ليسوا منها ودفع أبنائها خارجها، وهذه كلها جرائم تناهض شرائع السماء ومواثيق الأرض، وينبغي أن تتوقَّف للتو.

ويثير كوامنَ الغضب كلَّه أن إسرائيل تدفع المقدسيين إلى الهجرة، يستوي في ذلك المسلمون والمسيحيون، وفي ذلك ما يجعل القدس مدينة مصادرة، وهي، في مقدَّساتها وتاريخها ودعوتها، ملتقى الجميع.

أمام هذه الوقائع، لا يسعنا، ونحن المؤتمنون على أبنائنا وحقِّنا وأرضِنا، إلا أن ننادي العالم أجمع:

إن ثمَّة شعباً، هو الشعب الفلسطيني، مهدَّد في وجوده ومستقبله، فلا تَدَعُوه مستفرداً به في محنته. إن القدس أرضُ لقاء بين أبنائها، فلا تسمحوا أن تصيرَ ساحة ذكرياتٍ أو متحفَ مقدَّساتٍ بلا روح ولا شعب.

إن السلام ثمرة العدل. لا يقوم سلام ولا يدوم على ظلم وقهر. وأخشى ما نخشاه أن تجمع مصالح الدول فتفرض وضعاً يحرم الشعب

الفلسطيني من إقامة دولته المستقلّة وعاصمتها القدس الشريف، ويحول دون الانسحاب الكامل من الجنوب اللبناني وهضبة الجولان السورية.

إننا من موقع التزامنا قضية القدس:

ندعو مسلمي ومسيحيي العالم أجمع للوقوف إلى جانب الحقوق الفلسطينية المشروعة.

ندعو الكنائس كافة وهيئات العالم الإسلامي ومنظماته جميعاً، إلى أن يكون تحرير القدس شاغلها الشاغل، فتصرف لها كل جهد ودعم في كل مجال، إلى أن يزهق الباطل وينتصر الحق.

ندعو دول العالم والأمم المتّحدة ومنظماتها والهيئات غير الحكومية إلى مؤازرة المؤسسات الفلسطينية في القدس لتطوير البنية التحتية وتوفير الدّعم لها بما يمكنها من الاستمرار في تقديم الخدمات الضرورية، في الميادين الصحيّة والتربوية والاجتماعية والإسكانية.

ندعو الدول العربية والسلطة الوطنية الفلسطينية إلى توحيد موقفها من قضية القدس باعتبارها أمانة في أعناق العرب والمؤمنين في العالم كله، وإلى أن ترتفع في مسؤوليات دفاعها عن عروبة القدس والتعدُّدية الدينية فيها إلى مستوى مكانة هذه المدينة المباركة.

وعلى إسرائيل، باعتبارها سلطة محتلّة، أن تكف عن أي إجراء من شأنه إغلاق القدس أمام أبنائها وكل أبناء الشعب الفلسطيني والمؤمنين كافة، وتتوقّف عن كل تدبير يؤول إلى تبديل وجه القدس في بَشرها وحجرها، وتقرّ بحقوق الشعب الفلسطيني، فهذه هي أدنى متطلّبات السلام والعدل.

إن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل بحق المقدّسات الإسلامية والمسيحية وضد حقوق الإنسان العربي في المدينة المقدسة، ما كانت لتقع لولا الدعم والمساندة والتغطية التي توفُرها دول وقوى عالمية مختلفة، وعلى هذه الجهات جميعها أن تكفّ عن مساندة البغي والعدوان، وألاّ تشارك في تمكين إسرائيل من تنفيذ مخطّطاتها في الإستيطان والتهويد والتهجير والإبادة ضد المدينة المقدسة.

إننا ـ مسيحيين ومسلمين ـ لا نعترف بشرعية أية ممثّلية أجنبية أو بعثة دبلوماسية لدى إسرائيل تتّخذ من القدس مقراً لها، ونعتبرُ هذا عملاً عدائياً ضد

العرب مسلمين ومسيحيين على السواء.

ونحن، في ما يعنينا، سنكون صوت القدس الواحدة، وسنمدُّ يدَ العون إلى أبنائها في كل ما يثبِّتهم في أرضهم ويقيمهم في الحرية، ويذود عن المقدسات.

سنعمل معاً، مسلمين ومسيحيين، حتى تكون القدس مدينة مصالحة وعدل وسلام للجميع.

القدس مرتقانا إلى السماء.

نحن مولودون منها بالروح، ونحن شاخصون إليها بالحب، ونحن فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

سلام للقدس، سلام على القدس.

وسلام القدس لكل العالم.

الفصل الثاني

المسيح وأمه عليهما السلام في القرآن الكريم

قبل الدخول في صميم موضوع الحوار الإسلامي ـ المسيحي، من المفيد تبيان الآيات القرآنية التي تتحدث عن السيدة مريم، وعن السيد المسيح، وذلك لأن القرآن الكريم هو المرجع الأول والأساس للفقه الإسلامي، وهو الذي يحدد نظرة الإسلام إلى الرسالات السماوية الأخرى.

مريم في القرآن الكريم[1]:

ميلادها ونذرها لله:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

اصطفاء الله لها وتطهيره إياها:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ

---

(1) «معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم»، تصنيف د. عبد الصبور مرزوق، ج ـ 1، دار الشروق ـ القاهرة ـ 1995.

(2) سورة آل عمران، الآيات 35 ـ 37.

ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1].

الملائكة تبشّرها بالمسيح:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

بينها وبين الروح الذي تمثّل لها بشراً سوياً:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[3].

حزنها وعزلتها بعد ظهور الحمل:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[4].

رعاية الله لها:

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[5].

---

(1) سورة آل عمران، الآيات 42 ـ 44.
(2) سورة آل عمران، الآيات 45 ـ 47.
(3) سورة مريم، الآيات 16 ـ 21.
(4) سورة مريم، الآيتان 22 و23.
(5) سورة مريم، الآيات 24 ـ 26.

عودتها إلى قومها وظنهم بها الظنون:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[1].

الصبيُّ يُبرِّىء الأم:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا * وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[2].

سيدة نساء العالمين: المحصنة القانتة:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ * يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[3].

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[4].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾[5].

المسيح عليه السلام في القرآن الكريم:

التبشير بميلاده:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[6].

إيتاؤه البينات وتأييده بروح القدس:

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[7].

---

(1) سورة مريم، الآيتان 27 و28.
(2) سورة مريم، الآيات 29 ـ 33.
(3) سورة آل عمران، الآيتان 42 و43.
(4) سورة الأنبياء، الآية 91.
(5) سورة التحريم، الآية 12.
(6) سورة آل عمران، الآية 45.
(7) سورة البقرة، الآية 87.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[1].

﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[2].

تعليمه الكتاب والحكمة وإرساله إلى بني إسرائيل:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[3].

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[4].

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾[5].

أخذ الميثاق منه:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[6].

آياته في الناس:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[7].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[8].

---

(1) سورة البقرة، الآية 253.
(2) سورة المائدة، الآية 110.
(3) سورة آل عمران، الآية 48.
(4) سورة آل عمران، الآية 49.
(5) سورة الحديد، الآية 27.
(6) سورة الأحزاب، الآية 7.
(7) سورة آل عمران، الآية 49.
(8) سورة المائدة، الآيتان 110 و111.

عيسى عبد الله ورسوله وما هو بإله:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(1).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾(2).

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾(3).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(4).

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(5).

نفي مقولة إن المسيح ابن الله:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(6).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(7).

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(8).

---

(1) سورة آل عمران، الآية 49.

(2) سورة النساء، الآية 171.

(3) سورة النساء، الآية 172.

(4) سورة المائدة، الآية 75.

(5) سورة الزخرف، الآيات 57 ـ 59.

(6) سورة التوبة، الآية 30.

(7) سورة مريم، الآيتان 29 و30.

(8) سورة مريم، الآيات 34 ـ 36.

كفر القائلين بألوهية المسيح أو بالتثليث:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[3].

المسيح يتبرأ ممّن ألّهوه:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[4].

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[5].

إرساله إلى بني إسرائيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾[6].

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[7].

---

(1) سورة المائدة، الآية 72.
(2) سورة المائدة، الآية 73.
(3) سورة المائدة، الآية 75.
(4) سورة المائدة، الآيات 116 ـ 118.
(5) سورة الزخرف، الآيتان 63 و64.
(6) سورة آل عمران، الآية 49.
(7) سورة آل عمران، الآية 50.

تبشيره برسالة محمد ﷺ:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1].

وجوب الإيمان به وبما أنزل عليه:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3].

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4].

مثله عند الله كمثل آدم:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[5].

إيمان الحواريين بعيسى:

﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[6].

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[7].

---

(1) سورة الصف، الآية 6.
(2) سورة البقرة، الآية 136.
(3) سورة آل عمران، الآية 84.
(4) سورة الشورى، الآية 13.
(5) سورة آل عمران، الآيات 59 ـ 61.
(6) سورة آل عمران، الآيتان 52 و53.
(7) سورة المائدة، الآية 111.

إنزال المائدة:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۞ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(1).

لعن الكافرين من بني إسرائيل على لسانه:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾(2).

رفعه ونفي قتله أو صَلْبه:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(3).

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾(4).

السلام عليه في الميلاد والموت ويوم يبعث:

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾(5).

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(6).

في ضوء هذه الآيات القرآنية الكريمة تواجه الحوار الإسلامي ـ المسيحي

---

(1) سورة المائدة، الآيات 112 ـ 115.

(2) سورة المائدة، الآية 78.

(3) سورة آل عمران، الآية 55.

(4) سورة النساء، الآيات 156 ـ 159.

(5) سورة مريم، الآية 15.

(6) سورة مريم، الآية 33.

إشكاليتان فقهيتان أساسيتان. تتعلق الإشكالية الأولى بألوهية المسيح، وتتعلق الإشكالية الثانية بنبوة محمد ﷺ.

عقد في آذار ـ مارس 1977، في مدينة قرطبة بأسبانيا، مؤتمر خُصِّص لبحث هاتين الإشكاليتين حضره أكثر من مائتي عالم إسلامي ولاهوتي مسيحي. غير أن هذا المؤتمر، الذي امتنع العلماء المسلمون العرب عن المشاركة فيه لاعتقادهم بأنه غير ذي جدوى، لم يصل إلى حلٍّ. فالإسلام يحترم يسوع المسيح ويعظِّمه كنبي ولكن لا يعترف به إلهاً. والواقع أن هذا الأمر كان موضع جدل لاهوتي حتى بين الكنائس المسيحية الأولى[1].

كانت هناك **النظرية المونوفيزية** التي ظهرت في القرن الخامس للميلاد والتي تقول بالطبيعة الواحدة للمسيح، أي أن المسيح إله كامل، وأنه إنسان كامل، وأن الطبيعتين تتجسدان فيه بطبيعة واحدة. وكان صاحبها «أوطيخا» (أوتيخوس باللاتينية) رئيس أديرة القسطنطينية، وقد راجت نظريته في كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية أكثر من 200 عام (451 ـ 680م). وكانت هناك **النظرية النسطورية** ـ نسبة إلى نسطور (السوري) (أو نسطوريوس باللاتينية) ـ، وقد شغل منصب بطريرك القسطنطينية في عام 428، وتقول نظريته بطبيعتين منفصلتين للمسيح، وتنكر نظريته على السيدة مريم لقب أم الله. وقد حرم مجمع أفسس هذه النظرية في عام 431م.

وكانت هناك نظرية **المشيئة الواحدة** أو المونوتيلية التي راجت في القرن السابع، إلى أن حرّمها مجمع القسطنطينية الثالث في عام 680م.

وكانت هناك النظرية الأريوسية (نسبة إلى الكاهن المصري الليبي الأصل أريوس) التي تقول بوحدانية الله المطلقة، وبأن كل ما هو خارج الله مخلوق بإرادة الله. وتنكر الأريوسية ألوهية المسيح جملة وتفصيلاً، وتعتبره إنساناً مخلوقاً كغيره من البشر. وقد حرّم مجمع نيقية، في عام 325، هذه النظرية وأدان أريوس وحكم عليه بالكفر والزندقة، وأقرّ المجمع ألوهية المسيح ومساواته في الذات وفي الجوهر مع الإله الأب.

أما النظرية السائدة اليوم، فقد أقرّها مجمع خلقيدونية الرابع في عام

---

(1) راجع:
Karen Armstrong, A History Of God, Alfred A. Knope. N.Y. 1994, P. 107.

451م (وهي مدينة في تركيا اليوم كانت تقع على ضفاف البوسفور) متبنّياً الأفكار التي صاغها البابا ليو الأول حول ألوهية المسيح.

ويلاحظ الكاتب الروسي أليكسي جورافسكي[1] أن «المشكلة الثقافية الكبرى، التي برزت أمام تلك الشعوب الصغيرة «شعوب الشرق الأدنى» تكمن في أن العالَم الإغريقي ـ الروماني اعتنق بدوره الديانة المسيحية، ثم عمَّمها ونشرها في سياق تكييفها مع ثقافته المهيمنة أساساً. وبهذا وجدت الشعوب والأقوام الصغيرة المنتصرة في منطقة الشرق الأدنى نفسها أمام أمبراطوريتين مسيحيتين عظيمتين، حاولتا بأسلوب نوعي جديد، أن تخضِعا (كالماضي) تلك الشعوب والأقوام لتأثيراتهما السياسية والروحية. وقد وجدت تلك الشعوب أن الشكل الاستقلالي، المناسب لتطلعاتها، إنما يتمثل في انتهاج العقائد والمبادىء المسيحية ذات النزعات غير الأرثوذكسية. فلا السريان، ولا الآشوريون، ولا الأقباط، ولا الأرمن اعترفوا بالعقائد والمبادىء المقرة في مجمع خلقيدونية المنعقد في سنة 451م، (ولهذا أطلق على هذه الكنائس، أحياناً، تسمية الكنائس غير الخلقيدونية)، وشكلوا مقابل ذلك كنائسهم الوطنية ضمن الاتجاهات والتيارات المونوفيزية، النسطورية، وأخيراً أصحاب المشيئة الواحدة أو المونوتيلية».

«ولم تكن وراء هذه الانشقاقات الاستقلالية أسباب لاهوتية محضة، بقدر ما كانت تطلعات قومية ومصالح سياسية، حيث أن كل كنيسة في الشرق الأدنى مثّلت، وفق الوصف الدقيق الذي أعطاه ج. ليرو «إثنوس» (شعب، عرق، جنس)، ملتحماً مع الدين واللغة».

مع ذلك يتساءل الدكتور محمود أيوب[2]: «هل المسيح في الإنجيل يعلّمنا شيئاً نحن المسلمين؟ وهل المسيح في القرآن يعلمنا شيئاً نحن المسيحيين؟ أو بمعنى آخر: هل يمكن أن يكون السيد المسيح نقطة تلاقٍ في الحوار الحسن، أو الحوار الأحسن، بين المسيحية والإسلام، بما أنه هو نفسه نوع من الإظهار أو الإعلان الإلهي في كلا الدينين؟».

---

(1) أليكسي جورافسكي ـ الإسلام والمسيحية ـ ترجمة د. خلف محمد الجراد، عالم المعرفة ـ الكويت ـ نوفمبر ـ تشرين الثاني 1996، ص176.

(2) د. محمود أيوب ـ المطران جورج خضر، «نحو الجدال الأحسن: محاورات إسلامية ـ مسيحية»، مركز الدراسات المسيحية ـ الإسلامية، جامعة البلمند ـ 1997 ـ ص62 ـ 63.

«المسيح في الإنجيل هو ذلك الملك السماوي المتواضع والوديع الذي وُلِد في مذود. وعد الله، في القرآن، الذي استُضعفوا في الأرض ليستخلفنَّهم في الأرض وليمكِّن لهم دينهم، والمسيح نفسه قال: «طوبى للمساكين بالروح» (متى 5: 3). فالتواضع والفقر والمسكنة أمام الله هي مبادىء هامة جداً في المسيحية والإسلام، والسيد المسيح خير مثال لهذه المبادىء الإنسانية. والقرآن كإنجيل لوقا لا يسرد ولادة المسيح كرواية عابرة ولكنه يروي ولادته بلغة احتفالية؛ أي أنه يحتفل كما يحتفل إنجيل لوقا عندما يصف ظهور الملائكة للرعاة وإشراق النور».

«المسيح يدافع عن نفسه وهو طفل، ويعرِّف بنفسه عندما يقول إن الله آتاه الكتاب وجعله نبياً: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[1] وهذه البركة، هي في ما أعتقد، رمز التقوى والتعبُّد الشرقي إنْ كان في الإسلام أو في المسيحية الشرقية. فإنجيل لوقا والقرآن يلتقيان في مواضع كثيرة في ما يتعلق بولادة السيد المسيح. والسيد المسيح مرَّ، بحسب الأناجيل، بتجارب إنسانية، فصام، ثم جرَّبه الشيطان، وانتهت التجربة بانتصار المسيح عليه، ويتوِّج هذا كله بحادثة التجلِّي على الجبل عندما بهر السيد المسيح التلاميذ بنوره الإلهي. وبعد هذا مباشرة سأل المسيح، كما هو وارد في نصِّ الإنجيل: من يقول الناس إني أنا؟ فيجيب بطرس بقولته الشهيرة: «أنت المسيح ابن الله الحيّ». والمسيح في القرآن هو أيضاً كلمة الله: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[2]، وهو آية للناس ورحمة من الله، وأمه آية للناس ومصدر بركة. والمسيح في الإنجيل والقرآن هو ذلك الإنسان المتألم الذي كان يُطعم الجياع ويُبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله. قد يكون قول: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3] صدىً لقول السيد المسيح في الإنجيل: «ليست مشيئتي أنا بل مشيئة الذي أرسلني». لا أريد أن أدخل في قضية ألوهة المسيح لأن هذه المشكلة هي التي تفصِل المسيحية عن الإسلام في الظاهر. فمثلاً عندما خلق الله آدم - كما جاء في سورة الأعراف وسورة طه في القرآن - سوَّاه بيده ونفخ فيه من روحه، ونفحة الروح الإلهي في آدم تحمل معاني التكريم والاصطفاء والتفضيل. هذا ما دفع ابن عربي، الفيلسوف الصوفيّ الشهير، إلى انتقاد

(1) سورة مريم، الآية 31.
(2) سورة آل عمران، الآية 45.
(3) سورة آل عمران، الآية 49.

المسيحية ليس لأنها قالت في المسيح ما قالت، ولكن لأنها لم تدرك أنَّ ما قالته في المسيح هو من حيث المبدأ صحيح في شأن الإنسان ككل من حيث هو إنسان».

أما المطران جورج خضر[1] فيرى أن المسألية المسيحية في العلاقة بين الناسوت واللاهوت لم تكن اعتباطية أو مصطنعة. فقد خصَّص المسيحيون الكثير من الوقت، بين المجمع المسكوني الأول (325) والمجمع المسكوني الرابع (451)، ليبحثوا عن علاقة الناسوت واللاهوت، والفكر المسيحي قائم على هذا ومنشغل بهذا، لأن المعطيات النصّية أمامنا. عندما يقول أصدقاؤنا، رحمهم الله جميعاً، المفتي حسن خالد والصديق الطيب الصدوق الشيخ صبحي الصالح، إن المسيحيين اخترعوا هذه القضية في المجمع المسكوني الأول، وإنهم التأموا بقيادة قسطنطين الملك الذي أراد أن يقيم نوعاً من السياسة الواقعية (Real politic) في الأمبراطورية، فاخترعوا قصة الناسوت واللاهوت، هذا أمر لا يقبله العقل، ثمة أشياء موجودة سابقاً اعتمد عليها الحاضرون في المجمع الأول ولم يبتدعوا أي جديد. إذاً، العلاقة بين الأزليّ والزمني مطروحة في الديانتين. الشيء الثاني الذي أراه متسرّعاً عند المفسرين هو في قولهم إن القرآن عندما يعتبر أن المسيح هو كلمة الله يقصد بذلك قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[2]. أعتقد أن هذا التفسير فيه شيء من التسرُّع لأنه عندما يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[3] مذكّراً الضمير في «اسمه» مع أنه لا يجوز في العربية إطلاقاً، وما من استثناء عند أي لغوي من سيبويه والخليل وغيرهما، فالضمير يعود إلى ما قبله. فإذا كان لفظ الكلمة مؤنثاً، كان على القرآن أن يقول «بكلمة اسمها عيسى». لا يمكنني أن أفترض خطأ لغوياً في كتاب عربي مبين. سيِّد قطب اعترف في تفسيره للآية أنَّ ثمّة مشكلة فيها بسبب من هذا الضمير المذكّر. نحن نتعامل مع مقولة يوحنا ومفادها أن هذا الشخص الذي سمّيناه كلمة الله له وجود ما ـ وسيِّد قطب يطرح هذا السؤال أيضاً ـ قبل أن يظهر من أحشاء البتول، وأنه علينا أن نفتش عن هذا الوجود السابق؟.

---

(1) د. محمود أيوب ـ المطران جورج خضر، **«نحو الجدال الأحسن: محاورات إسلامية ـ مسيحية»**، مركز الدراسات المسيحية ـ الإسلامية، جامعة البلمند ـ 1997 ـ ص68.

(2) سورة آل عمران، الآية 59.

(3) سورة آل عمران، الآية 45.

مريم العذراء في العقيدة المسيحية

تقول العقيدة المسيحية بإله واحد، وتفلسف وحدانية الله بالثالوث المقدس الآب والابن والروح القدس. ولكن أين السيدة مريم العذراء؟ بموجب العقيدة المسيحية فإن مريم هي زوجة الآب وأم الابن (المسيح)؛ وهذه مكانة عالية جداً، فلماذا لم تعتبر أقنوماً رابعاً في فلسفة الوحدانية الإلهية؟. هل إن استبعادها في الماضي كان يعكس موقف المجتمع من المرأة؟ وهل إن استمرار استبعادها، رغم كل ما تتمتع به من محبة واحترام وتقدير في قلوب المؤمنين، هو في حدِّ ذاته استمرار لهذا الموقف من المرأة؟.

لا يذكر تاريخ المسيحية سوى النذر اليسير عن مريم، ولذلك فإن صورتها تتباين من جيل إلى جيل، إلا أن ثمة إجماعاً على تعظيمها؛ حتى إن الأناجيل لا تذكر مريم إلا لماماً. يقول أقدم الأناجيل - **إنجيل متى (Mark)**: إن مريم لم تفهم أو لم توافق على ما كان ابنها بصدده. غير أن **إنجيل يوحنا**، وهو آخر الأناجيل، يروي كيف طلبت مريم من المسيح أن يحوِّل الماء إلى خمر، وكيف أن تلك المعجزة كانت أولى معجزاته. ويتفرد هذا الإنجيل في رواية حادثة حضور مريم حادثة صلب المسيح التي تقوم عليها العقيدة المسيحية بما يؤكد أنها كانت من المؤمنين به ومن التابعين له. **أما إنجيل مرقس (Mathew)** فقد نصَّ على أن مريم وَلَدَت وهي عذراء. ونجد في **إنجيل لوقا (Luke)** الاهتمام الأكبر بمريم إذ يقدمها على أنها خادمة الله المطيعة، وعلى أنها الناطقة بلسان المضطهدين والمعذبين، ويصف مريم بأنها خيرٌ كلها وأن الأجيال المتعاقبة سوف تعتبرها مباركة.

وبالفعل، فقد احتلت مريم على مدى الألفي سنة الماضية موقعاً متميزاً في قلوب المؤمنين وعقولهم، وكانت مصدر وحي لعدد كبير من الروائع في الفن والشعر والموسيقى الغربية. إن أجمل اللوحات وأجمل المنحوتات الغربية تدور حول مريم المأخوذة بالإعجاز الإلهي الذي جعل منها أُماً طبيعية وهي في كامل طهارتها وعذريتها، وأجمل الكنائس شُيِّدت تخليداً لها، مثل كنيسة سانتا ماريا ماجوري في روما، ونوتردام في باريس، وآيا صوفيا في اسطنبول، وأجمل الأشعار وأعذبها نُظِّمت في محبتها، مثل قصائد هوبكنز ودانتي وفييون، وأجمل الألحان عُزِفت باسمها، مثل رائعة شوبرت: آفا ماريا. وفي الواقع لم تحتل امرأة، في تاريخ الإنسانية كلها، الموقع الذي

تحتله مريم. فالمزارات القائمة باسمها، مثل مزار لوردز في فرنسا، ومزار فاطمة في البرتغال تستقبل المؤمنين المسيحيين من كل أنحاء العالم. ويقدر عدد هؤلاء الزوار بحوالي العشرين مليون إنسان. وقد سجلت المراجع الكنسية أكثر من أربعمائة ظهور لمريم العذراء في مناطق متعددة من العالم خلال هذا القرن، أي أكثر من القرون الثلاثة الماضية المجتمعة.

فهل يكون القرن الواحد والعشرين مسيحياً، قرن مريم العذراء؟

يفرض هذا السؤال نفسه في ضوء التحرك المكثف والمتواصل والمنظم الذي يستهدف لأول مرة في تاريخ الكنيسة إعادة النظر في فلسفة الثالوث المقدس بحيث تصبح مريم الأقنوم الرابع. ففي السنوات الأربع (1993 ـ 1997)، تلقى البابا يوحنا بولس الثاني عرائض من مختلف أنحاء العالم المسيحي تطالب بإقرار هذا التعديل، وقد بلغ عدد الموقعين على العرائض 4 ملايين و340 ألفاً و429 شخصاً من 157 دولة، أي بمعدل مائة ألف توقيع في الشهر. لا تقتصر أهمية هذه العرائض على عدد الموقعين عليها، بل تتجاوز ذلك إلى نوعية الموقعين؛ ذلك أن بين الموقعين 42 كاردينالاً بينهم 6 كرادلة من المقيمين في الفاتيكان. ومن هؤلاء الكرادلة أيضاً جون أوكونور رئيس أساقفة نيويورك، وجوزف غليمب رئيس أساقفة بولندة، ومن الموقعين أيضاً خمسمائة مطران. وقبل وفاتها بعدة أشهر وقعت الأم تيريزا على عريضة أرسلت إلى البابا من الهند.

أما البابا يوحنا بولس الثاني فإنه يعزو إلى مريم الفضل في نجاته من محاولة اغتياله في عام 1981، وقد أشار خمس مرات في مناسبات مختلفة إلى مريم على أنها شريكة في الخلاص. لم تكن تلك الإشارات إعلاناً لنص عقيدي، إلا أن البابا كان يردد العبارة اللاتينية: توتس تووس (Toutus tuus) ومعناها «كل الأمر لك»، أو «كل شيء لك». وقد تحدث عن مريم في أكثر من خمسين خطاباً مؤكداً على دورها في الخلاص. مع ذلك فإن البابا يعرف تماماً أنه إذا استجاب إلى أصحاب العرائض فإن معنى ذلك إدخال تعديل جوهري على أسس العقيدة المسيحية، ذلك أن إضافة مريم إلى الثالوث المقدس تعني:

أولاً: أن لمريم دوراً في عملية الخلاص التي يقوم بها ابنها.

ثانياً: أن كل فضائل آلام ومعاناة وموت المسيح ما كانت لتتم لولا ذلك التداخل بينها وبين ابنها.

ثالثاً: أن كل الصلوات والرجاءات من المؤمنين يجب أن توجه إليها، وهي التي تنقلها إلى المسيح.

بالنظر إلى أهمية هذه المعاني، شكل البابا لجنة من 23 من الاختصاصيين في فلسفة العقيدة، المعنيين خاصة بالشأن المريمي، وذلك لإعداد توصية تمهِّد لاتخاذ الموقف المناسب. وفي شهر حزيران ـ يونيو 1997 أنجزت اللجنة مهمتها. وقد نشرت جريدة «أوبزرفاتوري رومانو»، الناطقة بلسان الفاتيكان، قرار اللجنة برفض إدخال أي تعديل على نظرية الثالوث المقدس، وذكرت الصحيفة أن هذا القرار اتُّخذ بأكثرية 23 ضد لا شيء.

بُني هذا القرار على أساس ما ينص عليه العهد الجديد من أن «هناك إلهاً واحداً، ومن أن هناك وسيطاً واحداً بين الله والإنسان هو المسيح» (1 ـ تيموثي 2/ 5). مع ذلك فإن من السذاجة الاعتقاد بأن الأمر انتهى عند هذا الحدّ. فالذين يؤيدون اعتبار مريم رابعة الثلاثي المقدس لن يتوقفوا عند هذا القرار، والذين يعارضون يحذرون من أن المضي قدماً في هذه العملية من شأنه أن يشق الكنيسة وأن يدقّ إسفيناً في الوحدة المسيحية، وأن يجهض كل الإنجازات الكبيرة التي حققتها المجامع المسكونية حتى الآن.

فقد وصف مطران الروم الكاثوليك في الولايات المتحدة جورج باسياس اعتبار مريم شريكة في الخلاص بأنه هرطقة، وفرّق بين الدعاء إلى مريم للتوسط إلى ابنها واعتبارها وسيطاً بين الله والإنسان. كذلك حذر الأسقف الأنكليكاني وليم فرانكلين، الذي يقوم بدور توفيقي بين كنيسته والكنيسة الكاثوليكية، من أن صدور وثيقة بابوية حول مريم من شأنه أن يدقّ مسماراً جديداً في نعش العمل المسكوني، ذلك أن هذه الوثيقة لا بد أن تؤكد على أمرين لا يمكن أن يقبل البروتستانت بهما؛ الأمر الأول هو إضعاف دور المسيح والتقليل من شأنه، والأمر الثاني تجديد التأكيد على سلطة البابا وعصمته ومرجعيته المسيحية.

والواقع أن الحركة البروتستنتية رفضت، منذ بداياتها، كل النظريات الكنسية حول مريم، واعتبرت أن ما تقول به الأدبيات الدينية الكاثوليكية هو مجرد خزعبلات، الأمر الذي حمل البابا بيوس التاسع، في عام 1854، على الردّ بإعلان عقيدة «الحبل بلا دنس»، وهي عقيدة غير مذكورة في الإنجيل. ومع تصاعد المد العلماني والإلحادي في أوروبا كان المؤمنون الكاثوليك

يهربون إلى ما تمثله مريم من روحانية وطهارة وعفة، ولقد ازداد التعلق بها كرمز وكنموذج في مواجهة طروحات ماركس (الإنسان الاقتصادي) ونيتشه (الإنسان الخارق) وغوتيه (فاوست).

وصلت موجة التعلق الكاثوليكي بمريم في أواسط القرن العشرين إلى حد إقرار عقيدة عودة مريم إلى السماء، أي إلى الجنة، بحيث بدا المسيح وكأنه فخور لكونه ابنها بعد أن كانت تصوَّر هي بأنها فخورة لكونها أمه، وأصبحت المريمية العمود الفقري للثقافة الكاثوليكية. وعندما عُقِد المجمع الفاتيكاني الثاني في الستينات حاولت مجموعة من المطارنة إصدار إعلان جديد يؤكد دورها الاستثنائي في الخلاص، غير أن المعارضة كانت أقوى وتمكنت من منع إصدار الإعلان.

كان المجمع المسكوني الثالث، الذي عقد في أفسس (تركيا اليوم) في عام 431، قد أعلن أول نص عقيدي يتعلق بمريم، وذلك بإعطائها لقب «ثيوتوكوس» أي والدة الله أو الحامل بالله. وجاء هذا الإعلان في ذروة انطلاقة حركة التنسك كطريق مثالي إلى المسيحية المقدسة؛ ذلك أن مريم كانت هي نفسها مثالاً أعلى للتنسك والزهد ونكران الذات، وهي الأم العذراء المتبتلة، وتتابعت مراحل تعظيم وتكريم مريم في اللاهوت المسيحي إلى أن خرجت الحركة الأجرأ في تاريخ الكنيسة والتي تدعو اليوم إلى أن تصبح مريم رابع الثالوث المقدس.

يحمل لواء هذه الحركة البروفسور مارك ميرافال (عمره 39 عاماً) وهو أستاذ اللاهوت في جامعة ستوبنفيل التابعة للفرنسيسكان بولاية أوهايو بالولايات المتحدة. وقد نظم ميرافال مؤتمراً في عام 1993 حول المريمية، ونشر ثلاثة كتب، واستقبله البابا عدة مرات لبحث إمكانية إصدار وثيقة بهذا الشأن. فالحركة المريمية تقدم مريم على حواء، وتقول إن مريم قالت «نعم» للرب عندما جاء الملاك يبشرها بأنها حامل من روح الله ومن غير أن يمسها بشر، في الوقت الذي قالت حواء «لا» للرب وهي في نعيم السماء، وهذا يعني أن حواء أُمُّ الإثم، وأن مريم هي أُمُّ الفداء والخلاص. وتعكس اللوحات والمنحوتات الفنية الغربية هذه التصورات والمعتقدات بشكل بارز. فحواء تُصَوَّر عارية خاضعة لغوائية الشيطان، فيما تُصَوَّر مريم بملابس غاية في الحشمة تطوف حولها الملائكة ويشعُّ الإيمان من عينيها الدامعتين ووجهها

الحزين. وفيما تُصَوِّر حواء وهي تقطف تفاحة الإثم، تُصَوِّر مريم وهي تحتضن المسيح المخلص.

في عام 1950 استخدم البابا بيوس الثاني عشر عصمته الدينية، فأعلن عقيدة ارتفاع مريم فور وفاتها بالجسم وبالروح معاً إلى السماء نازعاً عن جسدها صفة التحلل. وهذا يعني في اللاهوت المسيحي أن مريم تلتقي مع ابنها في رحاب الآب بقوة الروح القدس.

تشكل هذه العقيدة أساساً لإقرار التعديل المقترح باعتماد مريم أقنوماً رابعاً مع «الآب والابن والروح القدس». وحتى يصدر إعلان كنسي مرجعي بذلك تحتاج العملية إلى إقناع 2700 مطران كاثوليكي و90 كاردينالاً، وهي مهمة صعبة بالتأكيد ولكن لا يبدو أنها مستحيلة. إذا نجحت هذه العملية فإنها تضع حداً «الذكورية» الكنيسة، وتشكل بالتالي عنواناً جديداً لمرحلة جديدة كلياً في صورة الكنيسة وفي العقيدة المسيحية على حدٍّ سواء.

وفي محاولة لتعريف مفهوم الله في المسيحية، يرى الأب ميشال عويط[1] «أن حقيقة الله ـ الآب والابن والروح القدس ـ هي سرٌّ يفوق إدراكنا. والكنيسة لم تدَّعِ أنها فهمته أو أنها ستفهمه، وستطلع أبناءها عليه. اعترفت الكنيسة أن هناكَ حدوداً ممنوع تجاوزها، فرضخت ووقفت عند تلك الحدود، ولم تقبل أبداً أن تخطو خطوة واحدة في المجهول. أرادت أن يكون عملها عملاً رعائياً، فتنصت إلى كلام الله وتحاول أن تقبله، كما يقبل الطفل كلام أمه، معترفة أنها لن تستطيع أن تتوصل إلى سرِّ الله، إلا إذا كانت دخلت معه في علاقة حياتية تستمدها من المعمودية، وتعيشها وتعمِّقها في الإيمان. أرادت الكنيسة أن تفهم بالبساطة المسيحية ما علَّمها إياه الله، ومن أجل ذلك رجعت إلى الإنجيل، كما تعود الأم إلى المعجن، لتغرف منه وتطعم أولادها، ولم تتوصل الكنيسة إلى إعلان هذه الحقيقة بسهولة. فاللاهوتيون كانت لهم وجهات نظر مختلفة، وكان كل واحد منهم يدافع عن وجهة نظره. فالمواقف كانت كثيرة والمحادثات لم تكن تنتهي. وكان الناس يتابعون تلك المحادثات فينقسمون بدورهم، وكانت تظهر تلك الانقسامات في صفوفهم كلما اجتمعوا في ساحة البلدة أو في حقل أو في البيت الواحد».

---

(1) الأب ميشال عويط، «الله من هو وهل نؤمن به»، 1997، ص56 ـ 57.

أما بالنسبة لنبوة محمد ﷺ، فإن المسيحية لم تتمكن بعد من صياغة موقف لاهوتي إيجابي مباشر وواضح، وقد تولت لجنة فرعية منبثقة عن مجمع الفاتيكان الثاني صياغة موقف لاهوتي من الإسلام ليكون هذا الموقف جزءاً من «الدستور العقدي للكنيسة المعروف باللاتينية باسم (De Ecclesia)». وفي الأسباب الموجبة لذلك «أن المسلمين يتبعون ملّة إبراهيم، ويعبدون معنا الإله الواحد الحيَّ القيُّوم الرحيم، الذي سيحاسب الناس يوم القيامة، الإله الذي خلق الكون وكل ما فيه، والذي يهب الحياة وكل شيء لمن يشاء».

وجاء في القسم السادس عشر من الدستور العقدي للكنيسة «أن المسلمين هم أبناء إسماعيل، يعترفون بأبيهم ويؤمنون بالله، وهم ليسوا غرباء عن الوحي الذي نزل على الآباء».

إن الإشارة الواضحة إلى **الإيمان الإبراهيمي** في الإسلام، وكذلك الإشارة الواضحة إلى **علاقة الوحي بالإسلام**، تشكلان معاً خطوتين بارزتين إلى الأمام، ولكنهما تقصُران عن الاعتراف بنبوة محمد ﷺ. فالمسيحية تعتقد أن العهد الذي أعطاه الله لإبراهيم قد تحقَّق بيسوع المسيح، أما الاعتقاد الإسلامي فتحدده الآيات من سورة البقرة والتي تقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

مع ذلك يعترف اللاهوتيون بالدور التاريخي الذي قام به النبي محمد ﷺ في إطار الدعوة إلى عبادة الإله الواحد، ولكن الصياغة اللاهوتية لموضوع النبوة لا تزال غير يقينية وبشكل حاسم بعد.

---

(1) سورة البقرة، الآيات 127 ـ 129.

الفصل الثالث

الجوامع المشتركة بين الأديان

كان محمد الذيب يرعى قطيعاً من الماعز في السفوح المطلة على البحر الميت عندما افتقد إحدى عنزاته. أخذ يبحث عنها طويلاً إلى أن اكتشف أنها وقعت في كهف منخفض، فرشقها بالحجارة حتى تعود إلى القطيع. لم يصب الحجر العنزة، ولكنه أصاب موقعاً آخر فكسره. سمع محمد الذيب صوت أواني تتكسر من جراء رمي العنزة بالحجارة، فتوجه نحوه حيث وجد مجموعة من الجرار معظمها محطم، وكانت كل جرة تحتوي على لفائف من القماش. فتح واحدة منها، فوجد في داخلها قطعاً جلدية عليها كتابات لا يفهمها، وهو في الأساس كان راعياً أمياً. إلا أن محمد الذيب لاحظ أنه بمجرد أن يمسك بهذه اللفائف الجلدية كانت تتفتت وتتناثر قطعاً صغيرة.

حمل محمد الذيب بعض الملفات من الجرار، بمساعدة راعٍ آخر، إلى إمام مسجد صغير في سوق بيت لحم. كان ذلك في فبراير 1947. اطّلع الإمام على الكتابات فقال إنها ليست عربية، ولكنه أكد أنها لا بد أن تكون قديمة جداً، ونصح الراعيين بعرضها على أحد تجار القطع الأثرية في المدينة ويدعى خليل إسكندر شاهين الملقب بكندو وهو من السريان. حمل كندو خمس لفائف من الجرار إلى تاجر سرياني آخر اسمه جورج شعيا الذي نقلها بدوره إلى دير مار مرقس السرياني في مدينة القدس.

في الدير اكتشف المطران أثناسيوس أن الكتابة ليست سريانية بل عبرية، وطلب شراءها. حمل الراعيان اللفائف إلى الدير، ولكن أحد الكهنة

اعترضهما ورفض السماح لهما بدخول الدير بحجة أن اللفائف مهترئة وأن لا قيمة لها، فعادا أدراجهما. ولما علم المطران بالأمر سارع إلى الاتصال بإمام المسجد بحثاً عن الراعيين اللذين اختفت آثارهما.

بعد مرور أسبوعين فوجىء «كندو» بالراعيين يسألان عنه لاسترجاع الملفات الخمسة التي سبق أن تركاها عنده. فسألهما عن الملفات الأخرى التي احتفظا بها، فأبلغاه أنهما باعاها إلى شخص أجنبي (هو الدكتور سكنيك، أستاذ الآثار في الجامعة العبرية). نقل تاجر الآثاريات الراعيين إلى المطرانية حيث استجوبهما المطران لمعرفة المكان الذي وجدا فيه الجرار، ودفع لهما ثمن اللفائف الخمس، بعد أن تبين له أن ثلاثاً منها كانت تشكل سفر أشعيا مكتوباً باللغة الآرامية[1].

حمل المطران المخطوطات سراً إلى سورية وأطلع عليها البطريرك، وكان في مقره في مدينة حمص. وبالاتفاق مع البطريرك أوفد رسولاً خاصاً إلى بيروت لاستشارة الدكتور أنيس فريحة الأستاذ في الجامعة الأميركية، والخبير في الدراسات الشرقية. ويروي الأستاذ فريحة ما حدث فيقول: «كان ذلك في أوائل صيف 1948؛ إذ كنت في مصيفي في فالوغا عندما رن التلفون في يوم سبت قائظ وكان المتكلم فتاة من سكرتيرات الجامعة الأميركية تقول: إن كاهناً يلح في طلب الاجتماع بك ليطلعك على مخطوط سرياني أو عبراني. قلت: إذا كان يصر على مقابلتي فوراً فليس عندي أحلى من أن يشرفني بزيارة.

ودخل، صباح الاثنين، مكتبي في الجامعة كاهن يحمل حقيبة أخرج منها درجاً، أو طوماراً، ملفوفاً بقماش أبيض وقال بلهجة المستعجل: يا أستاذ، أنا مسافر بعد ساعة من الزمن. أطلب إليك أمراً واحداً وهو أن تقول لي إذا كان هذا المخطوط عبري اللغة وإذا كان الخط قديماً، وأكون ممتناً لك إذا نظرت فيه وأخبرتني، ولو بصورة سطحية، عن محتويات هذه المخطوطة. فالتفتُّ إليه التفاتة استغراب وقلت: جميع هذه الأمور تريدها مني في ساعة من الزمن؟ فهل لك أن تتركها برهة عندي، وأعاهدك أن تكون في مأمن، وهل لك أن تسمح لنا بتصويرها، وهل لك أن تبقيها ثم تعود فتأخذها بعد أن أكون

(1) محمود العابدي ـ مخطوطات البحر الميت ـ من منشورات دائرة الثقافة والفنون ـ عمان ـ 1967.

قد نظرت فيها؟ قال: هذا مستحيل لأني مسافر بعد ساعة.

نظرت فيها، وإذ بي أمام كتابة عبرية، وقد تبينت كلمات مقتطعة هنا وهناك، ولكني لم أستطع أن أقرأ فقرات طويلة. قلت: اللغة عبرية، وقد تكون مخطوطة سفر من أسفار العهد القديم، ويحتاج الأمر إلى وقت للمقابلة.. ولكنه انصرف دون أن يوضح لي شيئاً عن مصدر المخطوطة.. ولاحظت حرص الرجل على إبقاء أمر المخطوطة سراً. وعرفت بعدئذ أنها كانت مخطوطة من مخطوطات البحر الميت. فقد ذكر بعض المراسلين أن شخصاً حمل بعض هذه المخطوطات واتجه بها إلى لبنان ليطلع عليها نفراً من ذوي الاختصاص[1].

وهكذا بدأت قصة مخطوطات البحر الميت. فقد قامت بعد ذلك فرق من الاختصاصيين للبحث في مغاور خربة قمران حيث عثرت على عشرات الجرار الفخارية التي تضم مجموعات كبيرة من المخطوطات.

المخطوطات التي اكتشفت فيما بعد احتُفظ بها في متحف القدس الذي سقط تحت الاحتلال الاسرائيلي في عام 1967، ومنذ ذلك الوقت انقطعت الصلة بين المخطوطات والمراجع العربية، واحتفظت بها إسرائيل وأبقت بعضها سراً مكتوماً حجبته حوالي نصف قرن عن العالم.

حاول علماء اختصاصيون في أوروبا والولايات المتحدة الإطلاع على المخطوطات لترجمة محتوياتها. في عام 1986 أبلغ مسؤول إسرائيلي المؤرخ الأميركي روبرت أيزمان، والعالم البريطاني فيليب دافيس رسمياً: «لن تعيشا حتى تريا المخطوطات»[2].

ألهب هذا الموقف عطش العالِمَيْن لمعرفة مضمون المخطوطات وأسباب الحجر عليها. اتفق العالم الأميركي أيزمان (وهو يهودي) مع عالم أميركي آخر اختصاصي باللغة الآرامية، وهو البروفسور مايكل وايز، ومع عدد آخر من الاختصاصيين لشن حملة ضغط إعلامية عالمية على الحكومة الإسرائيلية لحملها على السماح للعلماء بدراسة المخطوطات والإطلاع على محتوياتها. نجحت العملية بعد خمس سنوات من الجهود الدبلوماسية

(1) أنيس فريحة: مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران، ترجمة إبراهيم مطر، بيروت، 1957.

(2) The Economist, 26- 12- 1992.

والأكاديمية والإعلامية التي بذلتها عدة مراجع. فقد صورت إسرائيل المخطوطات وأرسلت نسخاً من الصور بواسطة الفاكس إلى الولايات المتحدة. قام العالمان أيزمان ووايز بوضع كتاب حول هذا الموضوع صدر في نهاية العام 1992 بعنوان: «الكشف عن مخطوطات البحر الميت»[1]. يؤكد الكتاب أن المعلومات التي استخرجها المؤلفان من المخطوطات ليست مهمة فقط ولكنها مذهلة بالنسبة لمؤرخي الحقبة المسيحية الأولى. فعلى الرغم من صعوبة تحديد تاريخ محدد لهذه المخطوطات فإن العلماء يعتقدون أنها كتبت خلال المائة سنة على الأكثر قبل وبعد ولادة السيد المسيح، وأن مجتمع قمران حيث عثر عليها كان مجتمعاً يهودياً متطرفاً ومسلحاً؛ هو مجتمع الماكابيين الذين كانوا متمردين على الأمبراطور الروماني هيرودوس وعلى الفريسيين.

لقد صدر حتى الآن أكثر من أربعة آلاف كتاب حول مخطوطات البحر الميت، إلا أن جزءاً كبيراً من هذه المخطوطات بقي خارج التداول العلمي بقرار إسرائيلي، وليس من المؤكد بعد ما إذا كانت إسرائيل قد أرسلت إلى الولايات المتحدة صوراً عن كل المخطوطات المكتوبة باللغة الآرامية، إلا أن ما وصل، والذي تناولته دراسة الكتاب الجديد، يوفر مصدراً موثوقاً وثميناً جداً لمعرفة الأفكار والتيارات الفكرية لليهودية، وللروح التي قامت عليها المسيحية في القرن الأول بعد المسيح.

ومما يعطي هذا المصدر بعداً إضافياً من الأهمية التاريخية والعلمية والدينية، هو أن المعلومات المخطوطة تؤكد ما ورد في القرآن الكريم لجهة العديد من التشريعات الإلهية والقصص الدينية عن اليهودية وما قبلها.

التشريعات الإلهية

تتحدث المخطوطتان رقم 534 و536، اللتان عثر عليهما في الكهف الرابع في قمران، عن نوح عليه السلام. ويصف النص نوحاً بأنه الصدِّيق الأول، وأنه وُلد كاملاً حتى أن الحاخاميين اليهود يقولون إنه «وُلِد مطهَّراً». ويصف النص نوحاً بالحكمة، وبأنه كان يعرف كل الأسرار ومنها تحديداً سر الصعود إلى السماء وملائكة السماوات العلى. وتبدو هذه الأدبيات الدينية واضحة في

(1) R. Eiseman & M. Wise. The Dead Sea Scrolls Uncovered, Element, 1992.

الأدبيات المسيحية أيضاً، في كنيسة القدس الأولى في الأربعينات والستينات بعد المسيح (ص34)، كما تبدو واضحة أيضاً في القرآن الكريم من حيث أن تعاليم نوح عليه السلام، كانت تحرِّم شرب الدم وتقديم القرابين للتماثيل المؤلهة (الوثنية)، كما كانت تحرِّم الزنى وأكل الحيوانات المخنوقة أو النطيحة. ويستشهد الكتاب (ص34) بالآية القرآنية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. ويلاحظ الكتاب أن تشريعات نوح هذه تلزم كل بني الإنسان من الصديقين، وأنها ترد ثلاث مرات في إنجيل يوحنا وفي النصوص اليهودية، كما تعتبر بمثابة «تنظيم غذائي» قرآني.

يقول القرآن الكريم: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

ويقول القرآن الكريم أيضاً: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

وفي المخطوط رقم 251 (قمران الكهف الرابع) نقرأ ما يلي:

السطر الثاني: على الرجل أن لا يتزوج من شقيقته، أو من شقيقة والده، أو من شقيقة والدته. على الرجل أن لا يتزوج

السطر الثالث: من شقيقة أخيه، أو من شقيقة أخته. يجب عليه أن لا يكشف

السطر الرابع: عن عري شقيقة والده أو شقيقة والدته. ويجب أن لا تعطى امرأة إلى شقيق

(1) سورة النحل، الآية 115.

(2) سورة آل عمران، الآيات 93 ـ 95.

(3) سورة المائدة، الآية 3.

السطر الخامس: والدها، أو إلى شقيق أمها لتكون زوجة له.

السطر السادس: على الرجل أن لا يكشف عن عري... (نص ناقص).

السطر السابع: على الرجل أن لا يتزوج من ابنة... (نص ناقص).

هذه التحريمات لا يلتزم بها اليهود اليوم. فالمرأة تتزوج خالها أو عمها الخ، خلافاً لما نصت عليه التعاليم اليهودية الصحيحة كما تؤكدها هذه المخطوطة. وقد جاء القرآن الكريم ليؤكد هذه التحريمات بوضوح تام؛ فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

وفي إشارة إلى الشيطان ورد في المخطوط رقم 471 (قمران ـ الكهف الرابع): أن الشيطان يوسوس للناس ويتخفّى كملاك من نور ساخراً من أتباعه. إلا أن الله سيقضي بين الناس بالعدل على قاعدة مَنْ أحسن عملاً فلنفسه، ومَنْ أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

ومن الالتزامات الدينية التعبدية عدم العمل يوم السبت، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ * فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وجاء في القرآن الكريم أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[3].

---

(1) سورة النساء، الآيتان 22 و23.

(2) سورة البقرة، الآيات 63 ـ 66.

(3) سورة النساء، الآية 47.

من أجل ذلك، وخوفاً من أن يؤدي الاعتداء في السبت ـ أي خرق حرمات الله ـ إلى لعنة الله، نرى أن مجتمع المخطوطات (أو عهد المخطوطات) كان يتميز بمحاولات التقيد الدقيقة بالتعاليم الدينية. وكان هذا الحرص الشديد على تنفيذ وصايا الله وراء تعدد الاجتهادات والتفاسير لمضمونها، وقد أدى ذلك إلى تعدد التيارات والأفكار حتى حول أبسط الأمور. ويشير الكتاب (ص180)، على سبيل المثال، إلى مقارنة بين التزام يهودي وما ورد على لسان السيد المسيح (متّى 12/ 11) عندما سأل مجموعة من اليهود: لنفرض أن أحدكم لا يملك إلا شاة واحدة، وأن هذه الشاة سقطت يوم السبت في خندق، ألا يمد يده لإخراجها؟ إن الجواب هو بالتأكيد نعم. إن أي رجل لا بد أن يخرج هذه الشاة. غير أن في إحدى مخطوطات البحر الميت (هالاكا) رأياً يهودياً آخر؛ فالسبت يوم مقدس لدرجة أنه يمكن لإنسان ما أن ينقذ إنساناً وليس شاة. ويقول المخطوط إن إنقاذ شاة هو «عمل» يحظره الكتاب المقدس، أما إنقاذ إنسان فأمر آخر.

ولعل من أكثر الأمور المثيرة التي وردت في المخطوطات قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها. من المعروف أن السورة الثانية من القرآن الكريم بعد سورة الفاتحة هي سورة البقرة. وفي المخطوطتين رقم 276 ـ 277 (قمران ـ الكهف الرابع) تُروى القصة بما يتوافق مع ما ورد في القرآن الكريم[1].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ * قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2].

---

(1) راجع قصة البقرة، تفسير ابن كثير ـ الجزء الأول ـ ص188 ـ 195، دار الأندلس، بيروت، 1966.

(2) سورة البقرة، الآيات 67 ـ 73.

استناداً إلى المخطوطتين 276 و277 فإن مراسم التطهر في تنفيذ أمر الله بذبح البقرة مثيرة للغاية. فهي تنص على أن يتولى ذبح البقرة شخص غير الكاهن، ثم يجمع ذابح البقرة مع الكاهن دم البقرة في وعاء خاص مصنوع من الطين، ولم يسبق استعماله من قبل، وبعد ذلك يغمس الكاهن أصابعه في الوعاء وينثر الدم سبع مرات حول مدخل الخيمة التي يعقد فيها الاجتماع. (لاحظ الرقم سبعة الذي يتردد في مواضع كثيرة في القرآن الكريم وفي الأدبيات الإسلامية الأخرى).

إثر ذلك تجمع أغصان من خشب الأرز (من لبنان)، مع أعواد من حشائش الزوفان (لها رائحة زكية)، ولفائف من القماش القرمزي وتوضع وسط النيران التي تحرق بها البقرة. ثم يجمع رماد البقرة المحروقة ويمزج بالماء، ويرش كماء مقدس فوق رؤوس أولئك الذين ارتكبوا أعمالاً غير طاهرة بغية تطهيرهم من الرجس.

وبعد انتهاء عملية الحرق يتحتم على الكاهن وذابح البقرة وجامع رمادها أن يغتسلوا وأن يطهروا ملابسهم، ويمنع عليهم منعاً باتاً استعمال هذه الملابس بعد ذلك في أي عمل من شأنه انتهاك حرمة من حرمات الله.

ومن الأمور المثيرة أيضاً ما ورد في المخطوطة رقم 297 (قمران الكهف الرابع) حول «أبناء الفجر»، وهم من المتبتلين الذين يقضون الليل في الصلاة والتعبد «في محاولة منهم لفهم «**حدث الخلود**» و«**التفكير في الماضي**»، كما ورد في السطرين التاسع والعاشر من المخطوطة. وقد ورد ذكر هذه المجموعة في «وثيقة دمشق» من المخطوطات. ووردت إشارة بيِّنة عنهم في القرآن الكريم حتى إن السورة 89 سميت «سورة الفجر»: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[1]. ويلاحظ الكتاب (ص163) أهمية هذه الإشارة القرآنية. وفي الواقع فإن هذه السورة تقدم عِبَراً من الماضي (قوم عاد وثمود وفرعون الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، كما تقدم صورة عن الخلود يوم تدكُّ الأرض دكاً وترجع النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية). وهناك إشارة قرآنية أخرى لها دلالتها؛ فالقرآن الكريم يقول: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ

(1) سورة الفجر، الآيات 1 ـ 5.

قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1]. وتطلق المخطوطة عليهم اسم أبناء الحق، أو أبناء الصدق. وهم يتبعون ـ نظام «الماسكيل» ـ وهو نظام احترام التشريع والالتزام به حتى قيام المسيح ويعقوب في آخر الزمان وتفقده للأرض. وهذا النظام يعلم «أبناء النور» (أو أبناء الفجر) طريق النور، وكيف يمكن أن يحشروا مع الصالحين.

ومن الأمور المثيرة كذلك موضوع «شجرة الشر» ـ طعام أهل النار ـ الذي ورد في المخطوطة رقم 458 (قمران ـ الكهف الرابع). وفي هذه المخطوطة إشارة إلى الملائكة الذين يعملون على تنفيذ العقوبات في جهنم بحق المذنبين. ويلاحظ الكتاب (ص47) كيف أن صور الحريق وألسنة النار وعذاب الحريق ترد في القرآن الكريم بشكل مماثل، وفي عدة مواضع.

وفي الواقع فإن في القرآن الكريم إشارة إلى شجرة الشر هذه، باسم شجرة الزقوم. فالقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[2]، ويقول القرآن الكريم أيضاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾[3]، ويقول القرآن الكريم كذلك: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾[4].

الإسراء والمعراج والقدس

يشير المخطوط رقم 529 (قمران ـ الكهف الرابع) في السطر الرابع، إلى الملاك جبريل، وتعتبر هذه الإشارة مهمة جداً في حد ذاتها لأمرين أساسيين: الأمر الأول هو أن جبريل هو الذي لَقَّن الرسول محمد ﷺ نصوص القرآن الكريم. الأمر الثاني هو أن الإشارة إلى الملاك جبريل في المخطوط 529 تقع في إطار مهمة تلقين تعليمات الله ووصاياه.

يذكر الكتاب (ص37) أن التقاليد المسيحية تشير إلى جبريل على أنه «روح القدس»، ويذكر القرآن الكريم في الآية 87 من سورة البقرة: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، ويقول الكتاب: «ومهما يقال عن

---

(1) سورة الإسراء، الآية 78.
(2) سورة الصافات، الآيتان 64 و65.
(3) سورة الدخان، الآيات 43 ـ 46.
(4) سورة الواقعة، الآيات 51 ـ 53.

جبريل فمن الثابت أنه الدليل في السماوات العلى». وهذا الأمر ينطبق أيضاً على الإيمان الإسلامي بصعود محمد ﷺ إلى السماء، فالآية الأولى من سورة الإسراء تقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

ويذكر المخطوط رقم 227 (قمران ـ الكهف الرابع) أن «إينوخ» يصعده الله إلى السماء «ويمشي مع الله»، وهذا أول صعود إلى السماء مذكور في الأدبيات الدينية. والملفت في هذا النص إشارته إلى «الصديقين» ليصبح فيما بعد جزءاً من التقليد المسيحي كما كان في التقليد اليهودي (الكباليين) ومن ثم الإسلام (ص96).

وفي الإسراء ينتقل جبريل أيضاً من الأرض إلى السماوات العلى. ويقول الكتاب (ص37) إن بعض المؤمنين بهذه الرحلات الإعجازية يتحدثون عن ثلاث طبقات (بولس 12 ـ 2)، وبعضهم عن سبعة (القرآن الكريم)، وبعضهم عن اثنتي عشرة طبقة، ثم يعود جبريل إلى الأرض ليخبر الملائكة العاديين بما رآه.

وترد القدس في كل الأدبيات اليهودية (الكبالية) والمسيحية (بولس) والإسلامية (محمد ﷺ). ففي الأدبيات الدينية الإسلامية يعرج بالنبي من المسجد الحرام (في مكة المكرمة) إلى المسجد الأقصى في القدس، ومن هناك يصعد إلى السماء.

وفي الأدبيات المسيحية ترد القدس في نبوءات حزقيال ودانيال، وتقول إن ملاكاً مثل روح القدس يختار حزقيال ويحمله إلى القدس في إطار رحلته السماوية (حزقيال 8/ 3)، ثم يحمله ثانية لبناء معبد ثانٍ (40 ـ 48). ويذكر الكتاب أن جبريل وهو في السماء يعلم بأمر بناء مدينة باسم الله.

وترد صفات الله في الأسطر من 11 إلى 13 من المخطوط رقم 529 (قمران ـ الكهف الرابع) على الشكل التالي:

السطر 11: ثم إن الله الأكبر، الإله الأبدي سوف يذكر خلقه (من أجل خيرهم) تبارك وتقدس وتعالى.

السطر 12: فالواحد الأكبر، الخالق الأبدي مصدر الرحمة. وهو مصدر. . . (نص ناقص).

السطر 13: وسيأتي رجل في مناطق نائية. . . (نص ناقص).

ويرد ذكر القدس كذلك في المخطوط رقم 462 (قمران ـ الكهف الرابع) وبشكل مصدق لما ورد في القرآن الكريم في سورة الإسراء. ويقول الكتاب (ص268 ـ 269) إنه إذا كانت إعادة بناء الهيكل صحيحة فإن نبوءة نوح تكون قد تحققت بإخضاع إسرائيل (يعقوب) الكنعانيين للاستعباد (العمل القهري)، كما ورد في السطر الخامس من المخطوط: وهو أن (الله) أعطى أبناء كنعان عبيداً إلى يعقوب. إن الإشارة من السطر 13 إلى الأسر الثاني في مصر أو على يد المصريين، وتزامن ذلك مع سقوط القدس، يبدو أمراً مدهشاً، ولا سيما من خلال الإشارة إلى الفلسطينيين.

وترجمة هذه الأسطر هي التالية:

السطر 13: وهو (الله) الذي أعطى المدينة المقدسة إلى سكان فلسطين ومصر للإساءة إليها وتدميرها، فقد دمروا أعمدتها. . . (نص ناقص).

السطر 14: ذلك أنها (القدس) بدلت (ولاءها) فمجدت الشر فكان لزاماً أن تلقى عقاب آثامها. . . (نص ناقص).

السطر 15: لعدم اكتراثها أن تكره. وفي جمالها ومجوهراتها وملابسها. . . (نص ناقص).

السطر 16: وبما جنت على نفسها بيديها. ابن التدنيس الشيطاني. . (نص ناقص).

السطر 17: إن كراهيتها كما كانت من قبل، أعيد بناؤها. . (نص ناقص).

إن هذه الأسطر من المخطوطة رقم 462 تأتي متطابقة مع ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۞ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۞ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۞ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۞ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[1].

(1) سورة الإسراء، الآيات 4 ـ 8.

المسيح :

ترد في المخطوطات عدة إشارات إلى السيد المسيح عليه السلام. ولكن عند الإشارة إلى عبارة «أدوناي» ومعناها «المولى» يتعذر أحياناً معرفة ما إذا كان الكلام عن الله أو عن «مسيحه» (ص20). فإذا كان الكلام عن المسيح فإن النص يأتي متوافقاً مع ما ورد في العهد الجديد (الإنجيل). ولكن لا بد من الإشارة إلى أن الناس الذين ينقل عنهم هذا الكلام كانوا لا يشيرون إلى أي «رجل» على أنه «مولى» (ص20). وقد وردت صفات المسيح في الآيتين 45 و46 من سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وتشير الأسطر 6 ـ 7 ـ 8 والأسطر 11 ـ 12 ـ 13 من المخطوط 521 (قمران ـ الكهف الرابع) إلى معجزات خارقة من نوع تحرير المستعبدين وإعلاء شأن المنبوذين وشفاء العميان، وإحياء الموتى. لم يكن هناك شك في صحة نصوص هذه المعجزات ولكن السؤال هو من الذي كان يقوم بها: الله أو المسيح؟ (ص20)، ففي الأسطر من 6 إلى 8 تبدو الإشارة واضحة إلى الله، ولكن في الأسطر من 11 إلى 13 يقع التباس إذ يبدو ممكناً أنه حدث تحوُّل بحيث أن الإشارة يمكن أن تكون إلى مسيحه، والملفت هنا أن مؤلفي الكتاب ـ أحدهما مسيحي والآخر يهودي ـ يقرّان أنهما لم يتفقا حول تفسير حاسم وموحد لهذا الأمر (ص20).

مع ذلك، وحتى اليوم، لا يزال في أساس الطقوس الدينية اليهودية: «أنك سوف تحيي الموتى، وتشفي المرضى، وتحرر المستعبدين، وتنشر كلمة الله في أولئك الذين يعيشون في العراء»، وذلك في إشارة واضحة إلى الله.

وهناك إشارة إلى معجزات المسيح عليه السلام في القرآن الكريم من نوع شفاء المرضى، وإحياء الموتى... ولكن بإذن الله.

فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا

﴿تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وفي المخطوط رقم 246 (قمران ـ الكهف الرابع) نقرأ في العمود الأول ما يلي:

السطر الأول: الملك. وعندما خيم عليه الروح خرَّ أمام العرش.

السطر الثاني: ثم وقف دانيال وقال: أيها الملك لماذا أنت غاضب. لماذا تصر على أسنانك؟

السطر الثالث: لقد كشف الله الأكبر لك ما سيأتي. وسوف يتم ذلك حتى الأبدية.

السطر الرابع: سيكون هناك عنف وشر مستطير، سيعم الظلم في الأرض.

السطر الخامس: سيخوض الناس الحروب وسوف تتضاعف المعارك بين الأمم

السطر السادس: إلى أن يقوم ملك شعب الله. سيصبح ملكاً على سوريا ومصر.

السطر السابع: كل الشعوب ستكون بخدمته . وسوف يصبح عظيماً على الأرض.

السطر الثامن: . . (نص ناقص) وسوف يصنع السلام وكل ما هو في مصلحته.

السطر التاسع: وسوف يدعى ابن الله الكبير. وباسم الله سوف يتم تنصيبه.

ونقرأ في العمود الثاني:

السطر الأول: سوف يدعى ابن الله. وسوف يدعونه ابن الأسمى. ومثل النجوم السيارة

السطر الثاني: التي شاهدتموها، هكذا ستكون ممالكهم. سوف يحكمون لمدة محددة من السنوات، فوق

---

(1) سورة آل عمران، الآية 49. راجع أيضاً سورة المائدة، الآية 110.

السطر الثالث: الأرض. وسوف يسحقون كل شخص. شعوب سوف تسحق شعوباً، وأمم سوف تسحق أمماً،

السطر الرابع: حتى يقوم شعب الله ويريح الجميع من السيف

السطر الخامس: ستكون مملكته مملكة خالدة، وسيكون عادلاً في كل أعماله وسوف يحكم

السطر السادس: الأرض بعدالة وسوف يخيم السلام على الجميع. وسيقضي على السيف في الأرض

السطر السابع: وستنحني كل أمة له، وبالنسبة للرب الأكبر وبمساعدته

السطر الثامن: سيجعل كل الشعوب طوع سيطرته. كلهم

السطر التاسع: سوف يلقي بهم إليه. حكمه سيكون حكماً أبدياً. وكل الحدود... (نص ناقص).

هذا النص يمثل ما يعتبره العهد القديم «نبوءة دانيال». المسيحية تقول إن النبوءة تحققت بالمسيح، واليهودية تقول إن المسيح لم يأت. وهناك الحركة اليهودية ـ المسيحية المعاصرة المتمثلة في «شهود يهوه»، وفي بعض الكنائس الإنجيلية في الولايات المتحدة وبريطانيا وهولندا، التي تقول بالعودة الثانية للمسيح إثر معركة هرمجيدون التي ينتصر فيها المسيح على الكفار ومن ثم يحكم الأرض بعدل وسلام لمدة ألف عام (الألفية)، ومن ثم تقوم الساعة[1]. وفي إنجيل لوقا (20/21) ينقل العهد الجديد عن السيد المسيح نبوءته بتدمير القدس، والتي تحققت فعلاً.

إن العبارة المفتاح في النص الذي يتضمنه المخطوط 246 تكمن في وصف الملك القادم، شخص المسيح «بأن حكمه سيكون حكماً أبدياً»، وبأنه «ابن الله أو ابن الأكثر سمواً»، بينما الممالك السابقة، لأنها ممالك انتقالية لا تقارن إلا بالنجوم السيارة ـ الشهب ـ. وهناك وصف خيالي للمسيح على أنه «ابن الإنسان القادم من السماء على متن الضباب». (دانيال 7/ 13). هذا الوصف الخيالي قوي في المخطوطات حيث تقول إن الضيف السماوي يقبع في ضباب السماء وأنه يرسل أحكامه كالمطر على الإنسانية.

---

(1) راجع محمد السماك ـ الصهيونية المسيحية، ص73، دار النفائس، بيروت 1992.

إن عبارات الأبوة والنبوة ترد في الأدبيات الدينية اليهودية: «سوف أكون أباً له (لداود)، وسوف يكون لي ابناً». و«سوف يقول لي أنت أبي، يا إلهي، وأنت صخرة حكمي». فالتشخيص التبسيطي واضح في مخطوطات قمران حيث ينظر إلى المؤمنين على أنهم «أبناء الله»، وأكثر ما يكون التشخيص وضوحاً في الابتهالات التي يرددها «معلم الحق» أمام تلاميذه.

تسرُّب منطق التشخيص، بصورة مباشرة، إلى الطريقة المسيحية في تقديم المسيح وأعماله (ص69). إن المفارقة واضحة بين ما ورد في السطر الرابع من العمود الثاني، مع ما ورد في الآية 34/10 من إنجيل **ماثيو**: لم آتِ لأرسل السلام بل السيف. يمكن ملاحظة ذلك أيضاً في العمود 16 من مخطوطة الحرب: «سيف الله الذي استعمل في الحرب ضد..». (نص ناقص).

أما القرآن الكريم فيقول: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

وفي مخطوطة «تراتيل الفقراء» رقم 436 (قمران ـ الكهف الرابع) تأكيد على رفض الطبيعة الإلهية للمسيح. والفقراء (أبيونيم بالآرامية) هو الاسم الذي أطلق على المجموعة الفلسطينية التي اتبعت يوحنا في القدس. أطلق على هذه المجموعة اليهودية المسيحية. وفي القرن الرابع إن مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس (مطران القيصرية السابق)، يصف هؤلاء الفلسطينيين الذين كانوا مسؤولين أساساً عن انتشار المسيحية في روما (ص234) بأنهم علمانيين، وذلك بالمعنى المناقض للمسيحية البولسية (نسبة إلى بولس) التي ساعد يوسيبيوس على نشرها في عهد قسطنطين. فهو يخبرنا في كتابه «التاريخ الإكليركي» 3 ـ 27، أن «الأبيونيم» سُمُّوا كذلك بسبب أفكارهم الوضيعة عن المسيح؛ ذلك أنهم لم ينظروا إلى المسيح كإله حتى إنه يوجه إليهم نعوتاً شيطانية ويقذفهم بتهم مقذعة، ويقول عنهم إنهم اعتبروا أن المسيح وُلِدَ «بوسائل طبيعية»، واعتبروا المسيح رجلاً بسيطاً وعادياً استحق التكريم بسبب سلوكه الطريق القويم، وأصروا على احترام كامل للقوانين التي كانت سائدة (أي التعاليم اليهودية)،

---

(1) سورة آل عمران، الآية 55.

ولم يفكروا بأن الإيمان بالمسيح يمكن أن ينقذ أحداً كما لم يؤمنوا بالحياة التالية؟.

التزموا بالسبت وبغيره من الطقوس مثل اليهود، واعتبروا بولس خارجاً على القانون ـ اليهودي ـ. ويمكن أن نستنتج من ذلك أمرين: الأول، هو أن قِلَّة من اليهود آمنوا بالمسيح ولم يجدوا في إيمانهم تناقضاً مع التوراة. والأمر الثاني هو أن أهل البلاد من الفلسطينيين هم الذين شكلوا حول المسيح الكنيسة الأولى في القدس.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[1].

من المؤكد أن «الأبيونيم» ـ الفقراء ـ كانوا يشكلون مجتمعاً احتفظ في ذاكرته بتقدير كبير ليوحنا المعمدان (زكريا) واعتبروا بولس عدواً، عدواً للمسيح.

وقد ورد في القسم الثاني من المخطوطة رقم 434 (قمران ـ الكهف الرابع) ما يلي:

السطر الأول: تبارك الله. لعجائبه الأبدية. تبارك اسم الله لأنه أنقذ الفقراء

السطر الثاني: لم يحتقر المساكين ولم ينسَ البؤساء، بل على العكس فتح عينيه للبؤساء ومال بأذنيه نحوهم ليسمع

السطر الثالث: صراخ الأيتام. فبرحمته الواسعة يعطف على المساكين ويفتح أعينهم للتمسك بطريقه، ويفتح آذانهم ليسمعوا

السطر الرابع: تعاليمه، ويطهر قلوبهم ويخلصهم برحمته، ويرشدهم إلى طريقه. لم يتخلَّ عنهم في معاناتهم الكبيرة ولم

السطر الخامس: يلقِ بهم بين أيدي الطغاة، ولم يتركهم لحكم الأشرار، ولم يسقط غضبه عليهم ولم يدمرهم

---

(1) سورة الصف، الآية 14.

السطر السادس: بغضبه. ورغم أن غضبه لم يلغ أبداً، فإنه لم يحاسبهم بعسر

السطر السابع: ولكنه حاسبهم برحمته الواسعة. فبرحمة عينيه كان يمتحنهم وبرحمته الواسعة نقلهم من بين الشعوب (جنتيل) وأنقذهم من بين أيدي الناس

السطر الثامن: لم يحاسبهم بين الأمم المتعددة ولم يوزعهم بين الشعوب، (بل) خبأهم في ظل أجنحته،

السطر التاسع: وأنار الظلمات أمامهم، وقوّم لهم المعوج وكشف لهم الحق والسلام.

المهم أنه في هذه الترانيم الدينية ـ المخطوط رقم 436 ـ يخلص الله الأبيونيم «برحمة من الله» لأنهم ساروا على طريق قلبه، كما ورد في الأسطر من خمسة إلى سبعة: «لقد أنرت قلبي ووجهت ضميري حتى لا أنسى تعاليمك. لقد فتحت عقلي وقويت عزيمتي لأتبع طرق الحق. لقد جعلت فمي مثل السيف الحاد وأنطقت لساني على كلماتك المقدسة».

وفي السطر العاشر: «لقد انتزعت من صدري قلبي الحجري ووضعت قلباً صافياً مكانه مزيلاً كل غواية للشر».

الصفات الإلهية:

تتضمن المخطوطة رقم 266 (قمران ـ الكهف الرابع) توجيهات دينية قريبة جداً من التوجيه الديني الإسلامي. ففي السطر الخامس يخاطب الآثمين بقوله: عودوا إلى الله صائمين باكين.

ويقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

وفي السطرين التاسع والعاشر: تباركت أنت. أنت كل شيء. كل شيء بيدك. أنت صانع كل شيء. أنت خالق كل الناس بالنسبة إلى عائلاتهم ولغاتهم.

---

(1) سورة المائدة، الآية 83.

والآيات القرآنية تقول:

- ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2].

وفي المخطوطة رقم 418 (اللوحة 22) نقرأ ما يلي:

السطر التاسع: إن كل أبناء حواء بإرادة من الله، وبفيض من مجده، وبفضل منه ورحمة، سوف يسجدون باستمرار، كل يوم، ويمجدون اسمه.

والآيات القرآنية تقول:

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

- ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

- ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[6].

- ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[7].

وفي السطرين التاسع والعاشر من القسم السابع من هذا المخطوط (266) نقرأ: إنهم (الملائكة) يتابعون جذور المعرفة بجد واجتهاد. واستناداً إلى علمهم فإن إنساناً يتقدم على آخر بعلمه وحسب معرفته يكون احترامه.

والقرآن الكريم يقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾[8].

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾[9].

وفي الأسطر الأربعة الأولى من القسم التاسع من المخطوطة نقرأ:

- فتح الله أبواب رحمته... (نص ناقص) كل حاجات جنته، وقدم

---

(1) سورة الملك، الآية الأولى.
(2) سورة الحجرات، الآية 13.
(3) سورة الذاريات، الآية 56.
(4) سورة الصف، الآية 1، وسورة الحديد، الآية 1، وسورة الحشر، الآية 1.
(5) سورة التغابن، الآية 1.
(6) سورة الملك، الآية 1.
(7) سورة الأعلى، الآية 1.
(8) سورة الزمر، الآية 9.
(9) سورة فاطر، الآية 28.

الرزق لكل كائن حي. إذا تلقى الله قرضاً فإنه يسدده بسرعة وبشكل كامل. بادر أنت إلى عطائه. ذلك أن صناديق كنوزك تعود إلى من تدين له بكل شيء.

والقرآن الكريم يقول:

ـ ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

ويقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[2].

ويقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾[3].

ويقول: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[4].

وفي الأسطر الأولى من القسم العاشر من المخطوطة نقرأ:

ـ «تذكر أنك محتاج، وأن ما تحتاج إليه لن تجده في عدم صدقك. لا تمد يدك إلى ما (حرّم الله) وإلا أحرقت. وسوف تأكل النار كل جسمك. وستنعم بالسعادة إذا طهرت نفسك. كذلك لا تغنى من رجل لا تعرف، وإلا فإنه يزيدك فقراً».

في هذا التشابه إشارة بالغة الدلالة «إلى الكتب الثلاثة» وردت في المخطوطة رقم 534 ـ 536 (قمران ـ الكهف الرابع)، والكتب الثلاثة هي التوراة والإنجيل والقرآن الكريم. ويربط النص الكتب الثلاثة بالرسول الذي ينزل عليه الكتاب الثالث (سيدنا محمد ﷺ). والأسطر الثلاثة الأولى من هذا القسم غير مكتملة المعنى، فهي مجرد كلمات متقطعة بنواقص لا تشكل جملة مفيدة. ويبدأ المعنى بالوضوح ابتداء من السطر الرابع حتى الحادي عشر على النحو التالي:

---

(1) سورة البقرة، الآية 212.

(2) سورة الإسراء، الآية 30.

(3) سورة البقرة، الآية 245، وسورة الحديد، الآية 11.

(4) سورة المائدة، الآية 12.

السطر الرابع: في شبابه سيكون. . . (نص ناقص) كلهم. . (نص ناقص) مثل رجل لا يعرف أي شيء حتى يحين الوقت عندما

السطر الخامس: يصبح عليه أن يعرف الكتب الثلاثة.

السطر السادس: عند ذلك يصبح حكيماً ويصبح متميزاً. . (نص ناقص) وستأتيه الرؤيا وهو جاث على ركبتيه يصلي.

السطر السابع: ومع والده وأجداده. . . (نص ناقص) الحياة، والتقدم في السن، سوف يحصل على المشورة والرحمة.

السطر الثامن: وسوف يعرف أسرار الإنسانية. إن معرفته سوف تصل إلى كل الشعوب، وسوف يعرف أسرار كل الكائنات الحية.

السطر التاسع: كل الخطط ضده لن تثمر، والشرعية الروحية على جميع الأحياء سوف تُغْنَى.

السطر العاشر: وكل مشاريعه سوف تنجح لأنه مختار من الله.

السطر الحادي عشر: . . . (نص ناقص) مشاريعه ستبقى إلى الأبد. .

من الواضح جداً أن هذه النبوءة تتعلق ببعثة النبي محمد ﷺ، وبنزول القرآن ـ الكتاب الثالث ـ، وبانتشار الإسلام في العالم كله والآية القرآنية تقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

هنا لا بد من طرح السؤال التالي: هل أن لمضمون هذه المخطوطات علاقة بإخفائها من قِبَل إسرائيل طوال الأربعين سنة الماضية؟

كان يمكن أن تكون هذه المخطوطات، التي كتبت منذ حوالي ألفي سنة، هباء منثوراً. كان يمكن أن تكون مجرد غبار في الصحراء، ولكن يبدو أن هناك حكمة من وراء الاحتفاظ بها طوال ألفي عام تقريباً، كما أنه لا بد أن تكون هناك حكمة من وراء اكتشافها بالصدفة.

ذلك أنها تشكل (بعد إنجيل برنابا الذي أجمعت الكنيسة على رفضه والذي يتضمن نصاً واضحاً بالتبشير بالإسلام وبالنبي محمد ﷺ) أول نص تاريخي يهودي ثابت لا شك في صحته يؤكد العلاقة التكاملية بين الإسلام

(1) سورة الحجر، الآية 9.

والمسيحية واليهودية على النحو الذي ورد في عدة سور من سور القرآن الكريم، وفي عدة آيات من آياته.

لقد تعثرت كل محاولات الحوار الإسلامي ـ المسيحي التي جرت في السابق، سواء بين الإسلام والفاتيكان، أو بين الإسلام والأرثوذكسية، أو بين الإسلام والكنائس الإنجيلية. وربما يعود أحد أهم أسباب هذا التعثر إلى خلل في معادلة الحوار نفسها، ذلك أن الحوار إما أن يكون بين طرفين يعترف أحدهما بالآخر، أو ينكر أحدهما الآخر، أما هنا فإن الإسلام يعترف بالمسيحية، والمسيحية تنكره كدين، ولذلك لم تصل مؤتمرات الحوار إلى أبعد من حدود المجاملة والتعايش.

ففي دراسة فاتيكانية عن أسس وقواعد الحوار بين الكاثوليك والإسلام (أعدَّ الدراسة الأب جوزف كوك والأستاذ لويس غاردة) تشديد على إجراء الحوار بين الأفراد لا بين الأنظمة والمذاهب الدينية، وذلك ربما لتجنب إشكالية الاعتراف. وقد جاء في هذه الدراسة[1]: «من المفيد أن نركز على هذه الناحية، إذ من الضروري أن يتم الحوار مع أشخاص أغنياء بتاريخهم، فضلاً عن كونهم متعلقين ـ مثلنا ـ ومحكومين بماضيهم، وبقواعد تفكيرهم وبطباعهم، وأمزجتهم، ولا يمكن أن يتم الحوار مع أنظمة ومذاهب فلسفية، أو مع الديانات، ولكن يجب أن يتم مع أشخاص يعيشون التجربة الإنسانية والدينية.

ومما لا شك فيه هو أن الحوار يمكن أن يتم بين العقائد، انطلاقاً من بعض نقاط الالتقاء، ولكن هذا النوع من الحوار لا معنى له، ولا فائدة تُرجى منه، إلا إذا كان يستطيع مساعدة اللقاء بين الأشخاص، مع التقليل من أهمية أفكارهم، وآرائهم المسبقة، ومع إزالة العوائق التي تقف في وجه هذا الحوار.

مع ذلك فإن الكنيسة الكاثوليكية لا ترفض أو تنكر ما هو حقيقي وخير في الأديان، ولكنها تنظر، وتقدر باحترام صادق، كما جاء في الدراسة، إلى أساليب العمل والعيش، وإلى القواعد والعقائد، التي قد تختلف في بعض

---

(1) من أجل حوار إسلامي ـ مسيحي، موقف المسيحية من الإسلام كما حدده الفاتيكان، ترجمة وإعداد: د. سليم إليافي ـ زهير مارديني، دار الجديد، بيروت 1983.

النقاط فيما تقرره وتتمسك به. . غير أن كل ذلك يعطينا قبساً من نور الحقيقة يضيء الناس أجمعين.

وهذا الموقف المتميز بالاحترام يجب أن لا يستند إلى الانتهازية، ولا إلى الصداقة التي يمكن أن تربطنا مع هذا، أو مع ذاك. . بل يجب أن تستند على كون الإسلام وسيلة تساعد الناس على التقرب من الذات الإلهية، وهي وسيلة واضحة، لهذا يجب أن نحترم عقائد الناس الذين يؤمنون أن ليست لديهم طريقة أخرى للتقرب من الله.

والديانات بالنسبة للمسيحي ليست لها قيمة دينية إلا بقدر ما تدفع وتوجه نحو تحقيق الهدف والتدبير الإلهي حيال الإنسانية.

وهذا الاتجاه نحو الكمال هو الذي يجب أن ندركه، ونشعر به في الديانة الإسلامية من خلال المؤمنين بها، إذا أردنا أن نعقد الحوار مع المسلمين في ظل احترام عقيدتهم وبدون مقاصد، وأفكار مسبقة.

وبالاكتشاف الجديد في مخطوطات البحر الميت عن الإسلام وعن بعثة النبي محمد ﷺ، وباللغة الآرامية، ومن قلب مجتمع يهودي عايش المسيح وتلقى تعليماته مباشرة وسجلها على رقاق من الجلد، بهذا الاكتشاف تُفتح صفحة جديدة من الحوار الإسلامي ـ المسيحي، بل بين الإسلام والمسيحية واليهودية ينطلق من الاعتراف المتبادل وذلك ربما لأول مرة في التاريخ الحديث.

ويقوم هذا الاعتراف على القاعدة الأولى المشتركة، وهي الدعوة الإبراهيمية.

وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

---

(1) سورة آل عمران، الآيات 64 ـ 68.

ومن الملاحظات الملفتة، بل المدهشة، التطابق اللفظي بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في المخطوطة رقم 252 (قمران ـ الكهف الرابع). فالقرآن الكريم يصف إبراهيم عليه السلام بأنه «خليل الله» بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[1]. وورد في القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[2]. وفي هذه المخطوطة تستعمل نفس العبارة ـ خليل الله، وحبيب الله، والصديق، وهو ما ورد كذلك في وثيقة دمشق من المخطوطات أيضاً.

وفي لغة يوحنا (3 ـ 23) و(4 ـ 4) تستعمل نفس التعابير عن إبراهيم. ويلاحظ الكتاب (ص81) أن هذه اللغة معروفة جداً في الإسلام لأنه، أي إبراهيم، حافظ على وصايا الله (وهي لغة معروفة في رسالة يوحنا)، وهي تستمر في وصف إسحاق ويعقوب «بأصدقاء الله» تماماً كما وصفهم محمد ﷺ فيما بعد مع إبراهيم بأنهم أولئك الذين استسلموا إلى الله. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3].

لقد أوجز القرآن الكريم الوحدة الدينية بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4].

ويقول القرآن الكريم أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[5].

ويقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[6].

---

(1) سورة النساء، الآية 125.
(2) سورة مريم، الآية 41.
(3) سورة البقرة، الآيات 130 ـ 133.
(4) سورة الشورى، الآية 13.
(5) سورة الحجرات، الآية 13.
(6) سورة المائدة، الآية 48.

الفصل الرابع

دور الدين في صناعة القرار السياسي

ترتفع في زوايا متعددة من العالم علامات استفهام كبيرة حول دور الدين في صناعة القرار السياسي. ففي أوروبا ترتفع علامة الاستفهام هذه من خلال الصراع الدموي العنيف بين الصرب الأرثوذكس والمسلمين من جهة، وبين الصرب والكروات الكاثوليك من جهة ثانية، كما ترتفع في إيرلندا الشمالية بين الأنكليكان والكاثوليك. ولا شك في أن صراعات عديدة أخرى في أوروبا الشرقية، يشكل التمايز الديني بين الأرثوذكس والكاثوليك، أحد أهم أسبابها.

وفي الهند ينعكس الصراع بين المسلمين والهندوس في كشمير تحديداً، وفي مناطق عديدة أخرى من الهند على العلاقات الهندية ـ الباكستانية، حتى أن هاتين الدولتين وحدهما، وهما من الدول الفقيرة في العالم، تستوردان معاً ما يزيد على 18 بالمئة من الصفقات العسكرية التجارية.

وفي الشرق الأوسط يلعب العامل الديني الدور الأهم في الصراع بين العرب واليهود، ولذلك عملت الحركة الصهيونية على استيلاد حركة دينية مسيحية أميركية تقف إلى جانب إسرائيل وتدعو إلى دعمها وتأييدها من منطلق ديني يقوم على تفسير مبرمج لما يعتقد أنه نبوءات دينية وردت في الكتاب المقدس.

ولا شك في أن إيران التي أسقطت الشاه من خلال ثورة دينية، تشجع حركات دينية عربية على الاقتداء بها، وتحاول حركات من هذا النوع، خاصة

في مصر والسودان والجزائر وإلى حد ما في الأردن وتونس، أن تشق طريقها إلى السلطة معتمدة أساساً على مفاهيم واجتهادات سياسية ـ دينية محددة.

من الواضح أن طرح القضايا الدينية بات يفرض نفسه في العالم كله من خلال أمرين متناقضين: الأمر الأول هو فشل الدول الفقيرة في اللحاق بالركب التكنولوجي للدول المتقدمة، وبالتالي سقوط هذه الدول في بؤر التأخر والعوز. إن عجز أو فشل الأنظمة السياسية في تحقيق وعودها في الرخاء والتقدم يحمل المجتمعات في دول هذه الأنظمة على اللجوء إلى الدين بديلاً وحيداً في متناول اليد.

في هذه المجتمعات، التي يمكن أن تشتد فيها «قبضة الدولة الدينية»، تطرح علامة الاستفهام حول كيف وأين يمكن رسم الحدود بين حرية الضمير عند الفرد، وقدسية السلطة المستمدة من الدين أو المستمدة حتى من مجرد الادعاء بتمثيل الدين والحكم باسمه؟

في الإسلام لا يوجد أي تصور، ولم تُطرح أية صيغة لفصل الدين عن الدولة. ولكن عندما حدثت عملية الفصل في أوروبا استمدت تلك العملية صدقيتها فيما بعد من إطلاقية حرية المعتقد. وباسم هذه الحرية قامت كنائس جديدة في الولايات المتحدة يربو عددها على الخمسين، قادت إطلاقية حرية المعتقد إلى قيام مدارس فكرية سياسية تتراوح بين الشيوعية والفاشستية والنازية والوجودية وغيرها من المدارس التي جرّت على مجتمعاتها، بل على العالم كله، ويلات ومصائب كثيرة.

تشكل «التعددية» العقدية والفكرية والإثنية في العصر الحاضر السمة المميزة للمجتمعات الغربية، وهي تعتبر، بعد الحرب الباردة وسقوط الشيوعية، الشعار الذي تحاول الولايات المتحدة تعميمه كأسلوب حياة لدى سائر المجتمعات الأخرى، بل إنه أصبح أحد أهم مقاييس الحضارة والتقدم واحترام حقوق الإنسان والجماعات.

إذا كان الغرب المسيحي (أوروبا ـ الولايات المتحدة) انتقل، من خلال مراحل الصراع بين الدولة والكنيسة، من التوحيد إلى التعدد، فإن هناك حوالي مليارين ونصف مليار من البشر ينكرون في الأساس التوحيد ويؤمنون بالتعدد مثل الهندوس والبوذيين والشنتويين والجينيين وغيرهم من شعوب القارة

الآسيوية الكبيرة، يضاف إليهم الملايين من سكان أفريقيا التي لم يصل إليها لا الإسلام ولا المسيحية بعد.

الإسلام دين توحيدي في العقيدة والجوهر، وهناك حوالي مليار مسلم ينتشرون من المحيط الباسيفيكي إلى المحيط الأطلسي على مساحة عُشر الكرة الأرضية يقولون بالتوحيد ويؤمنون به. إن نظرية صراع الحضارات التي تضع الإسلام في حالة تماس مع الحضارات الدينية الأخرى (المسيحية الكاثوليكية في أوروبا الغربية، والأرثوذكسية في روسيا والبلقان، والهندوسية في القارة الهندية) تقوم على الأرجح على قاعدة التمايز بين الوحدانية في الإسلام والتعددية عند الآخرين.

غير أن الواقع هو أن الإسلام لا يرفض التعددية ولا ينكرها. فمن حيث العقيدة، يؤمن الإسلام بالمسيحية وباليهودية رسالتين من عند الله، بحيث أن إيمان المسلم لا يكتمل بإنكار أي منهما. كذلك فإن الإسلام يساوي بين المسلمين من الأجناس والألوان والقوميات كافة، بل إن الإسلام يذهب إلى أكثر من ذلك فيفتح قلبه وذراعيه لاجتهادات فقهية متعددة، أدت إلى تعدد المذاهب الدينية الإسلامية. من هنا فإن محاولة تصوير الوحدانية في الإسلام على أنها رفض للتعددية تصب في تيار الاستنفار العدائي ضد الإسلام كنظام للحياة.

أما الأمر الثاني، الذي يفرض طرح القضايا الدينية، فهو أن التقدم الذي بلغته الدول الصناعية المتطورة أدى إلى تعميم الرخاء والتقدم التكنولوجي، كما أدى إلى ليبرالية ثقافية واسعة. فالإنسان هنا بات قادراً، أو على الأقل بات يعتقد أنه قادر، على إعادة تكوين الفصيلة الإنسانية من خلال قدرته على اللعب في الجينات التي تحمل معادلة الذاكرة الوراثية، بل وحتى على استنساخ الكائن الحيِّ من خليَّة حيَّة. من شأن هذا الأمر أن يعيد طرح التساؤلات الفلسفية ـ الدينية حول أصل الإنسان، وحول الهدف من الحياة، وحول الموت ومعناه الطبي، وحول ما بعد الموت.

إن مجرد طرح هذه التساؤلات يعني واقعياً عودة الدين، وعودة فلسفة الدين إلى الموقع المتقدم في الفكر الإنساني، وفي انشغالاته بقضايا العصر على النحو الذي كان سائداً قبل حركة فصل الدولة الغربية عن المسيحية.

بدأ صراع جديد في المجتمعات الدينية الغربية التي تتمتع بقدر عال من التقدم التكنولوجي، وتشكل الثقافة الليبرالية والحرص على الطبيعة (المحافظة على البيئة) محوري هذا الصراع. الثقافة بمعنى قدرة الإنسان من خلال التقنيات التي يمارسها (من المختبر إلى الفضاء)، والطبيعة بمعنى الحدود التي تشكل سقف الإبداع الإنساني. إن التحكم بالجينات الوراثية مثلاً يمكّن الإنسان ـ نظرياً حتى الآن على الأقل ـ من إنتاج إنسان جديد يتمتع بمواصفات عقلية وجسدية محددة ـ حسب الطلب ـ، كما يمكّنه من إنتاج «نسخ» مماثلة تماماً من الأطفال كالتوائم إنما من بطون مختلفة. يطرح هذا الأمر السؤال الأخلاقي الكبير: أين تبدأ حدود العلم والثقافة وأين تنتهي الطبيعة؟ ومن له حق اتخاذ القرار؟. . . من هذا المدخل يتبوأ الدين في هذه المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً موقعاً جديداً بامتياز.

إن معظم نتاج العلوم الإنسانية، على مدى القرنين الماضيين تقريباً، يمكن إدراجه تحت مقولة نيتشه «فن انعدام الثقة». فالمؤرخون يتساءلون مَنْ كتب هذا النص أو ذاك، وعلماء النفس يحاولون كشف النقاب عن دوافع الناس الحقيقية، وقد مرت حتى الآن اثنتان وسبعون سنة على إلقاء ماكس فيبر محاضرته الشهيرة «السياسة كمهنة» في جامعة ميونيخ. فقد ميَّز فيبر، في هذه المحاضرة، بين نوعين من الأخلاقيات يمكن ترجمتهما على أنهما «أخلاقيات التوجه» أو «أخلاقيات المسؤولية».

ترى الأولى منهما (أخلاقيات التوجه) أن المهم أخلاقياً هو موقف الفاعل، فإن كان التوجه نقياً من الوجهة الأخلاقية كانت الأفعال الصادرة عنه سليمة ومقبولة.

أما الثانية (أخلاقيات المسؤولية) أو أخلاقيات الغايات المطلقة، فترى أنه عندما تكون غايات الفعل غير عادية، فإن في وسع الفاعل أن يطرح جانباً أي اعتبار للوسائل والعواقب، وخير ما يعبر عن هذا الشكل المتطرف من أشكال هذا التوجه هو القول الروماني المأثور: «ليكن العدل ولتخرب الدنيا».

والسؤال هو: هل يتحمَّل الضمير الديني نتائج اللاأخلاقيات السياسية؟

من الأمور المتعارف عليها في ما يسمى بالعلوم السياسية أنه كلما كان صاحب القرار ملماً أكثر بالوقائع المتعلقة بأمر ما، تكون معالجته لهذا الأمر

أعمق أثراً، غير أن عالم الاجتماع يعرف أنه مهما أحاطت معرفته ببعض الأمور فإن هذه المعرفة تظل قاصرة عن الكمال مفتقرة إلى اليقين. فالعلم خلافاً للاعتقاد السائد، إنما هو مجال للاحتمالات وليس مجالاً لليقين. إن اليقينيات التي يمكن بلوغها في الحياة تقع في مجال «التعليل العاطفي»، على حد قول بيتر بيرغر عالم الاجتماع الأميركي، وهي تعليلات أخلاقية ودينية في طبيعتها وليست علمية. ليس ثمة ما يدعو عالِم الإنسانيات إلى أن يكترث بذلك؛ ففي مقدوره دائماً أن يقول إن الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة، أما السياسي فإنه لا يستطيع انتظار نتائج الأبحاث الموغلة في التأخر يوماً بعد يوم، بل إنه ملزم باتخاذ قرارات سريعة وبالتنفيذ الفوري، ومعنى ذلك أنه مضطر إلى العمل وهو في حال من الجهل غير يسير. إن العمل السياسي ينطوي على مخاطرات، وربما كانت هذه المخاطرات خطيرة في بعض الأحيان، وقد تؤدي إلى كوارث، ولكن يبقى أن لذلك ما يبرره أخلاقياً.

العلم والتكنولوجيا يتغيران كثيراً وباستمرار، وهما، على أية حال، تراث الإنسانية كلها. إن قانون الأمم يتقلّب دوماً بين صعود وهبوط، وشمس التفوق تغرب عاجلاً أو آجلاً، أما الخلود فلله وحده عز وجل، وتعاليمه وحدها باقية ومقدسة.

إن ممارسة السياسة باسم الله تضع القادة الدينيين كلهم وجهاً لوجه أمام ما سماه ماكس فيبر «القانون الحديدي للعواقب غير المقصودة»؛ ذلك أنه بإمكاننا محاولة تقويم العواقب المترتبة على أعمالنا السياسية وبإمكاننا التنبؤ بها، ولكن كل تقويم من هذا القبيل يبقى احتمالياً، إذ أن عواقب أفعالنا غالباً ما تفلت منا ثم تطاردنا من جديد، والمخاطرة الأخلاقية هي أننا سوف نكون مسؤولين عن الشر وعن الألم اللذين ربما كانا ثمناً لأفعالنا.

مهما يكن من أمر، فإن العالم كله، العالم الغني المتطور، والعالم الفقير النامي، يقف، كل من خلفية خاصة بتركيبته الاجتماعية، على أبواب مرحلة جديدة يبدو فيها أن الدين يبادر إلى استرجاع موقعه الممتاز في التأثير في عملية اتخاذ القرار، بل وفي تحديد الأولويات التي تصوغ هذه القرارات، وإذا حدث ذلك فإنه يحقق نبوءة أندريه مالرو التي قال فيها إن القرن الواحد والعشرين يكون دينياً أو لا يكون!!.

العودة إلى الدين

وكان قد صدر كتاب في فرنسا أثار جدلاً واسعاً بعنوان «انتقام الله»، يدور حول عودة الدين إلى الحياة العامة من الباب العريض، واستعادته للدور الأساسي في كتابة تاريخ القرن الجديد، وذلك في إشارة واضحة إلى أهمية دور الدين في صناعة مستقبل الإنسان في القرن المقبل. لقد شهد القرن الماضي حركات لا دينية متطرفة من الشيوعية إلى الفاشية فالنازية، كما شهد حركات اجتماعية لا دينية كالهيبيين عكست الفراغ الروحي الكبير الذي تعاني منه الشبيبة في المجتمعات الغربية بصورة خاصة، ولم يعد غريباً تحويل عدد كبير من الكنائس الكبيرة والكاتدرائيات إلى متاحف أو إلى معارض دائمة للفنون وللموسيقى، وذلك بعد أن هجرها المصلُّون وبعد أن فقدت دورها كمواقع للعبادة.

من هنا فإن المنظمات المسيحية الكبرى قررت القيام بمراجعة حسابية للأعمال التي قامت بها تمهيداً لبرمجة مشاريعها المستقبلية، وهو أمر لا تجاريها فيه المنظمات الإسلامية بما في ذلك، بل وخاصة، منظمة المؤتمر الإسلامي. ويشهد نهاية القرن العشرين أربعة مؤتمرات مسيحية دولية يُدعى مسلمون للمشاركة فيها في إطار البحث عن دور جديد للدين في مجتمع القرن الواحد والعشرين.

المؤتمر الأول أميركي - أوروبي ومقرُّه في شيكاغو وهدفه وضع شرعة دولية حول التفاهم بين الأديان أشبه ما تكون في صيغتها بميثاق الأمم

المتحدة. فميثاق الأمم المتحدة يتعلق بالدول والشعوب، أما الشرعة الدينية فتتعلق بالأديان وبالعلاقات المشتركة فيما بينها، كما يهدف المؤتمر إلى إنشاء منظمة دولية للأديان تشرف عليها وتديرها لجنة تنفيذية (على غرار مجلس الأمن)، وفي اعتقاد القس هانس كونغ أمين عام المؤتمر، وهو سويسري ألماني، أن منظمة الأمم المتحدة إلى زوال وأن البديل سيكون المنظمة الدينية المقترحة لأن الدين هو الذي سيلعب في القرن المقبل الدور الأساس والأهم في تحريك الأحداث وصناعتها.

المؤتمر الثاني أميركي تبنَّته الكنيسة الأسقفية الإنجيلية بقيادة القس سوينغ، والهدف منه وضع برنامج أخلاقي يكون أساساً لتنظيم العلاقات المشتركة بين الأديان، ولذلك فإن المؤتمر مهتم بمشاركة إسلامية ويهودية إضافة إلى مشاركة كل الحركات الدينية الأخرى في العالم.

أما المؤتمر الثالث فتحتضنه منظمة سانت جيديو ـ القديس جيديو ـ الكاثوليكية، وهي منظمة تابعة للفاتيكان وتنظم سنوياً ومنذ عام 1985 مؤتمراً حول التفاهم بين الأديان يعقد في إحدى المدن الإيطالية.

وتتطلَّع المنظمة إلى عقد المؤتمر في مدينة القدس إذا تمت تسوية الخلافات العربية ـ الإسرائيلية حول المدينة المقدسة، وذلك باعتبارها مدينة مقدسة عند المسلمين والمسيحيين واليهود. أما إذا لم تسوَّ الخلافات المحتدمة في الوقت الحاضر، فإن المنظمة تنوي عقد المؤتمر في جبل الطور في سيناء. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرئيس المصري الراحل أنور السادات كان قد اقترح إقامة مجمع ديني في جبل الطور يتألف من مسجد وكنيسة وكنيس، إلا أنه اغتيل قبل أن ينفذ مشروعه.

أما المؤتمر الرابع فقد نظَّمه مجلس الكنائس العالمي في عام 1998 ـ تاريخ صدور هذا الكتاب ـ في مدينة هراري في زيمبابوي، وهو مجلس يضم الكنائس المختلفة في العالم، وذلك بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنشاء المجلس، وقد دعيت إلى المؤتمر شخصيات فكرية من ستة أديان مختلفة، وهذه الأديان هي الإسلام، اليهودية، البوذية، الشنتو، السيخ، الهندوسية. وكان موضوعه: الرؤيا والتفاهم المشترك بين الأديان.

مهمة هذه المؤتمرات الدولية الأربعة الكبرى تقييم الحوارات بين الأديان

التي جرت في العقود الخمسة الماضية والنتائج التي وصلت إليها، والأسباب التي حالت دون نجاحها، ومن ثم وضع برامج جديدة في ضوء التجارب الماضية لتقرير أي نوع من العلاقة يمكن أن تقوم بين المسيحية والإسلام تحديداً باعتبار أن الديانتين هما الأوسع انتشاراً في العالم. وباعتبار أنهما الأكثر احتكاكاً أيضاً؛ تكتمل صورة الأهمية التي تعكسها هذه المؤتمرات بمبادرة جديدة للرئيس الأميركي بيل كلنتون. فقد شكّل هيئة علمية لتكون بمثابة المستشار الخاص له للشؤون الدينية العالمية والأميركية، وتترأس هذه الهيئة الدكتورة ديانا إيك، وهي أستاذة في جامعة هارفرد ومتخصصة في موضوع التعدد الديني في الولايات المتحدة. وتضم الهيئة 20 عضواً بينهم عضوان مسلمان هما وارث الدين محمد (ابن أليجا محمد) والسيدة ليلى مراياتي.

ويعكس قرار الرئيس الأميركي بتشكيل هذه الهيئة، رغم أن الدستور الأميركي يفصل الدين عن الدولة، شعور الإدارة الأميركية بأهمية الدور الذي يلعبه الدين في عالم اليوم (والغد)، كما يعكس الشعور بالحاجة إلى فهم الحوافز الدينية التي تقف وراء بعض المبادرات السياسية المتطرفة في أنحاء مختلفة من العالم.

في ضوء ذلك يمكن تسجيل الملاحظات الهامة الآتية:

أولاً: لم تُطرح أية مبادرة إسلامية لعقد مؤتمر مماثل لهذه المؤتمرات المتعددة الأديان، رغم أن الإسلام معني مباشرة بالموضوع، ورغم أن العلاقات الإسلامية مع الأديان الأخرى تحتاج إلى كثير من الدرس المعمَّق لتجنب الصدام الذي تتسم به أحياناً العلاقات بين الإسلام والمسيحية (في البلقان والقوقاز، وحتى في أوروبا الغربية)، وبين الإسلام والهندوسية (داخل الهند عامة، وفي كشمير خاصة، وبين الهند وباكستان)، وبين الإسلام والبوذية (إقليم سينغيانغ في الصين).

ثانياً: ولم تُطرح مبادرة إسلامية لعقد مؤتمر إسلامي ـ إسلامي يقرِّب وجهات النظر بين المسلمين ثقافياً وفكرياً ليشكلوا جبهة دينية متراصة ومنفتحة في الوقت نفسه على العالم وعلى متغيراته المنتظرة في القرن الواحد والعشرين. فالمسلمون الذين يزيد عددهم على المليار إنسان،

والذين ينتشرون على طول عشرة آلاف ميل من أندونيسيا إلى المغرب في أكثر من أربعين دولة، ينقسمون إلى 190 إثنية ويتكلمون مئات اللغات واللهجات.

ثالثاً: في غياب المبادرة الإسلامية الخاصة يجد المسلمون أنفسهم مخيَّرين بين أمرين أحلاهما مرٌّ: إذا رفضوا الاشتراك في المؤتمرات المتعددة الأديان، التي يدعون إليها، فإنهم يعزلون أنفسهم ويوحون للآخرين بأن الإسلام سلبي منكفىء على نفسه وغير منفتح، وهذا أمر غير صحيح. وإذا لبُّوا الدعوات إلى هذه المؤتمرات فهم يفعلون ذلك ضمن شروط المنظمات الداعية سواء لجهة تحديد موضوعات المؤتمرات أو جداول أعمالها، مما يجعل المشاركة الإسلامية محكومة بضوابط يحددها أصحاب الدعوة أنفسهم.

رابعاً: غالباً ما يوضع الإسلام في هذه المؤتمرات الدولية موضع المتهم (بالإرهاب، أو بانتهاك حقوق الإنسان، أو بعدم معاملة غير المسلمين بالمثل، أي كما يعامل المسلمون في المجتمعات غير الإسلامية) الأمر الذي يحمل المسلمين على تخصيص عملهم في المؤتمرات للدفاع عن الإسلام، وهو تكتيك يضعف الحضور الإسلامي ويحدُّ من أهمية الدور الذي يفترض أن يقوم به المسلمون لتقديم الإسلام كرسالة إلهية موجهة إلى العالمين.

خامساً: إذا كان الدين يستعيد دوره كقوة محركة للأحداث في العالم، فإنه لم يتوقف عن أن يكون هذه القوة في الشرق الأوسط. فمنذ عام 1856 لاحظ القنصل الفرنسي في لبنان، المسيو بلونش، هذه الظاهرة في مذكرة دبلوماسية رفعها إلى وزير خارجية بلاده يقول فيها: «الحقيقة الكبرى والأبرز التي تحضر أثناء دراسة هذه البلدان هي المكانة التي يحتلها الفكر الديني في أذهان الناس، والسلطة العليا التي يشكلها في حياتهم. فالدين يظهر حيث كان، وهو بارز في كل المجتمع الشرقي، في الأخلاق وفي اللغة والأدب وفي المؤسسات.. وترى أثره في كل الأبواب.. الشرقي لا ينتمي إلى وطن حيث ولد، الشرقي ليس له وطن، والفكرة المعبرة عن هذه الكلمة أو بالأحرى عن الشعور الذي توقظه غير موجودة في ذهنه، فالشرقي متعلق بدينه كتعلقنا نحن

بوطننا، وأمة الرجل الشرقي هي مجموعة الأفراد الذين يعتنقون المذهب الذي يعتنقه هو، والذين يمارسون الشعائر ذاتها، وكل شخص آخر بالنسبة له هو غريب..».

والواقع أن هذه الظاهرة لا تقتصر على المسلمين وحدهم، ولكنها تشمل المسيحيين وحتى اليهود كذلك. فالشرق الأوسط ربما يكون أكثر منطقة في العالم سالت فيها الدماء، وانهمرت عليها الدموع وارتفعت منها الصلوات!!..

الفصل الخامس

الحوار في القرآن

في مراجعة دراسية لآيات القرآن الكريم المتعلقة بالحوار بصورة عامة، وبالحوار الإسلامي ـ المسيحي بصورة خاصة، نجد أن في القرآن الكريم أنواعاً متعددة من الحوارات:

* حوار الله مع الشيطان.
* حوار الله مع الأنبياء.
* حوار الله مع عباده يوم القيامة.
* حوار الأنبياء مع الناس.
* حوار الناس مع الناس.

في ضوء ذلك يمكن إبراز الإحصاءات القرآنية الآتية:

* وردت كلمة «قال» ومشتقاتها 1713 مرة، منها 549 مرة كلمة «قال»، و355 مرة كلمة «قالوا».
* وردت كلمة «جادل» ومشتقاتها 29 مرة.
* وردت كلمة «فكّر» ومشتقاتها 18 مرة.
* وردت كلمة «فقه» ومشتقاتها 18 مرة.
* وردت كلمة «حاجّ» (يحاجج) 13 مرة.
* وردت كلمة «حوار» ثلاث مرات.

في حوار الله مع الشيطان، أشيرُ إلى ما ورد في سورة الأعراف، الآيات

من 10 إلى 24، وفي سورة الحجرات الآيات من 15 إلى 40.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

وفي حوار الله مع الأنبياء أشير إلى الآية 260 من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي حوار الله مع عباده، أشير إلى الآيتين 125 و126 من سورة طه حيث ورد في الآيتين الكريمتين: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾.

وفي حوار الأنبياء مع الناس، أشير إلى ما ورد في سورة المجادلة، الآية الأولى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

كما أشير إلى الآية 258 من سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي حوار الناس مع الناس، أشير إلى الآية 34 من سورة الكهف: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾. وفي الآية 37: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾.

أردتُ، من وراء هذه المقدمة، أن أؤكد على أمر أساسي وهو أن الحوار

---

(1) سورة الأعراف، الآيات 11 ـ 18.

يتطلب وجود تباينات واختلافات في الفكر وفي الاجتهاد وفي الرؤى، وأن ذلك هو انعكاس طبيعي للتنوع الإنساني الذي يعتبر في حدِّ ذاته آية من آيات القدرة الإلهية على الخلق ومظهراً من مظاهر عظمته. والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في مواقع عدة. فالآية 22 من سورة الروم تقول: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾. وفي الآية 99 من سورة يونس، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

فلا وحدة الجنس أو اللون أو اللغة ضرورة حتمية لا يتحقق التفاهم بدونها، لذلك لا بد من الحوار على قاعدة هذه الاختلافات التي خلقها الله، وأرادها أن تكون.

من هنا يمكن الدخول إلى موضوع الحوار الإسلامي ـ المسيحي. ولكن لا بد أولاً من التوقف أمام معنى الحوار وسيكولوجيته.

فالحوار ـ كالصداقة ـ لا يمكن أن يولد بنتيجة الضغط أو بالترغيب الإجباري. علينا (كما جاء في وثيقة المجمع الفاتيكاني الثاني بشأن الحوار مع الإسلام) «أن نعمل تدريجياً على تغيير عقلية وذهنية إخوتنا المسيحيين» لأن «المهم بالنسبة لنا كما هو مهم بالنسبة للآخرين، محاولة اكتشاف الإنسان كما يعيش، وكما يأمل أن يكون، ولا يهمنا الماضي بقدر ما يهمنا هذا الإنسان المُتَّجه نحو آفاق المستقبل للحصول على عدالة أكثر، وحقيقة أكثر، وحبٍّ أكثر. هذا هو الرجل الذي يجب أن نعرف، ومع هذا الرجل فقط يمكن أن نشيِّد ونبني حواراً أصيلاً وحقيقياً». ويستشهد النص الفاتيكاني بما قاله المستشرق ماسينيون من أنه «لكي نفهم الإنسان الآخر يجب أن لا نستولي عليه وندمجه فينا، بل يجبْ أن نكون ضيوفه».

وللحوار أهداف مختلفة. فهو إما أن يكون وسيلة لتنفيس أزمة ومنع انفجارها، أو أن يكون سعياً لاستباق وقوع الأزمة ومنع تكوُّن أسبابها، وإما أن يكون محاولة لحل أزمة قائمة واحتواء مضاعفاتها. في هذه الحالات الثلاث يتحتم العمل على:

1 ـ إبراز الجوامع المشتركة في العقيدة والأخلاق والثقافة.

2 ـ تعميق المصالح المشتركة في الإنماء والاقتصاد.

3 ـ توسيع مجالات التداخل في النشاطات الاجتماعية الأهلية (كالأندية الرياضية والجمعيات الكشفية والمؤسسات التعليمية والاستشفائية).

4 ـ التأكيد على صدقية قيم الاعتدال وتوسيع قاعدته التربوية.

5 ـ إغناء الثقافة الحوارية التي تقوم على عدم رفض الآخر، والانفتاح على وجهة نظره واحترامها، وعدم التمترس وراء اجتهادات فكرية صدئة، من خلال التعامل معها كمقدسات ثابتة غير قابلة لإعادة النظر.

إنَّ أي حوار يستلزم، من حيث المبدأ، تحديداً مسبقاً لأمرين أساسيين: الأمر الأول هو على ماذا نتحاور، والأمر الثاني هو لماذا نتحاور. أي إنه لا بد من تحديد آلية الحوار وأهدافه.

وقعت التجارب السابقة للحوار الإسلامي ـ المسيحي في عدة أخطاء مما حال دون تحقيق أي تقدم إيجابي حقيقي وفعال ومؤثر في العلاقات الإسلامية ـ المسيحية. فمبادرات الحوار كانت تأتي على الأغلب من الغرب، وكانت تقفز بالتالي من فوق المسيحية العربية، ليس للتقليل من شأنها فقط أو تصويرها وكأنها مجرد كنيسة تابعة للغرب، وبالتالي تابعة لمفاهيمه ولقيمه ولاستراتيجيته، إنما لاستبعاد القيم الثقافية الإسلامية التي تشكل ركناً من أركان الشخصية المسيحية العربية. كانت مادة الحوار هي التي تحدد أهدافه، ولم يكن من أهدافه التوفيق لذاته، بل التوصل إلى حد أدنى من التفاهم الذي يمكن توظيفه لامتصاص ردات فعل إسلامية ناتجة أحياناً عن أزمات سياسية أو عن خيبات أمل اقتصادية، وغالباً عن اهتزاز الثقة بالغرب، أو حتى انعدامها.

كان استبعاد الكنيسة العربية يزيد من الخلل في التوازن الحواري. فالمحاور المسيحي الغربي (الكاثوليكي أو البروتستنتي) غالباً ما يكون دارساً للإسلام متعمقاً في فهم العقيدة والفقه والشريعة الإسلامية. أما المحاور المسلم فإن معرفته عن المسيحية تكاد تنحصر بالنص القرآني. أما دراسة اللاهوت المسيحي وفلسفته فكانت في معظم الأحيان غائبة عن ثقافة المحاور المسلم.

يزيد من هذا اللاتكافؤ الحواري طريقة تحديد مواضيع الحوار واختيارها. فنرى مثلاً كيف كانت تنطلق حملات اتهام الإسلام بعدم احترام حقوق الإنسان عامة، وحقوق المرأة خاصة، ثم كيف كانت تنظم المؤتمرات

والندوات لبحث مواضيع حقوق الإنسان من وجهتي نظر الإسلام والمسيحية. فتعقد هذه اللقاءات الحوارية إنطلاقاً من اتهام مسبق للإسلام، الأمر الذي يضع المحاور المسيحي في موضع الهجوم أو الناقد، والمحاور المسلم في موضع الدفاع عن النفس. الأول في موقع قوة المتهِم، والثاني في موقع ضعف المتهَم.

من مظاهر توظيف الحوار في خدمة الاستراتيجية الغربية في الشرق الأوسط اختيار موضوعات للحوار تتلازم مع مساعي التسوية السياسية بين إسرائيل والدول العربية، مثل موضوع «دور الدين في السلام» أو «مفهوم السلام في الأديان»، وعلى سبيل المثال جاء الاجتماع الحواري الأول بين شيخ الأزهر، الدكتور عبد الحليم محمود، مع أمين سر شؤون غير المسيحيين في الفاتيكان في عام 1977، الكاردينال بنيدولي، متلازماً مع زيارة الرئيس المصري الراحل أنور السادات إلى القدس المحتلة. وكان الإخراج الإعلامي السياسي لهذا الاجتماع، (ولغيره من مؤتمرات الحوار) أكثر لمعاناً وبريقاً من المضمون العلمي الجاد. ولقد كنتُ شخصياً شاهداً على مثل هذا الواقع في مؤتمرين حواريين على الأقل، في طوكيو باليابان وفي ميلانو بإيطاليا.

في الأساس يحتل المحاور المسيحي موقع الغرب إلى طاولة الحوار.. وهو موقع فوقي، يعكس تقدم الغرب التقني وتفوقه السياسي والعسكري والاقتصادي وغلبته المعنوية على الشرق، ويجد المحاور المسلم نفسه في موقع يعكس حالة الضعف التي تنتابه، كما يعكس حالة عدم الرضى على هذه الحالة التي يحمل الغرب مسؤوليتها.

ومع هذا اللاتكافؤ واللاتوازن تجري الحوارات، وفي ذهنية كل من الجانبين أهداف غير معلنة، أبعد ما تكون، في الحالتين، عن الروحانية الدينية أو عن الرغبة في اكتشاف آفاق معرفية وإيمانية مجهولة. فالغرب يوظف الحوار بهدف التعرف بشكل أفضل على عقلية المسلمين ودراسة التحولات المستجدة في الفكر الإسلامي عن قرب، لتسهيل عملية الاحتواء والاستيعاب والتدجين، أما المحاور المسلم فإنه يقدم على الحوار إما لإثبات حسن النية تجاه المسيحية، وبالتالي تجاه الحضارة الغربية، أو للتخفيف من وقع أزمة الضمير الأوروبي تجاه اليهود، وبالتالي بهدف فك الارتباط بين المسيحية الغربية (وبعض الكنائس الإنجيلية الأميركية خاصة) والحركة الصهيونية.

ثمة أمر آخر يكرّس اللاتكافؤ واللاتوازن، ويشكل عقبة مبدئية في طريق حوار جدي وموثوق به، وهو شعور المسلم بالإحراج والضيق من جراء جلوسه إلى طاولة الحوار مع الكنيسة الغربية، في الوقت الذي تقوم فيه هذه الكنيسة بعمليات تبشير واسعة النطاق في عدة دول إسلامية فقيرة أو متخلفة في آسيا وأفريقيا، وينتاب المحاور المسلم شعور بأنه، في ذلك، يرتكب إثم خيانة مسلمي هذه الدول وخذلانهم بدلاً من التضامن معهم وشد أزرهم. ومع أن مؤتمراً إسلامياً مشتركاً عقد في سويسرا في عام 1965 أدان حركة التبشير في بُعدها السياسي، فإن هذه الحركة لم تتوقف، حتى إن الوثيقة الفاتيكانية لعام 1984، التي أشرت إليها، اعتبرت «أن الحوار يتيح الفرصة للآخرين كي يختبروا بأنفسهم القيم الإنجيلية بشكل واقعي»، وهذا يُفهم على أن الحوار هو وجه من وجوه التبشير.

عندما نتحدث عن الحوار بين الإسلام والمسيحية فنحن نتحدث أساساً عن حوار بين الإسلام وكتلتين مسيحيتين هما المسيحية العربية والمسيحية الغربية. تختلف المقاربة الحوارية وتتباين تبعاً لاختلاف ولتباين الذاكرة التاريخية، ولخلفية العلاقة الآنية، وللتطلعات المستقبلية للإسلام تجاه كل منهما.

ترسي قواعد الحوار الإسلامي مع المسيحية العربية عوامل عديدة لعل من أهمها:

1 ـ الارتباط القومي العضوي بين الإسلام العربي والمسيحية العربية.

2 ـ نجاح تجربة الانفتاح والتعاون مع المسيحية العربية التي شهدتها الدولة الإسلامية منذ العهد الأموي حتى انحلال الدولة العثمانية.

3 ـ الكفاح المشترك ضد:

أ ـ حروب الفرنجة «الحملات الصليبية».

ب ـ الاستعمار الغربي.

جـ ـ حملات التبشير الغربية، التي استهدفت أساساً تنصير المسلمين واختراق الكنائس الشرقية، وذلك من خلال ربط ما توفّره من فرص الدراسة والعمل بتغيير الدين أو الكنيسة.

كانت هناك دائماً أرضية صلبة لتفاهم إسلامي ـ مسيحي على المستوى العربي، باعتبار أن أبناء الديانتين ينتمون إلى أسرة عربية واحدة، ويواجهون مصيراً مشتركاً واحداً، وفوق ذلك، لأنهم لا يستلهمون خياراتهم من توجيهات خارجية. فكما أن الإسلام العربي مؤتمن على الإسلام، وهو قلبه النابض وعقله المجتهد، كذلك فإن المسيحية العربية الشرقية حاولت أن تكون دائماً سيدة نفسها وصاحبة قراراتها، الأمر الذي لعب دوراً أساسياً في تضييق الهوة الخلافية بين الإسلام والمسيحية. وعلى النقيض من ذلك كان للاستعمار الغربي ولحركات التبشير المرتبطة به أحياناً أكبر الأثر في توسعة هذه الهوة وتعميقها.

أما الحوار الإسلامي مع المسيحية الغربية فإن له منطلقات مختلفة تماماً. لعل الانفتاح المسيحي الغربي الأول على الإسلام حدث إبان الحرب العالمية الأولى عندما حاولت ألمانيا وإيطاليا من جهة، وبريطانيا وفرنسا من جهة ثانية، استقطاب العالم الإسلامي أو جزءاً منه على الأقل في صراعها الدموي المرير. بعد الحرب العالمية الثانية استهدف الانفتاح الغربي على الإسلام تحقيق هدفين أساسيين: الأول محاولة امتصاص نقمة العرب بسبب تخلي بريطانيا وفرنسا عن الوعود التي التزمتا بها لشريف مكة بإقامة الدولة العربية الواحدة والتزامهما فقط بتطبيق وعد بلفور بإقامة وطن يهودي في فلسطين. أما الهدف الثاني فهو ربط الإسلام بحركة العداء الرأسمالي الغربي للشيوعية، التي قامت في الاتحاد السوفياتي السابق والصين، والتي بدأت تنتشر في أوروبا الشرقية ومناطق عديدة أخرى في آسيا وأفريقيا.

الآن، وبعد تشرذم الأمة العربية إلى 21 دولة، وبعد قيام إسرائيل النووية، وبعد سقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفياتي، يأخذ الانفتاح الغربي على الإسلام بعداً آخر. تحدد هذا البعدَ الأمورُ الآتية:

1 ـ محاولة استيعاب الإسلام في النظام العالمي الجديد لما بعد الحرب الباردة.

2 ـ محاولة استغلال وتثمير نقاط التماس الجديدة بين الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية التي قامت على أنقاض التفسخ السوفياتي واليوغسلافي، والمتمثلة في الكيانات السياسية الإسلامية المستقلة الجديدة في آسيا الوسطى (تركمانيا ـ قرقيزيا ـ أوزبكستان ـ كازاخستان ـ طاجكستان)، وفي

القوقاز (أذربيجان ـ شاشانيا)، وفي البلقان (البوسنة ـ الهرسك).

3 ـ محاولة احتواء تنامي الصحوة الإسلامية الجديدة من خلال وصمها بالتطرف والإرهاب، وبالتالي تشويه صورتها خاصة في المجتمع الغربي الأوروبي ـ الأميركي، الذي يشهد هو نفسه انتعاشاً جديداً للمشاعر العنصرية التي تمثلت في السابق في حركات عقائدية إرهابية، مثل النازية والفاشية في أوروبا، وK.K.K. في الولايات المتحدة، الأمر الذي يضع تنامي الصحوة الإسلامية وانتعاش هذه المشاعر العنصرية من جديد في حالة مواجهة ذات بُعد ديني بين الإسلام والغرب.

يخفض من غلواء هذه الاحتمالات أمران أساسيان: يتمثل الأمر الأول في تطلُع الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا نحو تبريد خطوط التماس من الشاشان حتى طاجكستان، وتجريد الصراع السياسي عن البعد الديني. وفي هذا الإطار نُظم أول لقاء إسلامي ـ مسيحي ـ أرثوذكسي في تاريخ آسيا الوسطى، وكنتُ المسلم الوحيد، من خارج المنطقة، الذي دعي للمشاركة في المؤتمر بمحاضرة عن التجربة اللبنانية كمثال تستنير به هذه الدول في بحثها المشترك عن صيغ وفاقية تنظم علاقات الأقلية الروسية الأرثوذكسية بالأكثرية الإسلامية لشعوب المنطقة.

ففي شهر تشرين الأول ـ أكتوبر 1995 عقد في مدينة طشقند، عاصمة أوزبكستان، مؤتمر حول التعايش الإسلامي ـ المسيحي في آسيا الوسطى، وهو أول مؤتمر من نوعه يعقد في تاريخ المنطقة. بدا واضحاً، خلال المؤتمر، أن المسلمين والأرثوذكس يشكون معاً مما يعتبرونه «غزو الكنائس الإنجيلية الأميركية». فحركة التبشير الإنجيلي تجري على قدم وساق في الجمهوريات الخمس (تركمانستان ـ كازاخستان ـ قرقيزيا ـ أوزباكستان ـ طاجكستان) وتعمل عدة عوامل في خدمة هذه الحركة التبشيرية التي تشمل مسلمين وأرثوذكس معاً. هذه العوامل هي:

ـ حالة الفقر المدقع التي تعاني منها شعوب المنطقة.

ـ الإمكانات المالية الإغرائية الواسعة التي تتمتع بها الحركات التبشيرية.

ـ ربط ثقافة التحرر من الشيوعية بالانفتاح على كل ما هو آتٍ من الولايات المتحدة: الكولا ـ الهمبرغر ـ الجينز ـ والمبشرين.

ـ حرص حكومات دول آسيا الوسطى على استرضاء الغرب عامة، والولايات المتحدة خاصة، للحصول على الدعم المعنوي والاقتصادي، وينعكس هذا الحرص تسهيلاً لعمل حركات التبشير والترخيص لها.

ـ ضعف الخلفية الثقافية والتربوية الإسلامية لدى معظم قادة هذه الدول ومسؤوليها الذين تحولوا من الشيوعية إلى الإسلام بقرار اتخذوه بأنفسهم ولأنفسهم بعد استقلال دولهم.

وهكذا قام بيل غراهام مثلاً، وهو أحد رموز الحركة الإنجيلية الأصولية في الولايات المتحدة، بزيارة طشقند في عام 1994، حيث نُظم له احتفال شعبي في إحدى الساحات العامة حضره، كما قيل لي، عدة آلاف من سكان المدينة الذين استمعوا إلى موعظة تبشيرية له ألقاها في الهواء الطلق ونقلت أجهزة الإعلام المحلية وقائعها مفصلة.

خلال المؤتمر الذي عُقد في مدرسة لاهوتية أرثوذكسية في طشقند، شكا مفتو ورؤساء المجالس الدينية في الجمهوريات الخمس، وكذلك مطران طشقند الأرثوذكسي، من خطر تحوُّل الناشئة من الإسلام، ومن الأرثوذكسية إلى الإنجيلية، وخاصة إلى الإنجيلية الأصولية. وبدا وكأن التخوُّف الإسلامي ـ الأرثوذكسي المشترك يشكل قاعدة لحوار بين المسلمين والأرثوذكس المتحدِّرين من أصول روسية.

يتمثل الأمر الثاني، الذي يخفِّف من غلواء هذه المخاوف، في المبادرة الفاتيكانية التي انطلقت من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني 1965، ومن وثيقة 1984 التي تحدد «موقف الكنيسة تجاه أصحاب الديانات الأخرى تأملات وتوجهات حول الحوار والدعوة»، ومن وثيقة الإرشاد الرسولي، التي أذاعها البابا يوحنا بولس الثاني من بيروت في أيار ـ مايو ـ 1997. فتحت هذه الأدبيات المسيحية آفاقاً جديدة لحوار أشد حرارة مع الإسلام.

ولعل آخر وأهم المقاربات المنطلقة أساساً من قاعدة هذا المجمع الثاني، هو الإعلان عن أن الخلاص ليس بالضرورة وقفاً على الكنيسة، وأن لله تجلياتٍ عبر أديان أخرى كالإسلام والبوذية والشنتوية وغيرها، وهذا يعني انتقال المسيحية الغربية من إنكار الإسلام والتنكُّر له إلى الانفتاح عليه، ومدِّ يد التعاون معه كدين يدعو إلى عبادة الله الواحد، ويحثُّ على التمسُّك بالقيم الأخلاقية والإنسانية العالية.

كانت هذه القضية واحدة من أكثر القضايا الخلافية حدة في أي حوار إسلامي - مسيحي. ذلك أن الإسلام لا يعترف بالمسيحية فقط، ولكنه يعتبر الإيمان بالإنجيل، وبالسيد المسيح، جزءاً من الإيمان بالإسلام، لا يكون الإيمان من دونه، وهو ينتفي بإنكاره، لأن الدين كلٌ من عند الله. فالإسلام، في العقيدة الإسلامية، لا يقتصر على ما جاء به النبي محمد ﷺ ولكنه يشكل كل المسيرة الدينية من إبراهيم، أبي الأنبياء، حتى محمد ﷺ، وتختصر الآية 13 من سورة الشورى هذا الأمر حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

فالإيمان بما أوحى الله به إلى إبراهيم وموسى وعيسى يتكامل مع ما أوحى الله به إلى محمد، والإسلام هو كل هذه المسيرة الدينية الموحى بها من الله، لأن الدين واحد والشرائع مختلفة، كما يقول أبو حنيفة. ويذكر القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم أنه: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[1]، وأنه: ﴿أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]. وبالتالي فإن معنى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[3] هو هذا الإسلام الذي لا ينكر رسالات الله، والذي يتكامل معه كوحدة إيمانية، تختلف شرائعها باختلاف الأزمان: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[4]. تشكل هذه الخلفية الإيمانية مصدر ألم للمحاور المسلم عندما يجد أن المحاور المسيحي ينطلق من رفض مبدئي لهذا الإيمان المشترك بوحدانية الله، وبوحدة الدين.

إن للحوار منطلقات تحددها العقيدة الإسلامية على النحو التالي:

المنطلق الأول: أن يكون هدف الحوار عبادة الله الواحد وعدم الشرك به: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[5]. هذا يعني أنه بالنسبة للإسلام فإن الأولوية العقدية هي عبادة الله وعدم الشرك به، فإذا لم يتحقق ذلك بحوار الكلمة السواء، فما على

(1) سورة الحج، الآية 78.
(2) سورة الأنعام، الآية 163.
(3) سورة آل عمران، الآية 19.
(4) سورة المائدة، الآية 48.
(5) سورة آل عمران، الآية 64.

المسلمين إلا أن يقولوا: ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، ذلك أن: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

أما المنطلق الثاني للحوار الإسلامي ـ المسيحي فإنه يتجاوز موضوع الإيمان الإبراهيمي الواحد، إلى أمر حميم جداً يقتصر على المسيحيين دون غيرهم من أهل الكتاب. فالقرآن الكريم يقول في سورة المائدة: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2]، وهذا يعني أن من مقومات الود الإسلامي تجاه النصارى أن منهم قسيسين ورهباناً، علماً بأن لا رهبانية ولا كهنوت في الإسلام، ومن صفات الرهبان والقساوسة المحببة عند الله أنهم لا يستكبرون.

ويقول القرآن الكريم أيضاً في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].

أرسى مجتمع المدينة المنورة، في عهد النبي، محمد ﷺ، قاعدة لإقامة نسق تعاوني بين شتى فئات الناس من مؤمنين وأهل كتاب ويهود. الوثيقة النبوية أقرّت أصحاب الآراء على آرائهم، وتكفلت بحمايتهم كما هم. قام مجتمع المدينة على قاعدة نشر الدعوة مع احتضان الاختلاف.

على أساس السابقة النبوية في دولة المدينة الأولى، فإن الإسلام لا يضيق بتنوع الانتماء العقيدي، ولا يؤمن بالنقاء العرقي: (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى). فإذا كان التنوع من طبيعة تكوين المجتمع، فإن الحوار هو الطريق الوحيد الذي يؤدي بالاختيار الحر إلى الوفاق والتفاهم والوحدة، ذلك أن البديل عن الحوار هو القطيعة والانكفاء على الذات وتطوير ثقافة الحذر والشك والعداء للآخر.

إن العيش الوطني بين المسلمين والمسيحيين في مجتمع متعدد ليس مجرد ضرورة حياتية تنظمها توازنات سياسية ثابتة أو متغيرة، بل إنه ممارسة للشريعة والتزام بثوابتها.

---

(1) سورة الحج، الآية 69.

(2) سورة المائدة، الآية 82.

(3) سورة البقرة، الآية 62.

الحوار مع الآخر

إن الحوار يجري مع الآخر. ولا يمكن تعريف الآخر بمعزل عن الأنا. إن فهم الآخر، ومن ثم التفاهم معه لا يتحققان من دون أن تتسع الأنا له، وبالتالي، كلما سما الإنسان وترفَّع عن أنانيته، كلما أوجد في ذاته مكاناً أرحبَ للآخر. إن الحقيقة ليست في الأنا، إنها تتكامل مع الآخر حتى في نسبيتها، وهي لا تكتمل في إطلاقيتها إلا بالله. والحوار مع الآخر هو اكتشاف للأنا وإضاءة ساطعة على الثغرات، وعلى النواقص التي لا تخلو منها شخصية إنسانية.

إن وحدة الجنس أو اللون أو اللغة، ليست ضرورة حتمية لا يتحقق التفاهم بدونها، لذلك لا بد، من أجل إقامة علاقات مبنية على المحبة والاحترام، من الحوار على قاعدة هذه الاختلافات التي خلقها الله، وأرادها أن تكون، والتي يتكشَّف للعلم أنها موجودة حتى في الجينات الوراثية التي تشكِّل بعناصرها شخصية كل منّا وتمايزاتها. هناك فوارق كثيرة بين علاقة الإرادة وعلاقة الفرض. العلاقة الأولى هي نتيجة حوار وثمرة تفاهم، وهي بالتالي فعل إرادي، أما العلاقة الثانية فهي حالة تنكُّر لحق الآخر وتجاهل لتمايزاته ولخصائصه؛ وتجاوز للحوار كوسيلة لفهمه وللتفاهم معه، وهي بالتالي حالة مفروضة، وكل ما هو مفروض مرفوض من حيث المبدأ والأساس.

الآخر قد يكون فرداً وقد يكون جماعة، وفي الحالتين قد يكون مؤمناً، وقد يكون كتابياً وقد يكون كافراً. الآخر المؤمن هو للمؤمن كالبنيان

المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً. والآخر الكتابي في المجتمع الإسلامي هو في ذمة المسلم والرسول يقول: (من آذى ذمياً فقد آذاني). أما الآخر الكافر، فالعلاقة معه مبنية على قاعدة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]. وفي كل الحالات فإن العلاقة بين المسلم والآخر يختصرها الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول محمد ﷺ: (المسلم من سلم الناس من يده ولسانه).

وعندما يرسي الإسلام القاعدة الشرعية بأن: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[2] فإنه يعطي الآخر الفرصة ليعمل عقله وفكره على الإيمان بالحقيقة الإلهية، حتى إذا توصل إليها كان الإيمان بالاقتناع وبالاختيار وليس بالفرض.

المطران جورج خضر يقول[3]: «إن صاحب الحقيقة لا يطوِّع أحداً، لأن التطويع يعني عبادة لأناه لا عبادة للحقيقة»، وهو يرى أيضاً أن: «شرط بروز الآخر فيك بساطتك، وهي الاطمئنان إلى أنك موجود لأن الله يراك. والبساطة تنشىء في الآخر نقاوة تجعله يعطيك ليس فقط خيرَ ما عنده ولكن يعطيك نفسه، وهذا يكون إذا جعت إليه وجاع إليك لتأتي منه ويأتي منك، أي ليؤتى كل منكما الآخر نوراً إلهياً يعيش فيه؛ أي إن الأنا تشرق من الآخر». ذلك هو الإيمان القوي المناقض لذلك النوع من الإيمان الذي يبلغ في تقوقعه درجة من التسلط يلغي معها الآخر، ويسد منافذ الإشراق، ويعتم على ذاته حتى يفقد القدرة على الرؤية فتتقطع معه أوصال الحب، نابذاً ما لا يعرف، متعصباً لما يعرف، معتبراً أنه وحده يملك الحقيقة المطلقة وأنه يشكل الفرقة الناجية.

صنّف رسول الله محمد ﷺ، المؤمن بأنه قوي أو ضعيف، وفضّل القوي على الضعيف. ولكن ما هي مقومات القوة والضعف في الإيمان؟ طبعاً لا يتعلق الأمر هنا بالقوة البدنية وإن كان لا ينفيها بالضرورة، ولكنه يتعلق بمفهوم الإيمان وصفائه، وبكيفية ممارسته في الحياة العامة؛ ذلك أن الإيمان هو مدرسة الحياة من حيث أنه ينظُّم علاقات الناس على أسس وعلى قواعد مستمَدة من تشريع إلهي يكون في حد ذاته طريقاً إلى الآخرة.

إن الإيمان الانغلاقي الرافض لاجتهاد يواكب متغيرات العصر

---

(1) سورة الكافرون، الآية 6.

(2) سورة البقرة، الآية 256.

(3) جريدة النهار ـ 13 ـ 7 ـ 1996.

ومستحدثات الحياة، ومقفل في وجه الآخر فكراً ومعرفة، هو إيمان ضعيف معرض للاهتزاز وللانهيار بمجرد أن يتسرب إليه اجتهاد مخالف للموروث من تاريخ الفقه. أما الإيمان المتمسك بالمقدس من النص، المنفتح على نسبية وحركية التفسير الإنساني، فإنه إيمان قوي واثق ومتجذر في العقل والقلب.. وبقدر ما يلغي الإيمان الضعيف الآخر وينكره ويتنكّر له، يقف الإيمان القوي على قاعدة ثوابته الإيمانية فاتحاً عقله للآخر محاججاً ومتعلماً ومعلماً.

في الأساس الحق واحد، كما يقول أبو الوليد الباجي في كتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول، وأن من حكم بغيره فقد حكم بغير الحق. ولكننا لم نكلف إصابته، وإنما كلفنا الاجتهاد في طلبه. فمن لم يجتهد في طلبه فقد أثم، ومن اجتهد فأصابه فقد أجر أجرين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة للحق. ومن اجتهد فأخطأ فقد أجر أجراً واحداً لاجتهاده، ولم يأثم لخطئه.

يقرر الإسلام الاختلاف كحقيقة إنسانية طبيعية ويتعامل معها على هذا الأساس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[1].

وفي مجتمع متعدّد الأديان والمذاهب، كالمجتمع اللبناني، يصبح الحوار الدائم المنفتح والمتفتح ركناً من أركان وحدته واستقراره. والحوار لا يكون إلا مع الآخر، وإلا يصبح حواراً مع الذات. والآخر لا يكون إلا مختلفاً، وإلا تنتفي الحاجة إليه. لذلك فإن الركيزة الأولى للحوار هي القبول بالتعدد وبالاختلاف معاً. يشكل هذا القبول ميزة من ميّزات الفقه الإسلامي. إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[2]. إن من العبث إلغاء الاختلاف، ومن المستحيل تحويلُه إلى وفاق مطلق، ولكن من الممكن جداً، بل من الضروري، عدم تحويل الاختلاف إلى خلاف. لقد شبّه روجيه غارودي[3] الإنسان عن حق بأنه: «مثل موجة تسكنها جميع اندفاعات المحيط، موجة بلا حدود في

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

(2) سورة هود، الآية 118.

(3) روجيه غارودي، «نحو حرب دينية»، ص96.

محيط من الطاقة لا ضفاف له. كذلك الإنسان، فهو مسكون بجميع الآخرين. إنه جميع الآخرين».

لا يعني ذلك بالضرورة أنه لم تمر فترات من الانحطاط الفكري أُسيء خلالها فهم روح الشريعة الإسلامية، وبالتالي أُسيء تطبيق نصوصها السمحة. فقد استخدم بعض السلاطين، في عهود الأمويين والعباسيين وفي عهود المماليك والعثمانيين، علماء ليفتوا للسلطان ضد خصومه. واستخدم خصومٌ للسلطان علماء آخرين ليفتوا ضد حكمه، فكثرت فتاوى التكفير والتكفير المضاد على النحو الذي نشهد أمثلة لها اليوم في بعض الأقطار الإسلامية (في الباكستان مثلاً حيث يتبادل تنظيم جيش محمد، وتنظيم جيش الصحابة تكفير أحدهما للآخر)، وصدرت فتاوى أخرى بتكفير جماعات وفرق إسلامية لاجتهاد تمسكت به، كما صدرت فتاوى بالتحريض ضد جماعات غير إسلامية، وبسوء معاملتها لاختلافها في الدين. ولكن هذه السقطات هي الاستثناء الخارج عن الخط العام لروح الشريعة؛ مما يستلزم حصرها في إطاريها الزماني والمكاني، وبالظروف والعوامل المحلية التي كانت سائدة في حينه، وهي لا تنسحب على التشريع الإسلامي العام، ولا تشكل ثابتاً من ثوابته الفقهية.

ويذكر المفكر غارودي أيضاً في كتابيه: «الغرب عبارة عن حادثة»، و«حرب الأديان» «أن الغربيين يعتقدون أنهم يملكون الحقيقة المطلقة، وأن من واجبهم أن يفرضوها على الآخرين بحجة أن هؤلاء غير متحضِّرين وجاهلين، وهذا ما لم يتوقف عنه الغرب منذ خمسة قرون متواصلة».

ويؤكد غارودي أن المسيحية كانت، بالنسبة للغرب، الحقيقة المطلقة فاستخدموها لاحتلال العالم، ثم وجدوا الحقيقة المطلقة في العلم فاستخدموا التقدم العلمي وسيلة لفرض سيادتهم على العالم. والآن يضعون الحقيقة المطلقة في إطار الحداثة والتطوُّر لمواصلة تبريراتهم السابقة بإلغاء الآخر واحتوائه وتدجينه.

إن من مقومات الحضارة العربية ـ الإسلامية احترام الآخر والانفتاح عليه والتكامل معه، وليس تجاهله أو إلغاؤه أو تذويبه. ويشهد تعدُّد الأقليات الدينية والإثنية في العالم الإسلامي ومحافظتها على خصائصها العنصرية وعلى

تراثها العقدي والديني، على هذه الحقيقة وأصالتها. إن اعتراف الإسلام بالآخر ومحاورته بالتي هي أحسن وقبوله كما هو، لا يعود بالضرورة إلى ساحة المسلمين، إنما يعود في الأساس إلى جوهر الشريعة الإسلامية، عقيدةً وقيماً.

إن هدف الحوار ليس إقناع الآخر بأن يكفَّ عن أن يكون نفسه. إن الهدف على العكس من ذلك هو محاولة اكتشاف الآخر في عمقه لتمكينه من أن يُسهم بفكره وبتجربته الخاصة، وبإيمانه في بلورة الحقيقة وتكاملها، ومن ثم للعمل معه، وكأن العمل له تحقيقاً لحب هو في ذاته أسمى تجلّيات العلاقة مع الآخر.

الفصل السادس

العلاقات الإسلامية ـ المسيحية

هناك سلبيتان ترسمان صورة الواقع المعاصر للعلاقات الإسلامية ـ المسيحية، السلبية الأولى مسيحية غربية، وهي تتمثل في:

أولاً: تزايد الشعور عند المسيحيين العرب بأنهم يتحوّلون من جسر حضاري وثقافي بين الشرق والغرب إلى رهائن في عالم عربي يتراجع فيه الشعور بالانتماء القومي لمصلحة الشعور بالانتماء الديني.

ثانياً: استمرار العالم الغربي في تعامله مع المسيحية العربية على أنها موجودة في الجانب الخطأ من خط التقسيم الحضاري، وبالتالي فإن العلاقات الغربية ـ العربية تدفع باتجاه القفز من فوق المسيحية العربية متجاهلةً أكثر فأكثر حقائق أصالتها وشهادة وجودها ومعنى استمرارها، وهي في بعض الأحيان تحاول استغلالها متجاوزةً مصالحها، وغير مراعية لمشاعرها الروحية ولانتمائها القومي.

ثالثاً: محاولة علاج هذين الأمرين السابقين بكيفية تؤدي إلى استفحالهما. فالمسيحية العربية تهرب من الواقع إلى تأشيرة الهجرة إلى الولايات المتحدة أو كندا أو أستراليا أو أميركا اللاتينية أو أوروبا الغربية؛ والعالم الغربي يبادر إلى ترتيب علاقاته مع الأقطار العربية ومع إسرائيل على هذا الأساس.

إذا أخذنا الحضور المسيحي العربي في القدس مقياساً، ندرك الحجم المأساوي لتراجع هذا الحضور وأبعاده؛ ذلك أن دفع المسيحية العربية إلى

الهجرة من المدينة المقدسة على النحو الذي يجري بشكل متعمَّد ومبرمج منذ احتلالها في عام 1967، سوف يؤدي ليس فقط إلى استضعاف الحضور المسيحي والعربي، بل قد يؤدي أيضاً، وتبعاً لذلك، إلى تمرير معادلة للتسوية تقوم على قاعدة تفاهم إسلامي ـ يهودي يكون على حساب التفاهم الإسلامي ـ المسيحي العربي وعلى أنقاضه.

أما السلبية الثانية فإسلامية ـ عربية، وهي تتمثل في:

أولاً: انحسار مسافة التمييز في الثقافة العامة بين الغرب والمسيحية؛ وبين الصراع السياسي والاختلافات العقائدية. أدى هذا الانحسار إلى تساقط الفواصل بين مفهوم حق الدفاع عن الإسلام وجوهر العلاقة مع المسيحية، كما أدى إلى تداخل ردِّ الفعل الاستنفاري تجاه الغرب بالموقف من المسيحية العربية، وبالتالي إلى التعامل معهما خطأً ـ أي مع المسيحية ومع الغرب ـ وكأنهما وجهان لحالة واحدة.

ثانياً: تنامي واتساع رقعة عمل الحركات السياسية التي تتخذ من الإسلام مظلّة أو شعاراً لها.

هناك ثلاث دوائر تجد فيها هذه الحركات ميداناً لتحركها:

الدائرة الأولى دولية، وذلك من خلال ما تتعرض له بعض الأقليات الإسلامية في العالم الغربي من اضطهاد وقمع؛ في يوغوسلافيا السابقة وخاصة في البوسنة ـ الهرسك؛ وفي الاتحاد السوفياتي السابق، وخاصة في الشيشان وطاجكستان وقبل ذلك في أذربيجان؛ وفي أوروبا الغربية حيث ارتفعت وتيرة الحركات العنصرية المعادية للمهاجرين المسلمين من تركيا وشمال أفريقيا.

الدائرة الثانية إقليمية، وهي تتخذ عدة أوجه، منها فرض أحكام دولية بالعقاب الجماعي مما يلحق ضرراً جسيماً بحياة الناس وينتهك حقوقهم، كما يجري في العراق وليبيا والسودان، وذلك بحجة معاقبة أنظمة سياسية سيئة. ومنها استعمال سياسة ازدواجية المنطق بين العرب وإسرائيل سواء لجهة الموقف من قرارات الأمم المتحدة أو لجهة التسلُّح. ولعل آخر تجليات ذلك يتمثل في الضغط على الدول العربية لتجديد التزامها بمعاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية في الوقت الذي تأكدت صحة المعلومات الدولية عن امتلاك إسرائيل ترسانة نووية ربما يزيد حجمها على 150 قنبلة. ومنها كذلك، أن

التسوية السياسية، التي يجري إقرارها لم تأتِ استجابة لمبادرة عربية أو لقناعة عربية، بل إن الدول العربية وجدت نفسها في وضع المضطر للتجاوب تحت ضغوط معادلات ما بعد الحرب الباردة، وبالتالي فإن التسوية في مضمونها لا تعكس شعارات العنفوان العربي بقدر ما تعكس الاضطرار العربي للخضوع للأمر الواقع الجديد خوفاً من الأسوأ. ولا شك في أن تسوية من هذا النوع لا تخلق حالة من الاطمئنان إلى المستقبل، بل تولد شعوراً بالقهر لا بد أن يعبِّر عن نفسه بطريقة أو بأخرى.

أما **الدائرة الثالثة** فداخلية، وتتمثل في الصراع على السلطة في بعض الدول العربية، أو في الصراع مع السلطة في بعضها الآخر.

يتمحور الصراعان هنا حول مغالطتين كبيرتين:

المغالطة الأولى هي اعتبار المسيحية العَربية مجرَّد امتداد للغرب المسيحي. وفي الواقع فلا الغرب مسيحياً بالمعنى الديني والعقدي، ولا المسيحية العربية هي امتداد له.

والمغالطة الثانية هي اعتبار المسيحيين العرب أداة أو حليفاً للسلطة الداخلية عندما تكون هذه السلطة في حالة صدام مع الحركة الإسلامية السياسية. وفي الواقع فإن للمسيحية العربية من المواقف الوطنية والمبدئية ما يتجاوز العلاقة مع السلطة على النحو الذي برز، بشكل واضح وجلي، في عدة مناسبات، وفي عدة دول عربية، وخاصة في لبنان ومصر والأردن وسوريا.

أدَّت المبالغة في تبسيط معادلات الصراع (سواء من خلال الاستعداء المطلق لسلطة ما، أو من خلال تصنيف المسيحية العربية على أنها وجه آخر للحضور الغربي المعادي، وأنها أداة بيد السلطة القمعية)، هذه المبالغة في التبسيط أدَّت وتؤدي إلى مآسٍ وطنية على النحو الذي تتوالى وقائعه في الجزائر على نطاق واسع، وفي صعيد مصر على نطاق محدود ومتقطع.

من حيث الشكل، تنظم دول العالم المتقدم هيكلياتها السياسيَّة من خلال الأحزاب، ومن خلال مؤسسات ديمقراطية تمثيلية، يكون الحكم بموجبها للأكثرية فيما تتمتع الأقلية بحق المعارضة. أما في دول العالم المتخلف فإن التنظيم السياسي المجتمعي يتم غالباً بإحدى وسيلتين: إما بالفرض العسكري

أو بالاستقطاب الديني. إذا كانت الصيغة الأولى تقود إلى دوامة الانقلابات والانقلابات المضادة فإن الصيغة الثانية تؤدي إلى استخدام الدين أداة لتحقيق أهداف سياسية سلطوية (ولا نقول تسلطية)، وبالتالي، فإنها ليست موجهة ضد المسيحيين العرب إلا بمقدار ما يخدم هذا التوجه أهدافاً سياسية في الصراع مع السلطة الداخلية. وبقدر ما تتعاطف دول أجنبية مع هذه السلطة يصبح رعايا هذه الدول أهدافاً للاعتداء، ليس لأن دينهم مختلف، بل لأن الاعتداء عليهم يشكل أداة ضغط على حكومات دولهم. وفي الحالتين قد تحقق هذه الحركة السياسية هدفاً تكتيكياً مرحلياً، ولكنها تخسر الهدف الأسمى والأبعد بما تلحقه بالإسلام وبسمعته من ضرر، وبما تتسبب به من ردود فعل معادية للأقليات الإسلامية في المجتمعات غير الإسلامية.

مع ذلك فإن من الخطأ أن ينطلق رد فعل المسيحية العربية من الشعور بالأقلية؛ ذلك أن قاعدة هذا الشعور هي الخوف، والخوف يقود إلى حالة من ثلاث حالات، أو إلى الحالات الثلاث معاً. الحالة الأولى هي التقوقع والانعزال الذاتي مما يعطل دور المسيحية العربية في المجتمع العربي. والحالة الثانية هي الهجرة إلى الخارج، وفي الهجرة ضياع وتخلٍ عن فعل الشهادة. أما الحالة الثالثة فهي احتمال الوقوع بين رحى المواجهة بين الغرب والإسلام، وهي مواجهة يُفَلْسَف لها منذ بدايات نهاية الحرب الباردة (دراسة صموئيل هانتغتون - مجلة الشؤون الخارجية [الأميركية] صيف 1993).

من المفيد، بل ومن الضروري، أن ينطلق رد فعل المسيحية العربية من تفهم بسيكولوجية بعض الحركات الإسلامية كحركات سياسية تعمل أولاً على توظيف العواطف الدينية من أجل تحقيق أهداف سياسية، وتعمل ثانياً على استثمار المشاكل الاجتماعية وخيبات الأمل الوطنية بهدف توسيع قاعدتها الشعبية؛ وتعمل ثالثاً على الإيحاء بأنها توصلت إلى حل نهائي إلهي - ديني - لكل ما يعاني منه الناس، وبالتالي فإن المهم جداً أن تستوعب المسيحية العربية، أن هذا الأسلوب من العمل السياسي يضع هذه الحركات، حكماً، في حالة تماس مع مسلمين ومع غير المسلمين، الذين لمجرد أنهم غير مسلمين، فهم يرفضون بنظرها الحل الإلهي الجاهز، ويعصون بالتالي إرادة الله مما يبيح، في تقديرها القائم على إلغاء الآخر تماماً، أي عمل لتجاوز ما يمثله هذا الآخر من عقبات.

رد فعل المسيحية العربية يجب أن يكون جزءاً من رد فعل عربي إسلامي ـ مسيحي مشترك، ينطلق، أولاً وأساساً، من تثقيف المجتمع العربي بأن المعاناة واحدة؛ سواء من جراء الصعوبات الاقتصادية والتردي الاجتماعي، أو من جراء خيبات الأمل الوطنية، أو من جراء السلوك الغربي من حيث أنه سلوك استعلائي ليس موجهاً ضد المسلمين وحدهم بل ضد المسلمين والمسيحيين معاً كعرب وكشرقيين، وأن العدو الإسرائيلي لا يفرق، في نهجه العدواني، بين مصري مسلم ومصري قبطي، ولا بين لبناني مسلم ولبناني مسيحي، وبذلك يمكن إعادة الكرة إلى ملعب الحركات السياسية الدينية؛ بمعنى وضعها وجهاً لوجه أمام السلطة وأمام المجتمع من دون أن يسمح لها باستخدام أدوات غير شرعية في هذه المواجهة، فإما أن تُسقِط هي السلطةَ ـ ديمقراطياً وليس بالإرهاب والعنف ـ وإما أن يتمسّك المجتمع الأهلي بالسلطة وينبذ هذه الحركات ويعزلها.

ولكن حتى يمكن الارتفاع بردّ فعل المسيحية العربية إلى هذا المستوى من المسؤولية الوطنية القومية، لا بد من العمل على تحقيق أمرين أساسيين: الأمر الأول هو بلورة ردّ فعل إسلامي يلتزم بصورة خاصة بالمهام الأساسية الآتية:

المهمة الأولى: هي رسم خط فاصل بين الإسلام كدين والاستغلال السياسي له في حركات وتنظيمات تتطلع إلى السلطة.

فالقرآن الكريم، الذي يتألف من حوالي 17,400 كلمة، يحمل اللامتناهي في المعنى، ولعل هذا ما يفسر قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1]. فمن خصائص البناء اللغوي القرآني هذا الربط العميق بين نسبية الحامل اللغوي والمطلق المعرفي. ولكن عندما يعجز المجتهد أو الفقيه عن سبر غور هذه المعرفة، ينصرف عن استنباط أحكام الشريعة في المستجدات من الأمور، وينشغل باللغويات الجمالية أو الإبداعية للنصوص القرآنية.

إن الاعتقاد بأن جماعة ما هي وحدها التي تفهم النص الديني فهماً صحيحاً وكاملاً، وبالتالي، فإن هذه الجماعة هي وحدها المؤتمنة على الدين،

---

(1) سورة الكهف، الآية 109.

وأن كل من هو خارج الالتزام بمفهومها، وبها، هو خارج على الدين، هذا الاعتقاد يتناقض في الجوهر، وفي الأساس، مع الإسلام كمعطى إلهي، ويتناقض مع الموروث الديني الذي يشكل ثروة فكرية لسلسلة غنية من التجارب والاجتهادات البشرية في التعامل مع النص الإلهي.

ينطلق هذا التناقض من الخلط بين المنزَّل والموحى، بين الوحي الإلهي والمفهوم الإنساني، بين قدسية النص والفهم البشري المفتوح أمام الخطأ والصواب.

ثم إن الإسلام الذي يؤمن بأنه صاحبُ عقيدة التوحيد الإلهية يقرّر في الوقت نفسه حرية الاعتقاد، ويعتبر هذه الحرية حقاً من حقوق الإنسان الطبيعية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

يروي الصحابي الجليل ابن عباس أنه كان لرجل من الأنصار، يقال له أبو الحصين، ابنان نصرانيان، وكان هو مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرهُهُما؟ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فنزلت الآية الكريمة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[3].

إذا كان لا إكراه لحمل غير المسلم على أن يكون مسلماً، فهل يجوز إكراه المسلم على أن يأخذ باجتهاد أو بتفسير لنص محدد دون آخر؟ وهل يجوز تكفير من يخالفنا الرأي في تفصيل من تفاصيل العبادة مع أنه يجمعنا وإياه الإيمان بالله ورسوله؟..

كذلك يقرر الإسلام الاختلاف كحقيقة إنسانية طبيعية، ويتعامل معها على هذا الأساس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[4]، بل إن من آيات عظمة الله هذا الاختلاف الذي ورد في الآية 22 من سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

ومع اختلاف الألسن والألوان كان من طبيعة رحمة الله اختلاف الشرائع والمناهج، وهو ما أكدته الآية 48 من سورة المائدة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً

(1) سورة الإنسان، الآية 3.

(2) سورة يونس، الآية 99.

(3) سورة البقرة، الآية 256.

(4) سورة الحجرات، الآية 13.

﴿وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، و﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1]، و﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2].

المهمة الثانية: هي رسم خط فاصل ثان بين الإسلام كدين والأنظمة السياسية التي لا تحترم المبادىء الشرعية أو الأخلاقية للإسلام، أي بين سماحة الإسلام وسوء سلوك سلطة ما. فكما أنه لا يجوز أن تنسحب مساوىء حركات سياسية دينية على الإسلام، كذلك يجب أن لا تنسحب مساوىء بعض الأنظمة السياسية على الإسلام، فلا الصراع ضد الحركات السياسية الدينية هو صراع ضد الإسلام، ولا الدفاع عن مثل هذه الأنظمة هو دفاع عن الإسلام.

المهمة الثالثة: هي رسم خط فاصل ثالث بين المسيحية العربية وعملية الصراع على السلطة. فالوقوف مع السلطة ليس وقوفاً ضد الإسلام إذا كانت السلطة تستعدي حركات سياسية دينية؛ والوقوف ضد السلطة ليس تحالفاً مع هذه الحركات ضد إسلام السلطة. فليس كل من يقف ضد السلطة هو معاد للإسلام، وليس كل من يقف معها معاد لهذه الحركات. إن اختصار العمل السياسي الوطني بهذا الأفق الضيق والمتزمت يلحق أكبر الضرر بالسمعة الإسلامية، وبالقضية العربية، وبالعلاقات الإسلامية ـ المسيحية، وبمعادلات السلم الأهلي في كل دولة عربية.

ليس بزيت القمع تخمد نار الحركات السياسية الدينية. إن المعالجة تتطلب وعياً أعمق، ورؤية أشمل، وهما أمران يحتمان المزيد من التوعية الدينية لوضع حد لثقافة التناقض بين التحديث والموروث الديني، ولتحقيق المزيد من الانفتاح الأهلي والتنمية الاجتماعية، ولفتح المزيد من الآفاق أمام حرية التعبير والديمقراطية السياسية، وتأصيل ثقافة الحوار الإسلامي ـ المسيحي العربي، وفكّ الارتباط الذهني بين المسيحية العربية والسياسات الغربية، ويحتّمان كذلك كبح جماح الهجمة الغربية الاستعدائية ضد الإسلام في عالم ما بعد الحرب الباردة.

---

(1) سورة الحج، الآية 69. (2) سورة هود، الآيتان 118 و119.

أمَّا الأمر الثاني، الذي لا بدَّ من تحقيقه، فهو إقامة جسر حواري دائم ومباشر بين الإسلام والمسيحية العربية.

يفتقر العالم العربي إلى «ثقافة حوارية» أولاً بين السلطة والقوى المعارضة لها، وثانياً بين المسلمين والمسيحيين. فثقافة الحوار تنطلق من محاولة البحث عن الحقيقة في وجهة نظر الآخر، بمعنى أن هذه الثقافة تتطلب الإقرار الواقعي بأن الحقيقة ليست ملكاً مطلقاً لأي طرف، وأن الاعتقاد بصوابية رأي أي طرف لا يعني بالضرورة أن رأي الآخر على ضلال. فالحوار يجب أن ينفتح على وجهات النظر الأخرى، وأن يحترمها وإن اختلف معها، وأن يتقبلها بدون أن يعني بالضرورة الالتزام بها.

إن الحوار الإسلامي ـ المسيحي ليس حواراً ثنائياً بالضرورة، ففي الإسلام مذاهب عدة، وفي المسيحية كنائس عدة؛ لذلك يتَّسم الحوار بتعددية في المنطلقات وفي الأفكار. تتقارب المسافات الحوارية أو تتباعد المسافات الخلافية وفقاً لفقه المتحاورين أو لهوياتهم أو للأغراض التي يتطلعون إليها.

المسافة قريبة بين الإسلام والكنائس العربية (الأرثوذكسية والقبطية والكاثوليكية والإنجيلية والسريانية وغيرها)، ذلك أن ثمة قواسمَ مشتركة، كالقومية ومعاداة الاستعمار، ترسي قواعد ثابتة لتفاهم حقيقي وعميق بين أتباعهما. فكما أن الإسلام ليس ديناً قومياً كذلك فإن المسيحية ليست ديناً قومياً، (على خلاف ما هو قائم مثلاً في يوغوسلافيا السابقة حيث الأرثوذكسية هي دين الصرب القومي؛ والكاثوليكية دين الكروات القومي). وحين يكون شعب واحد مؤمناً بأكثر من دين، كالشعب العربي، يصبح الحوار بين أبناء الديانتين أشد وثوقاً وأكثر يسراً لأنه يستخدم لغة واحدة، ولأنه ينطلق من حتمية واحدة هي حتمية العيش المشترك والمصير الواحد، غير أن هذا الحوار يواجه صعوبات خارجة عن ذاتيته. من هذه الصعوبات:

أولاً: وكما أشرتُ سابقاً، الربط بين المسيحية العربية والمخططات السياسية الغربية. وتعود أصول هذا الربط إلى البعثات التبشيرية التي حاول بعضها، وفي بعض المراحل التاريخية، أن يعطي بعداً دينياً وثقافياً للاستعمار العسكري منذ مطالع القرن التاسع عشر.

ثانياً: محاولات الاستخدام الغربي للمسيحية العربية ـ من دون طلب

منها، ومن دون رضاها ـ كرأس جسر لتدجين العالم العربي واحتوائه، وذلك من خلال الادعاء بحماية المسيحيين وإنقاذ المقدّسات المسيحية (الجنرال اللنبي ـ الجنرال غورو).

ثالثاً: التصوُّر الإسلامي بأن الكنيسة العربية مرتبطة بمراجع خارجية، وأن الحوار يكون مفيداً أكثر إذا جرى مع هذه المراجع الخارجية مباشرة قافزاً من فوق الكنيسة العربية ومتجاهلاً لها.

رابعاً: الحرص الغربي على تقليل، أو حتى على إلغاء دور الكنيسة العربية في بناء العلاقات مع العالم العربي إيحاء للمسلمين بتبعيتها للغرب، وبالتالي بسهولة المساومة عليها. تكون الكنيسة العربية حاجة ضرورية للغرب عندما تسوء علاقاته مع العالم العربي، فيبادر إلى تحريضها أو الادعاء بحمايتها من أجل الضغط والابتزاز، وتتلاشى هذه الحاجة تماماً عندما يطمئن الغرب إلى أن مصالحه الاستراتيجية في العالم العربي في مأمن من أي خطر.

تحت تأثير هذه العوامل السلبية المضلِّلة جرت حوارات إسلامية ـ مسيحية عديدة لم تكن الكنيسة العربية طرفاً فيها، فانتهت من دون أن تحقِّق تغييراً يُذكر في جوهر العلاقة المشتركة. الحوار البنّاء والهادف يجب أن ينطلق من الشعور بالانتماء إلى أمّة واحدة وإلى شعب واحد بما يؤدّي إلى تعزيز النسيج القومي ليقوى على مواجهة الرياح العاتية، التي تهبُّ علينا من الداخل ومن الخارج على حدٍّ سواء. ففي يقيننا أن أي حواء إسلامي ـ مسيحي، على المستوى العالمي، لا يمكن أن ينطلق بنجاح إلا من قاعدة تفاهم إسلامي ـ مسيحي على المستوى العربي، وإن هذه القاعدة يمكن أن تقوم على قاعدة، وعلى مثال التفاهم الإسلامي ـ المسيحي اللبناني، وبقدر ما تلقي علينا هذه المهمة الإنسانية من أعباء فإنها تضفي علينا قدراً موازياً من التشريف والتكريم.

إن عالم الغد يُبنى على حوار الحضارات وتكاملها وليس على تصارعها، وحوار الحضارات، كما جاء في الورقة الموحدة للجنة الوطنية الإسلامية ـ المسيحية للحوار في لبنان «يقوم أساساً على حوار الرسالات السماوية التوحيدية، وهو ما يجسده لبنان عبر الحياة المشتركة بين أبنائه كافة».

تجارب التعايش الإسلامي - المسيحي

هناك تجربتان للتعايش الإسلامي - المسيحي خارج الإطار العربي:

التجربة الأولى جرت في أسبانيا بين مسلمين عرب ومسيحيين غير عرب. مرّت تلك التجربة في مرحلتين:

أولاً: مرحلة الهيمنة الإسلامية التي استمرت من عام 712 حتى عام 1492 (أي حتى سقوط غرناطة).

ثانياً: مرحلة الهيمنة المسيحية، والتي استمرت من عام 1492 حتى عام 1609 (أي حتى إجلاء آخر دفعة من المسلمين عن أسبانيا).

تميّزت المرحلة الأولى بالتسامح الديني، وبالمشاركة في صنع حضارة مشرقة، أما المرحلة الثانية فغلب عليها طابع محاكم التفتيش.

التجربة الثانية جرت بين مسلمين غير عرب ومسيحيين عرب، وكان مسرحها الأمبراطورية العثمانية التي، رغم كل مساوئها في سنوات مرضها التي انتهت بموتها، فقد أعطت كل جماعة في البلقان وفي الشرق الأوسط حقوقها الدينية. كان تفجير الصراعات العرقية والدينية في أجزاء الأمبراطورية المتداعية مدخلاً لتبرير تدخلات القوى الدولية (روسيا - النمسا - فرنسا - بريطانيا) التي بادرت إلى تناتشها أسلاباً وغنائم، حتى قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

منذ ذلك الوقت، لم نشهد أية تجربة جديدة للتعايش الإسلامي - المسيحي، بل شهدنا استمرار وتواصل تداعيات التجربتين السابقتين. فالتجربة الأسبانية ولّدت ما يمكن اعتباره عقدة خوف لدى المسلمين الذين يعيشون

كأقلية في مجتمع غربي. والتجربة الثانية أوجدت حواجز نفسية ومعنوية لم يُبذل جهد كاف بعد لإثبات أنها مجرد حواجز من الوهم يسهل اختراقها. ما حدث في البلقان مؤخراً، وخاصة في البوسنة ـ الهرسك، يلقي الضوء على ما لم يحدث في الوطن العربي؛ ذلك أن المنطقتين كانتا جزءاً من الأمبراطورية العثمانية، وأنهما تعرضتا، بقدر متساوٍ تقريباً، للتحريض وللتدخل الخارجيين، ولكن الوقائع أثبتت أن الحرب الأهلية في يوغسلافيا السابقة، وما رافقها من عمليات تطهير ديني، تتناقض، بشكل جوهري وبنيوي، مع القيم الأخلاقية والروحية والوطنية التي لا تزال مجتمعاتنا العربية تعض عليها بالنواجذ.

في تقييمنا لتجربة العيش الإسلامي ـ المسيحي العربي نتوقف أمام إشكاليتين:

أولاً: إشكالية النظرة الغربية إلى الإسلام بما تتسم به من سلبية تصل في ظروف كثيرة إلى حدِّ الاستعداء. لقد لاحظنا كيف ارتفعت وتيرة هذه المشاعر مع انتهاء الحرب الباردة في عام 1989، حيث ملأت أفقَ البحث العلمي نظرياتٌ جادة لاستحداث عدو جديد (بعد انهيار الشيوعية وسقوط الاتحاد السوفياتي وكتلة حلف وارسو) يشكل حافزاً للمحافظة على استمرار تضامن العالم الغربي وتعاضده، ولعل أشهر النظريات تلك التي جاء بها صموئيل هانتغتون[1] والتي وضعت الإسلام على خط التماس مع كل الأديان والحضارات الأخرى المجاورة له.

إن دفاع الإسلام عن نفسه ضد هذه الموجة الاستعدائية الجديدة ينطلق من عمق البيت العربي. فبقدر ما تتعثر تجربة العيش الإسلامي ـ المسيحي تتوفر عناصر التبرير لإدانة الإسلام ولإثبات صحة الزعم بعدم قدرته على التعايش مع غير المسلمين على قدم المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية.

من هنا فإن للإسلام مصلحة إضافية في إنجاح تجربة العيش الإسلامي ـ المسيحي وصيانتها برموش العين.

ثانياً: إشكالية نظرة بعض الحركات الإسلامية إلى المسيحية العربية، والتي تصل أحياناً إلى حدِّ اعتبارها الخندق الأمامي للغرب، والوجه الآخر له

---

(1) Samuel P. Huntington. **Foreign Affairs**, Summer 1993.

بكل ما تختزنه الذاكرة التاريخية للعلاقات مع الغرب من صور الصراعات الدامية والنضال ضد الاستعمار.

وبقدر ما تنجح المسيحية العربية في تأكيد هويتها العربية على النحو الذي يقوم به بنجاح مجلس كنائس الشرق الأوسط، تفقد هذه الحركات حجتها ويسقط منطقها.

لقد أكبرنا موقف الكنيسة الأرثوذكسية العربية التي أدانت الجرائم التي ارتكبها الصرب في البوسنة، وأكبرنا موقف الكنيسة القبطية التي التزمت بموقف من القدس يتقدم على ما عداه من مواقف، وأكبرنا ترفُّع الكنيسة في لبنان عن أن توفر ولو مجرد غطاء لقوى الأمر الواقع التي عاثت فساداً، كلها دون استثناء، طوال سنوات الحرب التي كان لبنان مسرحاً لها وساحة، وأكبرنا الموقف الموحد الذي التزمت به الكنائس العربية في القدس أثناء المحنة الأخيرة التي عصفت بالمدينة المقدسة.

تشكل هذه النماذج الحية من المواقف القومية علامات صحة تؤكد على أصالة الكنيسة العربية، وتبدد كل تشكيك في استقلاليتها عن المسيحية الغربية باستهدافاتها الاقتصادية ـ السياسية لا المسيحية الدينية.

من أجل ذلك لا يجوز ولا يصح أي حوار إسلامي مع الكنيسة الغربية إذا تجاهل هذا الحوار الكنيسة العربية أو إذا قفز من فوقها. فالكنيسة العربية هي الجسر، وهي المدخل، إلى أي حوار وإلى أي تفاهم من هذا النوع. إذ ماذا ينفع العالم العربي إذا كسب الكنيسة الغربية وخسر نفسه؟ من هنا لا بد من إرساء الحوار الإسلامي ـ الغربي على قاعدة؛ والقاعدة هي نجاح تجربة العيش الوطني بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب.

غير أنّ مجتمعاتنا العربية ليست كلها على قدر متساوٍ في تحسسها لمعنى تجربة العيش الإسلامي ـ المسيحي، ولتقدير قيمها الروحية والمعنوية والسياسية حق قدرها؛ ذلك أن بعض هذه المجتمعات غير معتاد على ظاهرة التعدد الديني بسبب طبيعة تركيبته الذاتية. فالمسيحيون في بعض هذه المجتمعات ليسوا فقط أقلية صغيرة ولكن أقلية غير عربية أيضاً، ويشكل المسلمون، في بعضها الآخر، أكثرية مطلقة. ثم إن مشكلة العلاقات الإسلامية ـ المسيحية في العالم العربي ليست بسبب مبادىء الإيمان، إنما بسبب تغييب هذه المبادىء أحياناً، وبسبب سوء توظيفها أحياناً أخرى. وبدلاً

من أن تنعم المجتمعات العربية بتديُّن السياسة، تعاني من تسيُّس الدين. وحده لبنان يشكل مجتمعاً يتساوى فيه المسلمون المسيحيون من حيث العدد، ويعتمد نظاماً يحترم التعددية الدينية ويضمن مراعاة حقوقها، سواء في وثيقة الوفاق الوطني أو في الدستور، أو في التقاليد الدستورية.

ولذلك فإن لبنان يقدم، من خلال تجربته، المثل الذي يحكم على التجربة العربية أو يحكم لها.

تواجه هذه التجربة تحديات من أنواع مختلفة:

أولاً: تناقضها مع الصيغة الإسرائيلية التي تقوم على مقولة الشعب المختار، وهي أسوأ صيغ التطهير العرقي والديني التي تعرفها المجتمعات الإنسانية.

ثانياً: عدم تفهم بعض المجتمعات العربية للمكوّنات الطبيعية للصيغة اللبنانية، وبالتالي عدم التعامل معها بما تستحقه من عناية ورعاية ودعم.

ثالثاً: تقصير ثقافتنا المحلية عن استيعاب القيم الحضارية للتجربة اللبنانية، وتنشئة الأجيال المتعاقبة ليس على الاعتزاز بها كظاهرة إنسانية فريدة ومميزة، ولكن على الخجل منها وكأنها ظاهرة من مظاهر الرجعية والتخلف.

لقد شُغلت طوائفنا بنفسها لدرجة أنها تحتاج اليوم إلى قوة دفع ذاتية لفهم المعطيات الجديدة التي بدأت تتحكم في تكوين عالم اليوم. فنحن، في عيشنا المشترك في لبنان، أو في أية دولة أخرى في وطننا العربي، نسير عكس السير. نحن نسير باتجاه الوفاق والوحدة الوطنيين، وعالم ما بعد الحرب الباردة يسير باتجاه التمزق العرقي والتفتت الطائفي. ففي عام 1969 شهد العالم ثلاثة صراعات دينية فقط، وفي عام 1979 ارتفع العدد إلى تسعة، وارتفع إلى ثلاثة عشر صراعاً في عام 1989، وبين عامي 1990 و1992 وصل عدد الصراعات إلى 23، وقد تواصل معظم هذه الصراعات حتى صدور هذا الكتاب في عام 1998.

والمضحك المبكي، في كل هذه الصراعات الدينية، هو أن أبطالها ورجالاتها لا يمتُّون إلى الدين بصلة. أما نتائجها فتكاد تقتصر على زيادة عدد مقابر الشهداء لتوظيفها في صناعة ذاكرة منهجية تستحضر مشاعر العداء ضد الآخر، والدعوة للثأر والانتقام عندما تدعو الحاجة.

يشكل هذا الواقع **التحدي الرابع** الذي تواجهه تجربتنا، الأمر الذي يفرض علينا مزيداً من الحرص والتنبه لتجنُّب أي انزلاق أو انحراف في مسيرة

الوفاق الوطني، الأمر الذي يتطلّب التعامل بانفتاح ومحبة وتجاوب مع كل شعور بالقلق أو بالخوف من أية جهة أتى. فالاطمئنان يكون ذاتياً أو لا يكون، ومن دون الاطمئنان يبقى الوفاق هشاً فاقداً المناعة الذاتية التي تحميه من النكسات وتصونه من التحديات.

يستطيع المسلم أن يستغني عن المسيحي في ممارسة شعائره الدينية، في توطيد علاقته الروحية بالله، ويستطيع المسيحي أن يستغني عن المسلم بالقدر نفسه، وربما أكثر، ولكن لا يستطيع أي منهما أن يستغني عن الآخر في حياته. إن الحياة كما يقول مارتن بوبر (Martin Buber) ليست سوى اللقاء مع الآخر.

تحتاج العلاقة الإنسانية، حتى تقوم على قاعدة الثقة، إلى رعاية دائمة، وهي عملية شائكة ومعقَّدة لأنها تتعامل مع مشاعر وأحاسيس، ومع آمال وأماني، وعلى العكس من ذلك فإن تغذية الخوف واللاثقة عملية سهلة وبسيطة للغاية، يتراوح سلاحها بين اتباع نهج الغطرسة والاستعلاء والفوقية، ونهج التجاوز والتجاهل.

لا يتحقق الاطمئنان بالدعوة إليه، ولا تقوم الثقة بالإعراب عن حسن النوايا. الاطمئنان والثقة والمحبة هي كالثمار الصنوبرية تحتاج إلى وقت طويل من العمل والجهد ومن الرعاية والعناية. من أجل ذلك، فإذا كنا غير متفقين حول شؤون ما بعد وفاتنا، فلا يوجد أي مانع يحول دون أن نتفق حول شؤون حياتنا ومعاشنا. بالنسبة إلينا، القضية محسومة شرعاً، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾؛ و﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾؛ و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾؛ و﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

إذن ليست هناك مشكلة عقدية، والأَوْلى أن لا تكون هناك مشكلة تعايشية. إنه لخطأ فادح أن نحوِّل اختلافنا العقدي إلى خلاف حياتي. فالاختلاف ليس خلافاً. يمكن للاختلاف أن يقوم مع الاحترام والتفهُّم، ولكن الخلاف لا يولِّد سوى البغضاء ورفض الآخر. نحن نكون معاً أو لا نكون. واللقاء لا يكون أساساً بين حقيقتين متشابهتين. اللقاء يكون بين مختلفَيْن، والحياة تتولد وتتوالد باللقاء؛ وما التلقيح في الطبيعة فكراً أو جسداً، لاهوتاً أو ناسوتاً، سوى نتيجة من نتائج لقاء التكامل والحب بين مختلفَيْن.

المهم أن نعرف ماذا نريد أن نحقق في حواراتنا وفي حياتنا الإسلامية - المسيحية المشتركة، ذلك أنه لا توجد رياح مناسبة لمن لا يعرف إلى أين يتجه.

الفصل السابع

بعد 900 عام من الصراع

في عام 1095، أي قبل أكثر من 900 عام، عقد لقاء ديني موسع في أحد أديرة بلدة صغيرة تقع في جنوبي فرنسا تدعى «كليرمونت»، ألقى، في هذا اللقاء؛ البابا أوربان الثاني، وكان فرنسياً، خطاباً اعتُبِرَ إعلاناً للحروب الصليبية.

استمرت هذه الحروب حتى عام 1291، وسقط خلالها من الضحايا مئات الآلاف، ولحقت بالمسلمين من جرائها أضرار مادية ومعنوية تواصلت قروناً عديدة بعد ذلك.

توجد في متحف هانوفر بألمانيا مخطوطة من القرن السابع عشر تحمل توقيع الفيلسوف الألماني ليبنيز. المخطوطة موجهة إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر تدعوه بإلحاح إلى غزو الشرق، مصر وبلاد الشام. تتضمن المخطوطة ثلاثة إغراءات للقيام بالمهمة:

كان **الإغراء الأول** عبارة عن دراسة ميدانية وصفية لحالة الضعف العسكري والتناحر السياسي التي كانت مستشرية في هذه المنطقة؛ وشمل الوصف كذلك مواقع الحصون والقلاع تسهيلاً لمحاصرتها وإسقاطها (تقرير استخباراتي).

أما **الإغراء الثاني** فكان عبارة عن محاولة لاستنهاض حمية الملك الفرنسي حتى يقوم بالمهمة التاريخية؛ فقد رفعه الفيلسوف الألماني إلى مصاف الإسكندر المقدوني والقيصر الروماني اللذين تمكّنا من السيطرة على الشرق وإخضاعه.

وتمثَّلَ **الإغراء الثالث** في محاولة إثارة العصبية الدينية للملك الفرنسي، عندما دعاه ليبنيز إلى العمل على تحقيق الهدف المقدس من الحروب الصليبية التي انتهت في عام 1270، وهو تحويل الشرق إلى المسيحية وربطه بالغرب مرة جديدة وإلى الأبد.

وفي ذلك الوقت كان الجيش الفرنسي الأقوى في أوروبا، وكان على رأس ألمانيا الملك دوشنبون، الذي كان يمثل حالة ألمانية استثنائية ـ ربما ـ في نزوعه نحو السلام الأوروبي. اعتقد الملك لويس الرابع عشر أن رسالة صديقه الفيلسوف الألماني تستهدف إغراءه لإبعاد الجيش الفرنسي من أوروبا إلى الشرق، ولذلك رفض الاستجابة. لكن هذه المخطوطة التي انتقلت فيما بعد إلى نابليون ربما شكلت أحد العوامل التي أغرته وشجعته على تغيير أولوياته العسكرية من غزو إنكلترا إلى غزو مصر. وهكذا بدلاً من أن يُسقط نابليون إنكلترا، لحقت به إنكلترا حتى مصر حيث وجهت إليه، في أبو قير، الضربة التي عجّلت بسقوطه فيما بعد في معركة واترلو.

في عام 1917، عندما دخل الجنرال البريطاني اللنبي مدينة القدس بعد الحرب العالمية الأولى، أعلن بتبجح: «الآن انتهت الحروب الصليبية». وكان الجنرال الفرنسي غورو أشد غطرسة وتعصُّباً، عندما دخل مدينة دمشق بعد معركة ميسلون في عام 1920، إذ رفس برجله ضريح صلاح الدين الأيوبي وهو يردد: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

لا شك في أن أكثر من تسعة قرون من العداء بين الإسلام والغرب (المسيحي) تعود إلى تلك الشرارة التي أطلقها أوربان الثاني من كليرمونت في جنوبي فرنسا.

الآن يشهد العالم، في شرقه وفي غربه على حد سواء، محاولات لتصحيح التاريخ:

فاليابان اعتذرت علناً للصين بسبب المجازر التي ارتكبتها طوال فترة الحروب اليابانية ـ الصينية قبل الحرب العالمية وخلالها. وعندما قام الأمبراطور الياباني بزيارة بكين في أكتوبر 1992، ردد علناً هذا الاعتذار مبدياً استعداد بلاده للتعويض على الصين من خلال تمويل عدد من مشاريع التنمية الضخمة التي تقوم بها.

واعتذرت اليابان أيضاً لدول أخرى في جنوبي شرقي آسيا، وخاصة للصين، وكذلك للفليبين ولكوريا، بسبب استخدام نساء فيليبينيات وكوريّات خلال الحرب العالمية الثانية للترفيه جنسياً عن الجنود اليابانيين، وتعهدت بالتعويض على عائلات آلاف النسوة بمبالغ مالية كبيرة.

واعتذرت الولايات المتحدة لمواطنيها، الذين يتحدرون من أصل ياباني، بسبب سوء معاملتهم إثر الهجوم الياباني على بيرل هاربور في عام 1941. فقد تصرّفت السلطات الأميركية، في ذلك الوقت، على أساس أن كل أميركي من أصل ياباني يمكن أن يكون خائناً للولايات المتحدة. وعلى أساس هذا الاتهام الجماعي، جُمعوا في معسكرات اعتقال إلى أن انتهت الحرب!!. وبسبب ما لحق بهؤلاء من معاناة نفسية ومعنوية ومادية فقد اعتذرت إليهم حكومة الولايات المتحدة وعوضت عليهم. وتطرح في الوقت الحاضر قضية الاعتذار إلى الأميركيين الذين يتحدّرون من أصول أفريقية بسبب الاضطهاد والتمييز العنصري اللذين تعرضوا لهما لأجيال عديدة، كما تطرح إمكانية التعويض عليهم من خلال عدد من مشاريع التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

واعتذرت روسيا لليابان بسبب الوحشية التي استخدمت في معاملة الأسرى اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية. فالروس قتلوا جميع الأسرى في الجبهة الشرقية، الأمر الذي يتناقض مع المواثيق الدولية التي تحدد كيفية التعامل مع أسرى الحرب. وكان الاعتذار الروسي مدخلاً لإعادة النظر في مصير الجزر اليابانية التي احتلتها روسيا في المرحلة الأخيرة من الحرب.

واعتذرت ألمانيا للعالم من الجرائم التي ارتكبتها النازية ـ الهتلرية، وخصت بالاعتذار اليهود الذين قدمت لهم تعويضات مالية ضخمة كان لها أثر كبير في بناء الاقتصاد الإسرائيلي.

حتى الفاتيكان اعتذر عن خطأ ارتكبه في عام 1633، عندما كفّر العالم الإيطالي الشهير غاليليو لقوله بكروية الأرض. فقد صدرت عن الفاتيكان في عام 1992 وثيقة تبرىء غاليليو من تهمة الكفر وتمنحه البراءة المسيحية.

وكان الفاتيكان قد اعتذر قبل حوالي ثلاثين عاماً من اليهود بسبب إدانتهم بجريمة صلب السيد المسيح، وهو حكم كنسي صدر في عام 1581 عن البابا غريغوري الثالث عشر.

ثم اعتذر لهم ثانية في العام 1993 بسبب سكوته على المجازر التي ارتكبتها النازية، حتى إن البابا يوحنا بولس الثاني وافق على وقف بناء دير كاثوليكي قرب معسكر أوشفيتز في بولندا لأن اليهود اعتبروا بناء الدير هناك إجراءً مدنساً لأرواح اليهود الذين قتلوا في المعسكر!! وفي عام 1997، اعتذرت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية لليهود وبموافقة من البابا نفسه، لدورها السلبي إزاء الاعتقالات التي تعرض لها اليهود الفرنسيون أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا.

ولم يتردد الفاتيكان في الاعتذار إلى الشعوب الأصلية في دول أميركا اللاتينية، التي تعرضت للاضطهاد وأعمال السخرة، وحتى إلى الإبادة، خلال الحملات الاستعمارية البرتغالية والأسبانية، وذلك لأن تلك الحملات جرت تحت شعار التبشير بالكاثوليكية.

استهدفت كل هذه الاعتذارات تبرئة الذمة من أحداث جرمية ماضية بهدف تصحيح مسيرة التاريخ، كما استهدفت إعادة الاعتبار إلى شعوب عديدة بهدف مد جسور جديدة من التعاون معها. ولكن العالم الإسلامي وحده استُثْنِيَ من هذه العملية التصحيحية الجديدة. بل إن ما يجري اليوم يقدِّم مؤشرات إضافية إلى استمرار عملية الاستعداء، وكأن الحرب الصليبية لم تنتهِ، أو كأن أصحابها لا يريدون أن يضعوا حداً لها. فالصرب خاضوا حرب إبادة ضد المسلمين في البوسنة والهرسك تحت شعارات صليبية جديدة، وخاض الروس حرباً مماثلة ضد المسلمين في الشيشان بهدف تطويع بقية الشعوب الإسلامية في القوقاز، وأعلن حلف شمال الأطلسي، باسم أمينه العام الأسبق ويلي كلايس البلجيكي، الحرب على الإسلام من بوابة مكافحة الإرهاب والتطرف الديني المتمثل في الحركات الأصولية، والتنظير لإعلان هذه الحرب صدر ويصدر عن مؤسسات للدراسات والأبحاث الاستراتيجية في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

تستمر هذه الروح العدائية ضد الإسلام في الوقت الذي تعلو الاعتذارات التسامحية مع الآخرين، وذلك لأكثر من سبب أساسي وجوهري. فاليابان مثلاً حُملت على إعادة النظر في برامجها التربوية بحيث تمكن الشعب الياباني من إدراك طبيعة الجرائم التي ارتكبت باسمه، وأصبح بالتالي مؤهلاً للاعتذار، وحدث نفس الشيء مع ألمانيا التي فرضت حظراً على نشاط الحركات النازية

الجديدة. أما فيما يتعلق بمشاعر العداء الغربية تجاه الإسلام، وخاصة في فرنسا وبريطانيا، فلم يجر سوى القليل جداً للتخفيف منها، بل لعله لم يجرِ شيء على الإطلاق. ففي ألمانيا مثلاً لا تزال الكتب المدرسية تحمل صوراً وأفكاراً همجية عن الإسلام وأهله، وفي فرنسا فإن لقاء موسعاً يعقد يوم 26 ديسمبر من كل عام في الباحة نفسها من دير بلدة كليرمونت في جنوبي فرنسا يعاد فيها إلقاء خطبة البابا أوربان الثاني التي ألقاها قبل أكثر من 900 عام!!..

سواء اتخذ البابا، في ذلك الوقت، مبادرته تلك بهدف إلغاء المسيحية الشرقية (الكرسي الأنطاكي) وضمها إلى روما (خاصة بعد زيارة الكاردينال هامبرتو إلى القسطنطينية في عام 1054، حيث وقع الانشقاق الكبير بين الكنسيتين)، وسواء اتخذ تلك المبادرة للوقوف في وجه التقدم الإسلامي السلجوقي الذي بدأ بالتوسع في آسيا الوسطى، فإن الحرب على الإسلام أُعلنت تحت شعار تحرير مهد المسيح من أيدى المسلمين، مع أن المقدسات المسيحية لم تكن تواجه أي خطر أو أي اعتداء من المسلمين، لأنها مواقع مقدسة في نظر الإسلام نفسه (بدليل المبادرة التاريخية التي اتخذها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لدى دخوله القدس بعد الفتح العربي، وعلى النحو الذي ورد في الوثيقة العمرية الشهيرة).

لقد توفرت للفاتيكان، في العهد الحالي وفي عهد سابق، الجرأة الأدبية ليس فقط لتبرئة اليهود، ولإدانة النازية، بل حتى للاعتذار عن التقصير البابوي في إدانة الجرائم النازية التي ارتكبت بحق اليهود (وهي على أي حال جرائم مبالغ فيها كثيراً، ولكن يمنع، بموجب نصوص قانونية، مجرد الإشارة إلى ذلك)، فقد نُشرت، في 27 أيار - مايو 1994، وثيقة أعدها، بمعرفة الفاتيكان، أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الألمانية والكنيسة الكاثوليكية البولونية. تقول الوثيقة: «إن مزيجاً مخيفاً من العداء الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعنصري تجاه اليهود شكّل الأرضية لحصول المحرقة، ولم تحرك الكنيسة ساكناً لوقف اضطهاد اليهود وإبادتهم على أيدي النازيين (..) إن التقاليد اللاهوتية للكنيسة المعادية لليهود شكلت عنصراً مهماً أدى إلى المحرقة. فالكنيسة والدين المسيحي ساهما في إيجاد أجواء من اللامبالاة، لا بل من العداء للشعب والدين اليهوديين مهدت الطريق لمعاداة السامية العصرية».

ولكن لماذا لم تتوفر بعد جرأة مماثلة لإدانة الجرائم الصليبية التي

تواصلت بصيغ مختلفة منذ بيان البابا أوربان الثاني في «كليرمونت» في كانون الأول ـ ديسمبر 1095 حتى اليوم، مروراً بوعد بلفور. . ثم بمخطط سايكس ـ بيكو 1916؟

في حزيران ـ يونيو من عام 1994 انتهت مهمة الجنرال جون كالفان، القائد الأعلى لقوات حلف شمال الأطلسي. وفي الاحتفال التكريمي الذي أقيم له في بروكسل، ألقى كلمة تحدث فيها عن الآفاق المستقبلية للحلف ولدوره. تستوقفنا من كلمته العبارة الآتية: «لقد ربحنا الحرب الباردة، وها نحن نعود بعد 70 عاماً من الصراعات الضالة إلى محور الصراع القائم منذ 1300 سنة. إنه صراع المجابهة الكبيرة مع الإسلام».

تاريخياً، بدأت الخطوة الأولى في مسيرة التباعد بين الإسلام والغرب بموقف كل منهما من الحضارة اليونانية. رفض المسلمون الأخذ بالنظريات الفلسفية لهذه الحضارة في الفقه الشرعي، بينما تسلَّل بعض مبادىء هذه النظريات في اللاهوت المسيحي.

أدى هذا التباين (مع الموروث الثقافي، ومع التقاليد الاجتماعية المختلفة التي تراكمت عبر الأجيال) إلى اتساع الهوة بين الأسس التنظيمية لكل من المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي، كما أدى إلى التباعد في أولويات سلُم القيم الأخلاقية في كل منهما.

عندما نشطت حركة الاستشراق، منذ أواخر القرن الثامن عشر، انصبَّ الاهتمام الغربي على دراسة اللغة والعادات والتقاليد، وعلى دور الإسلام في تكوين هذه العادات والتقاليد لتوظيف هذه الدراسات، من ثَمَّ، في فهم المكوِّنات العميقة للشخصية العربية تسهيلاً لعملية السيطرة عليها. ويعترف مكسيم رودنسون هنا بأن الفكر الغربي بدأ ينظر إلى الإسلام كمصدر للوهم والخطأ، وأنه داخل هذه النظرة تبلورت المواقف التي تعتبر الإسلام ديناً غير متسامح عند مقارنته بالمسيحية.

مرَّ حوالي الألف عام من الصراعات بين الإسلام والغرب، تركت هذه الصراعات آثاراً عميقة في الذاكرة التاريخية لكل منهما، يغذيها باستمرار التراث الثقافي المكتنز بصور الاستعداء ومشاعر الكراهية. إن دول الغرب المطلة على البحر المتوسط، والتي أُخضِعَت كلياً أو جزئياً للإسلام (اليونان،

البرتغال، أسبانيا، إيطاليا)، لا تزال حتى اليوم تقيم احتفالات سنوية في ذكرى انتصارها على الإسلام، أما بقية الدول الأوروبية (ألمانيا وفرنسا وبريطانيا) فإنها تستخدم الجاليات الإسلامية العربية والهندية والأفريقية للتعبير عن مشاعرها الموروثة.

في كتابه «صناعة القبول»، يقول المفكر الأميركي ناعوم تشومسكي إن الحاجة إلى صناعة العدو تزايدت عند الولايات المتحدة في العقود الثلاثة الأخيرة، إذ أنه في أعقاب كل 60 سنة تقريباً لا بد وأن يعمل الغرب على تشييد صورة وهمية لعدو من نوع جديد كي يبرر دفاعه عن نفسه... ويقول تشومسكي إن روسيا أو الشيوعية كانت ذلك «الوحش» في أثناء «الحرب الباردة»، والعدو اليوم هو العرب أو الإسلام، وإن القيام بعملية تخويفية أمر مهم من أجل إشغال الناس وتجميعهم لا حول أنفسهم ـ وقد همشهم الإعلام ـ لكن حول الدولة للحصول على الثقة و«القبول»، وحتى تتمكن الدولة من إخماد أصوات الشكوى عن طريق توحيد الصفوف الشعبية ضد «عدو أسطوري»، وتعليق كل المشاكل الداخلية من ارتفاع نسبة الجرائم وتدني خدمات الصحة والتعليم على عاتقه.

يرسم مونتغمري وات (أحد المستشرقين الأعلام) صورة للإسلام، كما يراها في الفكر الغربي. تحدد معالم هذه الصورة المعتقدات التالية:

1 ـ أن الإسلام دين مزوَّر، وأنه تحوير متعمد عن الحقيقة الدينية كما جاءت بها المسيحية.

2 ـ أن انتشار الإسلام جرى بحدِّ السيف.

3 ـ أن الإسلام هو دين الدفاع عن الشهوانية.

4 ـ أن محمداً ﷺ هو عدوُّ المسيح.

ثمة شعور، في العالم الإسلامي، بأن العلاقات مع العالم الغربي تمر في مرحلة التأسيس لصراع عقائدي ـ حضاري يستهدف إلغاء الآخر، وأن الآخر، المستهدف بالإلغاء وبالاستعداء، هو الإسلام.

تتغذى عملية التأسيس هذه من ثلاثة ينابيع أساسية:

الينبوع الأول هو الذاكرة التاريخية الغربية الحافلة بصور العداء التشويهية

للإسلام، وهي صور تعكس إصرار الغرب، كما تقول الكاتبة الألمانية زيجرد هونكة في كتابها الجديد «الله ليس كذلك»، «على دفن حقيقة الإسلام في مقبرة الأحكام التعسفية طمساً لمعالمه». وتحذر الكاتبة، في كتابيها الآخرين «شمس الله تسطع على الغرب» (1960) و«قوافل عربية في رحاب القيصر» (1976)، من «أن هذا التصوير المشوه والممسوخ المتوارث منذ القرون الوسطى، يحوِّل عملية الاستعداء والاستكراه إلى حالة مرضية يرزح الغرب تحت كابوسها الخانق». ويعترف الكاتب البريطاني أرسكين تشيلدز، في كتابه «الغرب والإسلام هتك الذاكرة»، أن الغرب لم يحاول أبداً فهم الإسلام في أي وقت من الأوقات، وأنه ظلَّ دائماً رافضاً ومعادياً له، ولذلك بقيت صورة الإسلام مشوهة بصورة مطلقة في الوجدان الأوروبي. ويقول الباحث السويسري روجيه دوباسكويه، في كتابه «إظهار الإسلام»، إن الغرب سواء كان مسيحياً أو لم يكن، فإنه لم يعرف الإسلام على الإطلاق، ومنذ أن واجه الغرب انتشار الإسلام كدين سماوي لم يتوقف عن تحقيره وتشويهه من أجل إيجاد مبررات لاستعدائه ومحاربته، فعرَّض الإسلام إلى تحريفات مازالت آثارها مغروسة في العقل الأوروبي حتى الآن. فالإسلام، بالنسبة للكثير من الأوروبيين، هو: تعصُّب، جبرية، تعدد زوجات. ويحمِّل دوباسكويه، في كتابه، المستشرقين المسؤولية الأولى عن هذه الصورة المشوهة عن الإسلام، ويذهب إلى تجريد الدراسات الاستشراقية من التجرُّد العلمي، وهو يعزو ذلك إلى تأثير الشعور بالعنفوان الاستعماري الذي لم يتمكن المستشرقون من عزله عن دراساتهم وأبحاثهم.

الينبوع الثاني، هو رد الفعل العنفي الذي تستدرج إليه حركات إسلامية في بعض الدول العربية والإسلامية، وحتى في بعض الدول الغربية.

أما **الينبوع الثالث**، فهو استنفار الإعلام الغربي لتوظيف ردِّ الفعل هذا في عملية شحن المجتمعات الغربية بمشاعر العداء، بحيث تتقبل ـ هذه المجتمعات ـ مسؤوليات المواجهة مع العالم الإسلامي على أنها شرٌّ لا بد منه.

تصب هذه الينابيع الثلاثة في مجرى واحد، يتسع، مع الوقت، حتى ليبدو وكأنه قادر على جرف كل ما يعترضه من منطق وعقلانية ومصالح مشتركة.

يقف الإسلام والغرب في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وسقوط الشيوعية، أمام مفترق طرق. الحضارة الغربية تتصرف من منطلق الغلبة؛ ومن هنا جاءت نظرية فوكوياما باعتبار انتصار الليبرالية الغربية بمثابة نهاية للتاريخ. ستحاول الحضارات الإنسانية الأخرى التأقلم واستيعاب المتغيرات المستجدة. وحده الإسلام الذي أراده الله رسالة للعالمين، والذي يرفض التدجين أو الذوبان أو الاستيعاب، سيقف مدافعاً عن نفسه وعن رسالته في وجه هذا التفلُّت العلماني بمضمونه الإلغائي لكل ما يختلف معه ويتمايز عنه.

فالإسلام والغرب العلماني لا المسيحي يمثلان فلسفتين ومنطقين مختلفين لفهم العالم وللتعامل معه. الإسلام بجوهره مبني على العقيدة، والغرب بعلمانيته مبني على المادية. الغرب يهمل الإيمان بالله وبالغيب جملة وتفصيلاً، فيما يشكل هذا الإيمان العمود الفقري للإسلام (وللمسيحية).

يتطلع الغرب إلى تعميم قيمه ومفاهيمه للعدالة ولحقوق الإنسان كما يتطلع إلى تعميم قيمه الأخلاقية بين شعوب العالم جميعها من دون أن يعرض نفسه، مرة جديدة، لتهمة الاستعمار، كما حدث في القرن الماضي، وفي مطالع القرن الحالي.

ويتطلع الإسلام (العالم الإسلامي) إلى المحافظة على روح الإيمان، وعلى التمسك بالقيم الأخلاقية وبالنظم الاجتماعية التي نصت عليها الشريعة الإلهية، وهذا يعني أنه في عالم بدأت تسوده بقوة الغلبةِ حضارةٌ واحدة، ينتصب الإسلام رافضاً الاستسلام لهذه السيادة.

هنا، يجد الإسلام نفسه في خندق واحد مع المسيحية، حتى إن الفاتيكان في معركة القيم التي خاضها في مؤتمر السكان والتنمية، الذي عُقد في القاهرة في عام 1995، تحالَف مع الإسلام ضد الولايات المتحدة نفسها من أجل منع إقرار تشريع دولي يبيح الإجهاض كأداة للحدّ من زيادة عدد السكان.

يصل التباين بين الإسلام والغرب إلى نقطة اللاإلتقاء عندما يعتبر الغرب أن نجاحه وتفوقه هو ثمرة أخذه بالرأسمالية وبالعلمنة، وعندما يعتبر، في الوقت نفسه، أن فشل العالم الإسلامي وسقوطه (كما يقول المستشرق أرنست رينان في كتابه «الماركسية والعالم الإسلامي» ص97 ـ 98) هو ثمرة التزامه

بالدين. أما العالم الإسلامي فإنه يعزو تفوق الغرب إلى ممارسة الاستعمار النهبي، ويعزو تأخر الشعوب الإسلامية إلى ما تعرضت له من استعمار وابتزاز، وإلى ما واجهته من محاولات استهدفت، ولم تزل، مسخ شخصيتها الدينية واستلحاقها بمراكز قوى معادية لها بدءاً بهولاكو، فالفرنجة الصليبيين، فتيمورلنك وانتهاء بالغرب (البرتغال - أسبانيا - فرنسا - إيطاليا - بريطانيا وحديثاً أميركا). ولم تكن حرب الخليج التي جرت في عام 1990 سوى صورة متجددة للحرب التي شنّها الغرب على العالم العربي في العصر الحديث. فعلى الرغم من أن غزو الكويت جريمة قومية بكل المقاييس، فقد عرف الغرب كيف يستخدم تلك الجريمة لأهداف بعيدة تتعدى موضوع الدفاع عن الشرعية الدولية التي يدّعيها.

إذا كان ذلك كله يعني حتمية الاختلاف بين الغرب والإسلام، فإنه لا يعني بالضرورة حتمية الخلاف. فالتعايش بينهما يمكن أن يتحقق مع الاختلاف شرط أن لا يعمل أي منهما على إلغاء الآخر بالقهر والإذعان. إن سلام العالم يتعزز بتفاهم الغرب والإسلام وليس بتصارعهما، ولكن في الوقت الذي نلاحظ فيه أن الغرب يعدُّ الدراسات والمخططات والبرامج استعداداً لأي من الاحتمالين - أي احتمال التفاهم أو احتمال الصراع - فإننا لا نجد في العالم الإسلامي (من أندونيسيا حتى المغرب) أي جهد إبداعي يتعدى حدود الانتظار أو مجرد ردات الفعل العابرة.

ربما يكون البابا الحالي يوحنا بولس الثاني أكثر باباوات روما استعداداً لاتخاذ خطوة جريئة تطوي صفحة ألف سنة من العداء مع الإسلام، فمنذ وصوله إلى كرسي البابوية، في صيف 1978، وهو يقوم بمبادرة تلو المبادرة في إطار إعادة رسم خريطة العلاقات الدولية على قواعد روحية وأخلاقية جديدة. فمبادرته الشهيرة في كراكوف ببولونيا (حيث كان أسقفاً للمدينة)، في عام 1979، تطورت إلى إسقاط الشيوعية في بولونيا، ومن ثم في الاتحاد السوفياتي وفي بقية أوروبا الشرقية، ومبادرته نحو الشباب في الولايات المتحدة، أثناء زيارته لها في عام 1993، لا تزال تتفاعل حتى الآن، ومن معالمها تصاعد الحملة ضد إباحة الإجهاض، وتحديد النسل.

صحيح أن البابا لا يملك «فرقاً عسكرية»، كما تهكّم ستالين في الخمسينات من هذا القرن، إلا أنه يملك قوة روحية ومعنوية كبيرة تبدو آثارها

واضحة من خلال نتائج الجولات التي يقوم بها في العالم (800 ألف كيلومتر حتى الآن) رغم تقدمه في السن، ورغم اعتلال صحته منذ محاولة اغتياله في عام 1981 على يد التركي علي أقجا الذي يقضي عقوبة السجن في روما حتى اليوم.

في القرن الثالث قبل الميلاد قال أرخميدس مكتشف الرافعة: «أعطني مكاناً أقف عليه فأحرك الأرض». إذا استطاع البابا يوحنا بولس الثاني أن يجد، في مسيرة العلاقات بين الإسلام والغرب (المسيحي)، مكاناً يقف عليه، فإنه يستطيع، وقد وهن العظم منه، أن يتكىء على عصاه ليحرك الأرضية التي تقوم عليها هذه العلاقات بمبادرة جريئة تنصف الإسلام، وترفع عن أهله الظلم الذي نزل بهم طوال القرون التسعة الماضية!!..

البعد الإسرائيلي

يمكن اعتبار اتفاق الثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) 1993، بين الفاتيكان وإسرائيل، عنواناً جديداً لمرحلة جديدة من مراحل علاقات الفاتيكان بالعالم العربي خاصة وبالإسلام عامة.

مرّت علاقات الفاتيكان بالوطن العربي في عدة مراحل يمكن الاجتهاد في تحديدها على الشكل الآتي:

أولاً ـ مرحلة ما قبل وعد بلفور:

في عام 1581 أصدر البابا غريغوري الثالث عشر حكماً بإدانة اليهود نص على: «إن خطيئة الشعب الذي رفض المسيح وعذبه تزداد جيلاً بعد جيل، وتحكم على كل فرد من أفراده بالعبودية الدائمة». التزم الباباوات الذين تعاقبوا من بعده هذا الموقف، وفي الأول من أيار ـ مايو 1897، عشية المؤتمر الصهيوني الأول، صدر عن الفاتيكان بيان جاء فيه:

«لقد مر حوالي ألف وتسعماية وثلاثون سنة على تحقيق نبوءة المسيح، بأن القدس سوف تدمر.. أما فيما يتعلق بإعادة بناء القدس بحيث تصبح مركزاً لدولة إسرائيلية يعاد تكوينها، فيتحتم علينا أن نضيف أن ذلك يتناقض مع نبوءات المسيح نفسه، الذي أخبرنا مسبقاً بأن القدس سوف تدوسها العامة (جنتيل) حتى نهاية زمن العامة (لوقا 21/ 24)، أي حتى نهاية الزمن».

وبعد سبع سنوات على إعلان هذا الموقف، وجه البابا بيوس العاشر

رسالة جوابية إلى ثيودور هرتزل مؤسسة الحركة الصهيونية قال فيها:

«لا نستطيع أبداً أن نتعاطف مع هذه الحركة ـ الصهيونية ـ نحن لا نستطيع أن نمنع اليهود من التوجه إلى القدس، ولكننا لا يمكن أبداً أن نقره. إنني بصفتي قيّماً على الكنيسة لا أستطيع أن أجيبك بشكل آخر. لم يعترف اليهود بسيدنا، ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودي، وبالتالي، فإذا جئتم إلى فلسطين وأقام شعبكم هناك، فإننا سنكون مستعدين، كنائس ورهباناً، لتعميدكم جميعاً».

وعندما استقبل البابا بيوس العاشر، في عام 1904، ثيودور هرتزل أبلغه رفضه إقامة وطن لليهود في فلسطين لأن إقامة وطن يهودي يتناقض مع المعتقد الديني المسيحي.

يتبين من ذلك أن الالتزام الديني الكاثوليكي هو الذي كان يملي موقف الفاتيكان السياسي، وبالتالي فإن العقيدة الدينية المسيحية كانت تشكل في ذاتها حاجزاً في وجه الحركة الصهيونية يتعذر اجتيازه. لقد تمكن الفاتيكان من أن يؤثر بصورة أساسية على مواقف الدول الكاثوليكية في العالم (فرنسا ـ أسبانيا ـ البرتغال ـ أميركا اللاتينية) التي التزمت بالبعد الديني لموقف الفاتيكان، وإن كانت أعطت هذا الالتزام طابعاً سياسياً أحياناً أو إنسانياً أحياناً أخرى، والاثنين معاً في معظم الأحيان.

ثانياً ـ مرحلة ما بعد صدور وعد بلفور حتى قيام إسرائيل:

عارض الفاتيكان وعد بلفور منذ صدوره. تمثلت أول ترجمة لهذه المعارضة في استقبال البابا للبعثة العربية الفلسطينية التي زارت الفاتيكان في عام 1921، ثم في تبني رفض منح اليهود أي وضع مميز في فلسطين، وذلك من خلال رسالة الكاردينال غاسباري (15 أيار ـ مايو 1922). تميز موقف الفاتيكان، خلال هذه الفترة، بدعم وتشجيع المسيحيين العرب على المشاركة في النضال الوطني العربي ضد الحركة الصهيونية. عكست الحركة الوطنية في عام 1918 هذه المشاركة في أجلى معانيها، ثم تغلغلت المشاركة المسيحية الوطنية في الأحزاب السياسية العربية، وأعطت زخماً قوياً للمؤتمرات الإسلامية ـ المسيحية التي انطلقت من قاعدتين قويتين:

1 ـ الرفض الإسلامي ـ المسيحي للصهيونية.

2 ـ الخوف الإسلامي ـ المسيحي من الهيمنة اليهودية على الأماكن المقدسة في القدس والخاصة بالديانتين الإسلامية والمسيحية.

لم يُترجم العداء الإسلامي ـ المسيحي للحركة الصهيونية، ولمشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين، إلى استراتيجية للتعاون الإسلامي ـ المسيحي، وأعتبر أن فرصة تاريخية كبيرة ضاعت من دون أن تتلقفها مبادرة ذات رؤيا مستقبلية تبني على هذا العداء المشترك قاعدة تفاهم إسلامي ـ مسيحي، عربي ودولي يقف في وجه التطلعات والمشاريع الصهيونية في فلسطين والمنطقة.

بقي الرفض الإسلامي للمشروع اليهودي، وبقي الرفض المسيحي لهذا المشروع مجرد حالتين سلبيتين منفصلتين لم تصنعا حالة إيجابية موحدة.

وعندما بدأت مرحلة التراجع في الموقف الفاتيكاني، في المراحل التي ستلي، لم تكن هناك هيكلية فكرية أو عقدية تحصن هذا الموقف وتدافع عنه، أو توفر له عناصر المناعة الذاتية. اتسمت ظاهرة التراجع بأمرين أساسيين:

الأمر الأول: أن نفوذ الولايات المتحدة، وبالتالي ضغطها السياسي والاقتصادي على الدول الكاثوليكية، أصبح أشد فعالية من التأثير الروحي الفاتيكاني. لعبت في هذا التحول مصالح وحسابات وأوضاع وظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية.

الأمر الثاني: لم يكن الفاتيكان نفسه بمنأى عن هذه الضغوط الأميركية.

مع ذلك رفض الفاتيكان التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة في 29 تشرين الثاني ـ نوفمبر 1947، وتبنَّى مشروع الوسيط الدولي الكونت برنادوت، الذي اغتالته منظمة إرهابية صهيونية بقيادة إسحاق شامير في أحد شوارع القدس.

واجه الفاتيكان في عام 1948 أول تحدٍّ مباشر للمسيحية في فلسطين عندما أضطر الفلسطينيون المسيحيون إلى الهجرة مع إخوانهم الفلسطينيين المسلمين، وارتفعت منذ ذلك الوقت في أفق الفاتيكان علامة الاستفهام الكبيرة: كيف يكون بيت المسيح من دون مسيحيين؟ لا شك في أن ذلك كان همَّ المسيحية الأرثوذكسية أيضاً وبشكل أشد حدة، إلا أن معالجة هذا الأمر هو خارج إطار هذا الموضوع.

ثالثاً ـ مرحلة ما بعد قيام إسرائيل حتى حرب حزيران (يونيو) 1967:

لم يعترف الفاتيكان بإسرائيل، ولكنه طالب بتطبيق قرارات الأمم المتحدة التي صدرت مباشرة بعدقيامها، أي انطلاقاً من قيامها من عام 1948 حتى عام 1950، أي حتى صدور القرار الثلاثي الأميركي، الفرنسي، البريطاني بالدفاع عن وجود وأمن وسلامة إسرائيل.

انتقل الفاتيكان بذلك من الرفض المبدئي المبني على عقيدة دينية، إلى التعامل مع الواقع المبني على معطيات سياسية. هذا التحول فتح الباب أمام البابا بيوس السادس للقيام بزيارة حج إلى القدس في كانون الثاني ـ يناير 1965، وهي الزيارة التي وإن كان من أهدافها تشجيع المسيحيين على البقاء في مدن بيت لحم والناصرة والقدس والجليل... إلا أنها تجاوزت واقعياً الحاجز الديني الذي أقامه الباباوات السابقون برفض مبدأ الكيان الديني اليهودي في فلسطين.

إن تبدد الفرصة التاريخية بإرساء قاعدة لتفاهم إسلامي ـ كاثوليكي ضد الحركة الصهيونية، وبالتالي ضد إسرائيل، وفَّر ـ فيما بعد ـ فرصة تاريخية باتجاه عكسي تلقفتها الحركة الصهيونية وإسرائيل معاً لإرساء قاعدة تفاهم يهودي ـ كاثوليكي قامت على الأمور الآتية:

1 ـ الاعتراف المسيحي بأن المسيح كان يهودياً.

2 ـ التنديد الفاتيكاني باللاسامية وبالاضطهاد النازي لليهود (وقد تمثل ذلك في الاحتفال الذي أقامه الفاتيكان، للمرة الأولى، يوم الخميس 7 نيسان ـ أبريل 1994، إحياء لما تطلق عليه إسرائيل اسم ذكرى الكارثة والبطولة).

3 ـ وضع حد للقطيعة الدينية بين اليهودية والكاثوليكية، وفتح صفحة جديدة بينهما عنوانها الإرث المسيحي ـ اليهودي المشترك.

عززت، بل ربما دفعت الأمور في هذا الاتجاه، الولايات المتحدة سياسياً ودينياً معاً، وذلك من خلال الكنيسة الإنجيلية التي تؤمن بالعودة الثانية للمسيح، وبشروط هذه العودة، وأهمها قيام صهيون من جديد (راجع كتاب الصهيونية المسيحية ـ دار النفائس).

عندما عُقد المجمع الديني الفاتيكاني الثاني في عام 1965، والذي خُصص لبحث العلاقة مع الأديان، حدث، ربما لأول مرة، صدام داخل

الفاتيكان بين الكنائس الكاثوليكية العربية والغربية. فقد عارض المسيحيون العرب الاعتراف الديني باليهودية، تجنباً لأي تفسير يوحي بقبول أي بعد ديني لعلاقة اليهود بأرض فلسطين. غير أن وثيقة المجمع، التي نشرت في تشرين الثاني ـ نوفمبر 1965، لم تأخذ بهذا التحفظ العربي لأنها استبعدت من الأساس مثل هذا التفسير.

كان يمكن للوثيقة أن ترسي قاعدة تفاهم يهودي ـ كاثوليكي لولا قيام إسرائيل في عام 1967 بشن حربها التوسعية على مصر وسوريا والأردن، مما مكّنها من احتلال مرتفعات الجولان السورية وصحراء سيناء، وغزة والضفة الغربية بما فيها مدينة القدس.

إن وقوع المدينة المقدسة (التي كان الفاتيكان يطالب بوضع خاص لها) في القبضة اليهودية، كبح حركة البناء الكاثوليكي ـ اليهودي المشترك، وأعاد فتح الطريق أمام إمكانية قيام تفاهم إسلامي ـ كاثوليكي مشترك، تمثل ذلك في مبادرات فاتيكانية منها تعيين بطريرك كاثوليكي عربي على القدس، ومنها حماية المطران هيلاريون كبوجي، مطران القدس الكاثوليكي، بعد اتهامه بتهريب الأسلحة إلى المقاومة الفلسطينية. ولكن ضيق أفق الرؤيا لدى بعض الدول العربية، التي أذهلتها فداحة الهزيمة العسكرية، حال دون تلقف هذه الفرصة الجديدة.

استخدم احتلال القدس في عام 1967، بعد استخدام قيام إسرائيل في عام 1948، مصداقاً للحركة الإنجيلية المتصهينة في الولايات المتحدة التي تقوم على تركيب نبوءات توراتية تبني عليها عقيدتها الدينية. عززت إسرائيل من تحالفها مع هذه الحركة الدينية المسيَّسة ذات النفوذ القوي إعلامياً ومالياً، واستخدمت ذلك لزيادة الضغط على الفاتيكان على أمل دفعه خطوات أخرى إلى الوراء.

وهكذا لم يعد الفاتيكان يستند، في موقفه من القضية الفلسطينية، على البعد الديني، بل أصبح يستند على البعد الإنساني؛ ترجم ذلك البيان الذي صدر في عام 1974، والذي لم يرفض لأول مرة إنشاء دولة يهودية من حيث المبدأ وإن كان دعا، في الوقت نفسه، إلى وجوب التعامل مع القضية الفلسطينية على قاعدة شعب له حقوق في وطنه، وليس على قاعدة معالجة مأساة اللاجئين فقط.

رابعاً ـ مرحلة الحرب اللبنانية (1975 ـ 1989):

ربما يكون المؤتمر الراعوي (السينودس)، الذي عُقد في الفاتيكان في شهر كانون الأول ـ ديسمبر 1994، بدعوة من البابا يوحنا بولس الثاني، تعبيراً عن اهتمام الفاتيكان بلبنان، ليس فقط كدولة، إنما بلبنان كرسالة، وقد تكرّس هذا الاهتمام في الزيارة التي قام بها البابا إلى لبنان في شهر أيار ـ مايو 1997، وإعلان وثيقة الإرشاد الرسولي حول نتائج أعمال السينودس.

رغم إرادة اللبنانيين، اتخذت الحرب في لبنان، في مرحلة من مراحلها المتعددة، بعداً طائفياً، واستغلت لتصفية حسابات إقليمية وحتى دولية، وكادت صيغة العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين تنهار تماماً لو لم تتداركها إرادة المسلمين والمسيحيين المشتركة.

كان طبيعياً أن يتحرك الفاتيكان، الذي يعتبر نفسه قيّماً على الكاثوليك في العالم بما في ذلك كاثوليك لبنان والشرق الأوسط، لإنقاذ صيغة العيش المشترك ولتأكيد صدقيتها، وبالتالي لتقديمها نموذجاً للمجتمعات المتنوعة الأديان والمذاهب في المنطقة وفي العالم.

لم تكن مبادرة الفاتيكان تستهدف المحافظة على الوجود المسيحي في الشرق فقط، ولكنها أرست القواعد لتفاهم إسلامي ـ كاثوليكي يعيد التوازن إلى دور الفاتيكان، وإلى دور الكاثوليكية في الشرق الأوسط بعد اعترافها باليهودية، وبإسرائيل. فالإسلام، الذي يؤمن بالكتب السماوية المنزلة، والذي يحترم أهلها، (وليس اليهودية التي تنكر الإسلام والمسيحية معاً)، هو الذي حفظ ويحفظ الوجود المسيحي في الشرق كاثوليكياً كان أو أرثوذكسياً أو إنجيلياً أو غير ذلك، وبالتالي فإن إقامة تفاهم وتعاون إسلامي ـ مسيحي على قاعدة إيمانية متأصلة في صلب العقيدة الإسلامية، يختلف كثيراً عن محاولات اصطناع أسس للتفاهم والتعاون بين المسيحية واليهودية، مناقضة للعقيدة ولجوهر الإيمان لدى كل منهما.

اقتحم البابا يوحنا بولس الثاني، منذ تسلمه سدة البابوية في عام 1978، ميادين الدفاع عن الكنيسة وعن مصالحها الراعوية، وانطلق من موطنه بولندا، حيث كان له دور معنوي فعّال في إسقاط النظام الشيوعي هناك، وربما كان ذلك بمثابة عملية قطع حبل السبحة الشيوعية التي تناثرت حباتها في أوروبا

الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق، وتعكس جولات البابا في بعض دول آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية مدى حرصه على عالمية الكاثوليكية، الأمر الذي يضعه على تماس دائم مع التطورات التي تعصف بعالم ما بعد الحرب الباردة.

جاءت زيارة البابا إلى لبنان في هذا السياق. فقد وفَّرت الزيارة في نتائجها الفرصة لقائد روحي كبير أن يوظف المتغيِّرات السياسية في خدمة ثوابته الدينية، كما ستبيِّن في الفصل التالي.

خامساً ـ مرحلة ما بعد مؤتمر مدريد حتى الاعتراف بإسرائيل:

انتقل الشرق الأوسط من ساحة حرب الخليج، إثر الاجتياح العراقي للكويت، إلى طاولة المفاوضات في مدريد في 30 تشرين الأول ـ أكتوبر 1991، وكان المؤتمر، في حد ذاته، مظهراً من مظاهر تداعيات ما بعد تلك الحرب.

كان العرب والإسرائيليون يجلسون إلى طاولة واحدة أمام العالم كله، في الوقت الذي كان الفاتيكان يحاول اللحاق بركب التحولات المستجدة وراء أبواب مغلقة. خطت الاتصالات الفاتيكانية ـ الإسرائيلية خطوات سريعة وواسعة إلى الأمام في 29 تموز ـ يوليو 1992. لعبت في ذلك عوامل أربعة رئيسة:

أولاً: لم يعد الفاتيكان في موقفه السياسي من إسرائيل أسير معتقداته الدينية.

ثانياً: لم يعد الفاتيكان قادراً على أن يبقى وحده خارج مسرح العمل السياسي الدولي والإقليمي الجديد.

ثالثاً: لم يعد الموقف العربي من إسرائيل يشكل إحراجاً سياسياً للفاتيكان.

رابعاً: وبالتالي، لم يعد الفاتيكان يخشى من انعكاس سلبي على أوضاع كاثوليك الشرق إذا هو بادر إلى الاعتراف بإسرائيل.

وهكذا عقد اتفاق الثلاثين من كانون الأول ـ ديسمبر 1993، الذي اعترف الفاتيكان بموجبه بإسرائيل، وكرَّس اعترافه بالديانة اليهودية.

المفارقة اللافتة هي أن الاعتراف ليس متبادلاً، بمعنى أن حاخامَيْ

إسرائيل، «لاو» و«بقشي»، يرفضان حتى الآن الاعتراف بالمسيحية، وقد قاطعا المؤتمر اليهودي ـ المسيحي الذي عقد في شباط ـ فبراير 1994 في القدس، بمبادرة من الفاتيكان، وحضره ممثلون عن مختلف الكنائس من 97 دولة، وهذا يحصر العلاقة بينهما، أي بين إسرائيل والفاتيكان، في إطار سياسي - قانوني، الأمر الذي قد لا يغلق الباب تماماً في وجه مبادرة عربية إسلامية نحو الفاتيكان.

من الطبيعي أن نعرب عن عدم الارتياح إلى اعتراف الفاتيكان بإسرائيل، ولكن سيكون من المبالغة في قصر النظر أن ندير ظهرنا إليه.

ليس من الحكمة أن نسترخي في أحضان رفض واستنكار الحاضر السيء. إن من الحكمة مواجهة أعباء بناء مستقبل أفضل، والمسيحية العربية (الأرثوذكسية والقبطية بالإضافة إلى الكنائس الكاثوليكية) قادرة على أن تبني جسر العبور إلى هذا المستقبل لأنها مثل الإسلام صاحبة حق وطني مغتصب ومقدسات دينية مستباحة.

الفصل الثامن

الحوار الإسلامي - المسيحي

(لبنان حالة خاصة)

تميّز النصف الأول من العقد الأخير من القرن العشرين (1990 - 1995) بتصاعد الخلافات والصراعات الدينية والإثنية حدة وعنفاً. فقد تزامن سقوط النظام العالمي السابق، وانتهاء الحرب الباردة، مع انبعاث سياسات يمينية متطرفة في أوروبا الغربية وفي الولايات المتحدة، أما في آسيا وأفريقيا، فقد تفجّرت، من جديد، الصراعات التي بدت لبعض الوقت براكين خامدة.

في المؤتمر الدولي حول: «علم تشريح الإرهاب»، الذي عقد في أوسلو - النرويج في أيلول - سبتمبر - 1990، حذّر الكاتب الروسي المعروف أناتولي ريباكوف من أن التعددية الجديدة التي انتشرت في العالم لم تؤد إلى تراجع الأحقاد، بل إنها كشفت عن تزايد أعدادها وكثافتها، وفي عالم «الأنترنت» المرتبط بشبكة العقول الحاسبة، حيث تتم عمليات التبادل التجاري على مدى 24 ساعة، وحيث يتم تدفق المعلومات والأخبار دون عوائق ودون توقف، فإن «الوطنية المحلية» تبدو وكأنها تمزق هذه «القرية العالمية» التي نعيش فيها، من يوغسلافيا السابقة، إلى جمهورية الشاشان، ومن كشمير وأفغانستان، إلى الصومال وزائير وبوروندي ورواندا وغيرها، حيث تتهاوى الدول المتعددة الأديان والقوميات، وحتى القبليات، الواحدة تلو الأخرى. فالإنقسامات الدينية والإثنية في تصاعد، ليس فقط في آسيا وأفريقيا الفقيرتين، إنما في أوروبا الغربية (إيرلندا - أسبانيا - بلجيكا)، وكذلك في أوروبا الشرقية وحتى في أميركا الشمالية (كندا).

لم يعد استقلال أي دولة كما كان قبل عقدين سابقين، فالإستثمارات الأجنبية (والتي تنمو بأسرع من وتيرة نمو الاقتصاديات الوطنية) تحدُّ من قدرة الحكومات المحلية على صياغة اقتصادياتها، وتربطها بشبكة كثيفة من الحاجات والمصالح الدولية، لا قِبَلَ لها على الإفلات منها. وهكذا فإنه إذا كان صحيحاً القول إن المتغيرات الدولية تدفعنا نحو المزيد من التداخل والتقارب، فإنه صحيح أيضاً القول إن الدفاع اليائس عن الاختلافات المميزة (ثقافية ـ تاريخية ـ دينية ـ لغوية)، والتي تحافظ على تميزاتنا الإنسانية، هو حاجة ملحة بقدر مماثل. فالشخصية الإنسانية تقوم على رموز تحمل عناصر الاختلاف والتمايز، وقد أطلق فرويد على ذلك اسم «نرجسية التمايزات الصغيرة»، ذلك أنه ليس مهماً حجم هذه الاختلافات لأن في مقدورنا أن نجعل من أصغرها ركناً أساسياً من أركان شخصيتنا.

أخذت هذه المتغيِّرات كثيراً من المفكرين، وحتى من علماء المستقبليّات على حين غرَّة، ذلك أن الحسابات التي قامت على أساس التنبؤ بقيام أحداث معينة، ثبت أنها كانت حسابات خاطئة، والصور التي ساد الاعتقاد، خاصة في الغرب، أنها مطوية بذراع التاريخ، عادت تحتل الصفحات الأولى في الصحف، وتتصدَّر واجهات الشاشات التلفزيونية في العالم، وهي صور المرجعيات الدينية التي رفعت لواء قضايا دينية بدا، حيناً من الدهر، أنها قضايا عفا عليها الزمن.

من البابا يوحنا بولس الثاني في روما، إلى بيلي غراهم في أميركا، إلى البابا شنودة في مصر، ومن البطريرك ألكسي، بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، إلى المطارنة الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا، إلى حاخامات إسرائيل، الذين يرفعون شعارات تهويد القدس والأراضي العربية المحتلة الأخرى، لم يكن لبنان استثناء، بل إن المرجعيات الدينية تمارس، من خلال ما تتمتع به من صدقية ومن خلال ما يسمح به النظام السياسي ـ الطائفي، دوراً أساسياً في مرحلة النقاهة الوطنية التي يمرُّ بها لبنان في الوقت الراهن.

يطرح هذا الواقع السؤال المهم الآتي: «كيف يمكن أن ينطلق حوار وطني من مرجعيات دينية؟.. وكيف يمكن التخلُّص من المشكلة الطائفية المزمنة عن طريق رموز الطوائف؟ وأي جدوى من حوار يقوم على قاعدة «وداوني بالتي كانت هي الداء»؟»..

من حتميات المنطق السليم أن يشق الوفاق الوطني طريقه عبر مسالك وطنية لا طائفية، وأن يتجنب، ما أمكن، القوى والرموز الطائفية ومداخلاتها الشائكة، وأن ينأى بنفسه عن معادلاتها المعقَّدة، وذلك ليس تقليلاً من أهمية هذه القوى، أو تجاهلاً لأهمية دورها، ولكن لأن منطلقات ومستلزمات العمل الوطني اللاطائفي تقتضي ذلك.

لا بد، للإجابة على هذا السؤال، من تأكيد أمر أساسي، وهو أن المرجعيات الدينية الإسلامية والمسيحية حافظت على مسافة بينها وبين القوى المتقاتلة طوال فترة الاقتتال الداخلي 1975 ـ 1989. فهي لم تتبنَّ أي قوة من قوى الأمر الواقع، ولم تبارك أي عمل من أعمالها العسكرية، ورفضت دائماً أن توفر غطاء لها. صحيح أن بعض قوى الأمر الواقع وجد رجال دين من هنا أو هناك يتعاونون معه، ولكن لم يستطع أي من هذه القوى، رغم كل الجهود التي بذلها ورغم كل التحريضات التي أثارها، أن يجد مرجعية دينية يختبىء تحت عباءتها.

أعطى هذا الواقع صدقية وطنية للمرجعيات الدينية خلال الأزمة وبعدها، قبل اتفاق الطائف 1989 وبعده، وقد وظفت هذه المرجعيات رصيدها من الصدقية الوطنية في دفع مسيرة السلام والوفاق والسلم الأهلي قدماً إلى الأمام.

طبعاً لم يحدث ذلك من دون ثمن؛ فقد دفع كل واحد من أصحاب السماحة وأصحاب الغبطة ثمناً غالياً، حتى إن المفتي السابق، المرحوم الشيخ حسن خالد، دفع حياته ثمناً لذلك، كما أن البطريرك صفير تعرَّض لتجريح ظالم داخل مقرّه في بكركي.

منذ أن انفجرت الأحداث الدامية في لبنان، صُوِّرت تلك الأحداث على أنها أحداث طائفية، وبالتالي جرت محاولات لمعالجتها على هذا الأساس الطائفي. إن نفي البعد الطائفي للأحداث اللبنانية ظل يفتقر إلى دليل، ولم يكن بالإمكان استخراج هذا الدليل من مصدر أوثق من المراجع الدينية نفسها.

لعل المحاولة الأولى لهذه المهمة الوطنية جرت في الكويت في إطار

مهمة اللجنة العربية السداسية[1]، وذلك عندما توجهت المرجعيات الدينية[2] الإسلامية والمسيحية، في شباط ـ فبراير 1989، على متن طائرة واحدة إلى الكويت استجابةً لدعوة من اللجنة العربية للبحث في كيفية حل الأزمة. اجتمع أعضاء اللجنة بكل مرجعة دينية على انفراد. لم تمكّن حصيلة تلك الاجتماعات اللجنة من تكوين قناعة مشتركة لإعداد صيغة توفيقية، فارْتَئِي، بعد ثلاثة أيام من الاجتماعات، تجاوز الأمر دون الإعلان عن موقف أو إصدار أي بيان.

عشية سفر المرجعيات عائدة إلى بيروت، جرى تداول بينها بشأن الانعكاسات السلبية المحتملة لنتائج اجتماعات الكويت على الوضع الداخلي اللبناني، وارتفعت أصوات محذِّرة من احتمال استغلال عدم الاتفاق لإضفاء بُعدٍ طائفي على الحرب في لبنان. في هذا اللقاء، الذي جرى في إحدى قاعات قصر بيان، طُرِح اقتراحٌ بصياغة بيان مشترك يصدر عن أصحاب السماحة وأصحاب الغبطة. وبَناءً على اقتراح من البطريرك صفير عُهِدَ إليَّ بكتابة مشروع البيان، فوضعتُ النص الآتي الذي وافق عليه الجميع:

«يسجِّل أصحاب الغبطة والسماحة لرئيس وأعضاء اللجنة السداسية

(1) كانت لجنة الجامعة العربية تتألف من وزراء خارجية كل من:
الكويت: صباح الأحمد الصباح.
الأردن: مروان القاسم.
السودان: حسن الترابي.
الجزائر: علام بو سايح.
الإمارات العربية المتحدة: حمدان بن زايد (وكيل وزارة الخارجية).
تونس: صلاح عبد الله (مندوب تونس لدى الجامعة العربية).

(2) اشترك في لقاءات الكويت كل من:
- مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد، رحمه الله.
- البطريرك الماروني نصر الله صفير.
- نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الشيخ محمد مهدي شمس الدين (أصبح رئيساً للمجلس).
- بطريرك الروم الأرثوذكس أغناطيوس الرابع هزيم.
- بطريرك الروم الكاثوليك مكسيموس الخامس حكيم.
- رئيس المحاكم الشرعية الدرزية الشيخ مرسل نصر، ممثلاً شيخ عقل الطائفة الدرزية محمد أبو شقرا، الذي كان في حالة المرض.

للاتصال والمساعي الحميدة للبنان المنبثقة عن جامعة الدول العربية، تقديرهم الكبير لما أبدوه، خلال اللقاءات معهم، من تفهُّم عميق، ومن جدِّيَّة ومسؤولية في دراسة أسباب الأزمة اللبنانية ووسائل حلِّها، ومن إخلاص صادق في السعي الدؤوب لمساعدة لبنان على التغلُّب على محنته القاسية..

إنَّ أصحاب السماحة والغبطة إذ يجدِّدون ثقتهم باللجنة رئيساً وأعضاء، وبمنهجية عملها الحكيم، يهيبون بسائر القيادات اللبنانية الإفادة من هذه الفرصة المؤاتية لإنقاذ لبنان، وذلك بالتجاوب مع مساعي اللجنة العربية ومقاصدها النبيلة.

ويأمل أصحاب الغبطة والسماحة أن تسود، بين هذه القيادات اللبنانية، روح التضامن الوطني والودِّ والتفاهم، التي سادت لقاءاتهم التي عقدوها فيما بينهم من جهة، ومع اللجنة العربية من جهة ثانية، وذلك حتى يصل لبنان إلى شاطىء الأمن والسلام والاستقرار، وتتوفر للجنة كل الأجواء الكفيلة بنجاح مهمتها وتحقيق أهدافها بضمان الوفاق اللبناني اللبناني، وما يقوم عليه من أمور يفوز لبنان بنهايتها بالخروج من أزمته».

تلا البيان على الصحفيين البطريرك هزيم من نصٍّ مكتوب على ورقة بخطٍّ يدي، وكان أول بيان مشترك يصدر عن المرجعيات الدينية بشأن الحرب في لبنان، وكان، بالتالي، أول مسمار في نعش الهوية الطائفية للأحداث اللبنانية. كرّست، فيما بعد، البُعْدَ غير الطائفي للحرب في لبنان الصداماتُ المسلحة بين أبناء الطائفة الواحدة والمذهب الواحد. وعندما عقدت القمة الإسلامية ـ المسيحية، في آب ـ أغسطس 1993 في بكركي (إثر العدوان الإسرائيلي على الجنوب في تموز ـ يوليو من ذلك العام)، سقط البُعد الطائفي بالضربة القاضية. لم يكن اللقاء غريباً، فقد تواصلت الاتصالات واللقاءات الثنائية بين أصحاب السماحة والغبطة طوال الفترة الممتدة من لقاء الكويت حتى لقاء بكركي. البيان الوطني الذي صدر عنهم في بكركي، والذي كان لي شرف إعداده، لم يقف عند حدود التضامن في وجه العدوان الإسرائيلي، وفي وجه العدو الإسرائيلي، ولكنه تجاوز ذلك إلى قضايا وطنية عامة أخرى. فقد نص البيان على ما يأتي:

«يوم الاثنين الثاني من آب 1993، وعلى إثر الاعتداءات الإسرائيلية التي تعرَّض لها لبنان ولا سيما الجنوب والبقاع الغربي، تداعى أصحاب الغبطة

والسماحة والسيادة لعقد اجتماع وطني في المقر البطريركي الماروني في بكركي، شارك فيه رؤساء الطوائف الروحية الإسلامية والمسيحية كافة التي تتألف منها العائلة اللبنانية الواحدة.

وبعد أن تدارسوا الأوضاع المأساوية الراهنة في البلاد بروح الأخوّة والمحبة والتفاهم قرّروا ما يأتي:

1 ـ إدانة العدوان الإسرائيلي الآثم على أهلنا وأبنائنا في الجنوب والبقاع الغربي والمناطق اللبنانية الأخرى وما تسبّب به من مآسٍ، والذي اتخذ شكل التدمير الشامل والمنظّم للمدن والقرى والبلدات اللبنانيّة، والتهجير الجماعي القسري لسكانها الآمنين، وتشريد ما يزيد على أربعمائة ألف مواطن في العراء دون ملجأ أو مأوى، إضافة إلى مئات الضحايا من قتلى وجرحى.

2 ـ مناشدة الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي التدخل فوراً لوقف العدوان بصورة نهائية، وإزالة آثاره ومعاقبة المعتدي الإسرائيلي لخرقه القوانين والمواثيق الدولية وشرعة الأمم المتحدة، التي تقضي بعدم استعمال القوة العسكرية، أو التهديد باستعمالها ضد دولة ذات سيادة.

3 ـ مطالبة منظمة الأمم المتحدة والدول الكبرى والولايات المتحدة الأميركية خاصة بتحمُّل مسؤولياتها لجهة تنفيذ قرارات مجلس الأمن، ولا سيما القرار 425 القاضي بانسحاب القوات الإسرائيلية إلى ما وراء الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً، لأن تنفيذ هذا القرار يعتبر القاعدة السليمة لتحقيق الأمن والاستقرار في منطقة الحدود اللبنانية الجنوبية الدولية.

4 ـ الإشادة بالأسلوب الحكيم والحازم الذي تصدَّت به الدولة اللبنانية للعدوان الإسرائيلي، والتنويه بتجاوب الدول العربية مع دعوة لبنان في مؤتمر وزراء خارجية مجلس الجامعة، الذي عقد في دمشق، واجتماع البرلمانيين العرب في بيروت، للتضامن معه، ودعوة الدول العربية إلى تنفيذ المقررات التي التزمت بها لتعزيز مقومات وإرادة الصمود اللبناني في مواجهة العدوان الذي يستهدف من خلال لبنان ضرب التضامن العربي.

5 ـ مناشدة الدول الشقيقة، والدول الصديقة والمنظمات الإنسانية، تقديم المساعدات لإعادة إعمار المدن والقرى اللبنانية المتضررة بفعل العدوان، وتمكين أهلها من العودة إلى بيوتهم وممتلكاتهم بكرامة وأمن

وسلام، وتمكين الحكومة من تعزيز قدرات الجيش اللبناني وتجهيزه ليتمكن من الدفاع عن الأرض اللبنانية، وحماية حدود الوطن، وتحقيق الأمن والأمان للمواطن اللبناني.

6 ـ حثّ جميع اللبنانيين على التبرع لدعم أجهزة المساعدة، التي أنشأتها الدولة ومؤسسات الإسعاف الإنسانية والأهلية تأكيداً لأواصر الأخوّة والتضامن بين اللبنانيين في مواجهة هذه المحنة الكبيرة.

7 ـ التنويه بوعي اللبنانيين، وبالتضامن الذي أبدوه، وبوقوفهم صفاً واحداً للحفاظ على مسيرتهم الوفاقية، ومسيرة إعادة البناء والإعمار، ومجابهة العدوان الذي يستهدف النيل من وحدتهم ووجودهم وسيادتهم، والتأكيد على وحدة الشعب اللبناني، وعلى وحدة الدولة اللبنانية بأرضها ومؤسساتها، والتمسك بالعيش الوطني المشترك ومقومات لبنان الأساسية من حرية وسيادة واستقلال.

8 ـ التحذير من أي محاولة تستهدف المسّ بالمرتكزات والثوابت التي يقوم عليها لبنان.

9 ـ التمسك بحق الدولة اللبنانية في بسط شرعيتها وسلطتها على كل الأرض اللبنانية، ودعم مسيرة الوفاق ووحدة الصف الوطني، واستكمال إعادة بناء الجيش وقوى الأمن الداخلي حتى تتمكن من أداء مهامها الأمنية على أحسن وجه وأكمله.

10 ـ تشكيل لجنة متابعة منبثقة عن هذا الاجتماع، لنقل موقف أصحاب الغبطة والسماحة والسيادة إلى المراجع الروحية في العالم، وإلى سائر المنظمات الدولية المختصة.

إن أصحاب الغبطة والسماحة والسيادة إذ يشكرون الله على نعمته بعقد هذا الاجتماع الذي يمثل وحدة الشعب اللبناني في بعده الروحي والأخلاقي والقيمي، يدعون جميع اللبنانيين إلى تنمية روح المحبة والتضامن فيما بينهم، والتمسك بالقيم الروحية والأخلاقية المشتركة، وبروح الحوار البنّاء لإزالة جميع العوائق التي تعترض مسيرة السلم الأهلي والإعمار، وفي هذا المجال يعربون عن عميق تعاطفهم وتضامنهم مع المهجرين في جميع المناطق اللبنانية، ويدعون إلى مواصلة مسيرة إعادتهم جميعاً إلى مدنهم وقراهم ومناطقهم بعزّة وكرامة وسلام».

انبثقت، عن هذا اللقاء، اللجنةُ الوطنية الإسلامية ـ المسيحية للحوار، التي تضم ممثلاً عن كل مرجعية دينية، لتكون اللجنة صلة وصل دائمة بين هذه المرجعيات من جهة، وبينها وبين مرجعيات وهيئات عربية ودولية مماثلة تعنى بالشأن اللبناني وبالحوار الإسلامي ـ المسيحي. فالمجتمع اللبناني مجتمع متعدد الأديان، أي أنه ليس مجتمع دين واحد، ومذهب واحد، ولا هو مجتمع علماني ـ لا ديني. فمن مجالس إدارة المؤسسات، إلى الجامعات حتى الأندية الرياضية والجمعيات الخيرية؛ إن كل زاوية من زوايا هذا المجتمع، وكل ركن من أركانه، يحتاج إلى أن يكون ممثلاً للسكان بصورة عامة. أما الأمور الإطلاقية ـ الإطلاقيات ـ فلم تعد قصعة شهية تشكل مائدة ترف فكري يلتقي حولها مثقفون في برج عاجي. لا بد من الغوص في وحول الواقع لتجفيف المستنقعات الطائفية، ومن ثم لإعادة زرع لبنان حبّاً وتسامحاً وانفتاحاً. إن توصيف بنية المجتمع اللبناني بأنها تقوم على ثقافة الأثرة لا الإيثار ليس توصيفاً خاطئاً. من شأن هذه الثقافة أن تحقق نوعاً من السعادة الفردية، ولكنها لا تساعد على النمو الوطني، وبالتالي على تحقيق سعادة جماعية. ومنذ إقرار اتفاق الطائف اتخذت عملية التغيير في لبنان طابع الدوران حول محورين أساسيين:

الأول هو محور: القانون ـ الفوضى.

الثاني هو محور: الوطنية ـ الطائفية

فالخلاف حول توحيد الجامعة اللبنانية ليس سوى مظهر واحد من قضية بالغة التعقيد والدقة؛ ذلك أن كل فرع من فروع الجامعة يحمل طابع المنطقة التي أنشىء فيها، طائفياً ومذهبياً واجتماعياً وحتى ثقافياً. وسواء اعتمد شعار «التوحيد من دون تجميع» أو شعار «المركزية في حرم واحد (الشويفات)»، فإن التباينات الواسعة بين هذه الفروع تعكس، في جوهرها، التمايزات التي قامت عليها الجامعات العديدة الأخرى في لبنان، من جامعة الكسليك ـ المارونية ـ، مروراً بجامعة البلمند ـ الأرثوذكسية ـ، وانتهاءً بجامعة بيروت الإسلامية التي أعلن عن إنشائها الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى.

البنية التحتية لهذه الجامعات، وهي المدارس الثانوية والابتدائية.. (وحتى دور الحضانة)، تقوم أساساً، وفي الدرجة الأولى، على قاعدة

التباينات الطائفية والمذهبية في المناطق اللبنانية المختلفة: من مدارس المقاصد الإسلامية، إلى المدارس الكاثوليكية، والإنجيلية، والأرثوذكسية إلى آخره. فالمدارس الإسلامية تكاد لا تعرف طالباً مسيحياً واحداً، أما المدارس المسيحية فإن نسبة الطلاب المسلمين فيها تكاد لا تذكر (إلا استثناء).

يزيد الأمر تعقيداً ثلاثة أمور جوهرية:

الأمر الأول: هو انكفاء المدارس الرسمية وتعثُّر عملية تطويرها وتأهيلها حتى تتمكن من منافسة المدارس الأخرى في استقطاب أكبر عدد من الطلاب اللبنانيين.

الأمر الثاني: عجز الدولة، حتى الآن، عن ابتداع صيغة توفق بين حرية التعليم التي نصَّ عليها الدستور، وتوحيد البرامج التعليمية في المدارس المختلفة.

الأمر الثالث: هو عدم توفر الجرأة السياسية الكافية لتطبيق ما ورد في اتفاق الطائف لجهة وضع كتاب معتمد حول التربية الوطنية وتوحيد كتاب التاريخ. فلا يزال البطل هنا يُصوَّر مجرماً هناك، الأمر الذي يحول دون ردم الهوة الثقافية الوطنية بين أبناء جيل ما بعد الحرب في لبنان.

لا شك في أن ثمة أموراً عديدة أخرى تزيد هذه الهوة اتساعاً. فالمؤسسات الشبابية، من جمعيات كشفية وأندية رياضية، تقوم أيضاً على قاعدة طائفية؛ فهناك الكشاف المسلم، والكشاف المسيحي، كما أن هناك الكشاف الدرزي، والكشاف الأرثوذكسي إلى آخره، ولا تُعرف سوى محاولات محدودة جداً وخجولة لإقامة مخيمات مشتركة تجمع أبناء الجيل الواحد الذين باعدت بينهم الحواجز الأمنية والنفسية التي استمرت أكثر من عقد ونصف من الزمن!..

يتمثل الوجه الآخر لهذا الواقع المؤلم في الطابع الطائفي أيضاً للعديد - بل لمعظم - الأندية الرياضية بمختلف اختصاصاتها، ويكفي أن يُذكر اسم نادٍ ما حتى تتحدد في الذهن الطائفة التي يمثلها، سواء كان ذلك في ميدان كرة القدم، أو كرة السلة، أو المصارعة، أو السباحة أو غيرها من النشاطات الرياضية الأخرى. والتنافس الرياضي سرعان ما يتحول إلى تنافس طائفي، يعكسه سلوك الجمهور المتفرج في الملاعب؛ ذلك أن انتصار فريق ما أو

هزيمته، يصوَّر وكأنه انتصار لطائفة الفريق أو هزيمة لها، وهو أمر يعمِّق من الهوَّة في المجتمع الأهلي، والتي لا بد من ردمها من أجل إقامة صرح وطني مشترك، وتكاد مؤسسات الجيش اللبناني وقوى الأمن الداخلي (درك ـ شرطة ـ أمن عام) تكون المؤسسات الوحيدة التي يتم فيها الاختلاط الشبابي بعمق وبفعالية.

وإذا صودف وأصيب لاعب ما بأذى استدعى نقله إلى المستشفى، فإنه لا ينقل دائماً إلى أقرب مستشفى، بل إلى المستشفى الذي يخصُّ طائفته. فالمستشفيات وإن كانت مفتوحة أمام كل المرضى من كل الأديان والمذاهب، إلا أنها تبقى، في هويتها الطائفية وفي اسمها الطائفي، جرساً يرن باستمرار في عقل المريض وضميره، (وفي عقل عائلته وضميرها) بأنه يسلِّم أمر علاجه وسلامته، وبالتالي حياته، لرعايةٍ من غير طائفته. فمن المستشفى الإسلامي، إلى مستشفى القديس جورجيوس، إلى مستشفى دير الصليب، فمستشفى فاطمة الزهراء، ومستشفى بيت الرب (أوتيل ديو)، ومستشفى المقاصد الإسلامية وغيرها.. هذه المستشفيات، خلافاً لرسالتها الإنسانية السامية التي تقوم بها بكل جدارة وترفُّع، تشكل في أسمائها، وفي رموزها وشعاراتها الدينية، حواجز وهمية يحتاج تخطِّيها إلى قدر من الجرأة الأدبية غير المتوفرة دائماً.

والمستشفيات ليست وحيدة في هذا الأمر، فالمؤسسات الأهلية الأخرى التي تتعاطى الشأن الاجتماعي الخيري والإنساني تكاد تكون مغلقة على رعاية أبناء الطائفة التي تنتمي إليها، من دور الأيتام، حتى دور العجزة؛ وتحرص هذه المؤسسات على إبراز هويتها الطائفية ـ وحتى المذهبية ـ بكيفية استقطابية لأبناء الطائفة وبكيفية استبعادية للآخرين، ويغيب عن نشاطاتها الحد الأدنى من الانفتاح الذي يمكن تحقيقه من خلال تنظيم لقاءات مشتركة بين نزلاء هذه الدور. وكم يبدو الأمر جميلاً لو تُنظَّم لقاءات ثقافية ورياضية وترفيهية في مناسبات الأعياد الوطنية والدينية ـ وما أكثرها ـ تجمع بين أيتام أو بين مسنِّين من هذه الدور المختلفة. إن عدم مبادرة الدولة حتى الآن إلى إقامة مؤسسات من هذا النوع، شجع القطاع الأهلي على المضي قدماً في ملء الفراغ، وقد أدت حيوية المجتمع اللبناني والتنافس بين الطوائف على تقديم المساعدة والرعاية لأبنائها، إلى قيام مؤسسات نشيطة وفاعلة تتمتع بقدر عالٍ من الحيوية

والفعالية، وربما يكون نجاح هذه المؤسسات الأهلية وراء انكفاء الدولة نفسها عن أداء هذه المسؤولية الكبيرة، غير أن المشكلة تكمن في عدم وجود جسور بين هذه المؤسسات للتنسيق التربوي وللتعاون الاجتماعي.

طبعاً لا تقتصر هذه الظاهرة على المؤسسات والجمعيات الأهلية الخيرية والاجتماعية، ولكنها تشمل، وبصورة أساسية أيضاً، الجمعيات السياسية وخاصة الأحزاب. خرجت الأحزاب من الحرب، مهيضة الجناح، منقسمة على نفسها، مطعوناً بصدقيتها، وقد تساوت في ذلك الأحزاب الطائفية مع الأحزاب العلمانية. فالفئة الأولى أعطت هوية طائفية غير صادقة وغير واقعية للحرب اللبنانية. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بدأت هذه الأحزاب، من خلال عملية نقد ذاتي تتسم بشيء من الجرأة الأدبية، إعادة النظر في عقيدتها بالتحوُّل من الطائفية المغلقة إلى الوطنية المتفتحة، ومع الأمل في أن تتمكن من تحقيق تقدم على هذا المسار، فإن عملية التحول لم تخطُ خطوتها التغييرية الأولى بعد سواء على صعيد القاعدة أو على صعيد القمة المركزية.

أما الفئة الحزبية الثانية فإنها تصطدم بواقع عقائدي جديد؛ ذلك أن سقوط الشيوعية في عقر دارها أدى إلى انحسار حضور الحزب الشيوعي في لبنان، كما أن تضمين وثيقة الوفاق الوطني في الطائف نصاً يقول إن لبنان وطن نهائي لجميع أبنائه، أدى إلى رسم علامة استفهام حول حدود التجاوب مع شعارات الأحزاب القومية، كالحزب القومي الاجتماعي، وحزب البعث العربي الاشتراكي وغيرهما.

في المحصلة الأخيرة فإن الأحزاب اللاطائفية تعاني، فوق انقساماتها على نفسها، من اهتزاز في عقيدتها، وهي أساساً لم تتمكن من توظيف لاطائفيتها لتصبح أحزاباً وطنية إلا في إطار ضيِّق ومحدود خلافاً لطموحات قاداتها. أما الأحزاب الطائفية، مثل حزب الكتائب، فإنها تعاني من التآكل الداخلي، كما تعاني من سقوط استراتيجيتها السابقة، وهي تحتاج إلى جهد كبير وإلى شجاعة أكبر حتى تتمكن من إعادة بناء نفسها على قاعدة لا طائفية، وحتى تتبنى لنفسها استراتيجية جديدة للعمل الوطني.

على أن أكثر ما يلفت النظر هو عدم ولادة حزب وطني جديد يخرج من رحم اتفاق الطائف، ذلك أنه لم يتكون، مع الأسف، رأي عام حول هذا

الاتفاق، يتحلق حوله، ويتمسك به، ويعتبر الدفاع عنه قضية وطنية جامعة من الدرجة الأولى. والثقافة الشعبية تجهل الكثير عن مضمون هذا الاتفاق حتى بات يُنظر إليه وكأنه مجرد اتفاق لوقف إطلاق النار، وليس ميثاقاً وطنياً لبناء دولة جديدة على أسس جديدة.

إن المسافة بين أن يكون اتفاق الطائف حالة شعبية وطنية شاملة، أو أن يكون لقيطاً يخجل منه حتى آباؤه، هي مسافة كبيرة. لم يبذل أي جهد حقيقي لخلق حالة من الوعي العام بحيث يصبح هذا الاتفاق مكسباً وطنياً يُدان كلُّ من يتجاوزه أو يقصِّر في تطبيقه، وبالتالي لم تفرز مرحلة ما بعد الحرب حركة تنظيمية لتيار جديد يجسِّد دروس الأزمة الدموية التي مرَّ بها لبنان، ويعبِّر عن روحية الوفاق الوطني والعيش المشترك.

هناك تجمُّعات عفوية عديدة قامت في مناطق لبنانية مختلفة تشكل روافد لهذا التيار، وهي تحتاج إلى مبادرة تجميعية وتنظيمية في ظل قيادة استقطابية محترمة، وهذان الأمران لم يتوفرا حتى الآن.

كان يمكن للإعلام أن يلعب دوراً أساسياً في هذا الاتجاه، غير أن ظاهرة المحطات الإذاعية والتلفزيونية التي قامت خلال الحرب، والتي استمرت بعدها نهجاً وفكراً، بدت في طبيعتها غير مؤهلة، وبالتالي غير قادرة على الارتفاع إلى المستوى الذي يحتمه أداء هذا الدور، ولا يحتج المرء إلى كثير عناء لتصنيف الولاءات الطائفية لهذه المحطات، أو لتحديد العواطف الطائفية حتى للعديد من الصحف والمجلات.

من المؤسف أن بعض الأجهزة الرسمية، مثل المجالس البلدية، سقط في مطبات هذا الواقع من خلال اختيار أسماء للشوارع المستحدثة، أو من خلال تعديل أسماء شوارع قديمة. ففيما يغلب على أسماء هذه الشوارع، في الجزء الغربي من بيروت مثلاً، طابع إسلامي وعربي، تبرز أسماء الشوارع في الجزء الشرقي منها بلون آخر، ومن شأن ذلك تنمية الإحساس - في العقل الباطن على الأقل - بتمايز العواطف وباختلاف الولاءات وبتباين سلَّم القيم.

إن الإجراءات التي تؤول إلى تحديد الهوية الطائفية لأي منطقة من مدن لبنان أو بلداته من خلال أسماء الشوارع أمر يفتقر إلى الحكمة، ويعكس عمق

تجذُّر المرض الطائفي في البنى النفسية والثقافية. فقد كان ممكناً، ولا يزال، التعرف على الهوية الطائفية لمواطن ما من اسمه، أو من اسم عائلته، أو حتى من لكنته أو لهجته، أو من محطات كلامية خاصة في خطابه؛ ومن السذاجة الادعاء الآن بأن هذا الأمر قد تغيَّر أو تراجع.

هكذا تبرز التباينات والتمايزات والانقسامات الطائفية أفقياً وعمودياً في بنية المجتمع اللبناني وعلى كل صعيد. لم يبذل جهد حقيقي بعد لإزالتها أو للتخفيف منها؛ بل على العكس فقد ازداد الشرخ عمقاً من خلال عمليات التهجير والفرز السكاني، ومن خلال قيام تجمعات تجارية على قاعدة هذا الفرز وجغرافيته الديموغرافية الجديدة، وكذلك من خلال قيام شركات مساهمة ـ مصرفية وتجارية وصناعية ـ تكرّس هذا الفرز في البنية الاقتصادية التي بدأت تتنامى بعد الحرب.

كان لا بد من تصوير هذا الواقع بكل ما يتسم به من مرارة، ومن عدم رضى للتأكيد على أمر أساسي هام، وهو أن واقعاً من هذا النوع لا يمكن تغييره بالإلغاء، ولا يمكن معالجته بالبتر، ذلك أن النسيج الاجتماعي اللبناني يتألف أساساً من خيوط طائفية محبوكة بصنانير النظام نفسه. إن سحب أي خيط يؤدي حتماً إلى تفكك بقية خيوط النسيج، وبالتالي فإن إلغاء الطائفية يتطلب نسج مجتمع جديد، وهذه عملية يحتاج تحقيقها إلى توافر عدة عوامل أساسية في مقدمتها الإرادة الجامعة التي يجب أن تكون تعبيراً عن اقتناع عام بأن اللاطائفية أفضل حالاً، وهذا بدوره يحتاج إلى عملية تثقيفية مبرمجة طويلة المدى. باعدت الحرب الداخلية بين الطوائف والمذاهب والمناطق، وأُسيء توظيف واستخدام التباينات الطائفية بشكل مدمر، تكرَّس ذلك في قيام مجتمعات جديدة باعدت بينها الحواجز والمخاوف. بعد الطائف ورغم مرور سبع سنوات على إقرار وثيقة الوفاق الوطني التي تنص على العمل على إلغاء الطائفية، لم يُبذل جهدٌ كافٍ لتحرير الذاكرة المجتمعية مما علق فيها من صوَر وتصورات طائفية سلبية.

لا تساعد مشاعر الإحباط والاستياء، ومواقف الانكفاء والمقاطعة على محو هذه الصوَر أو تجميلها، بل على العكس فإنها تؤدي إلى تكريسها وتثبيتها، وبالتالي فإن عرقلة مسيرة الوفاق الوطني تجعل من استئصال الطائفية عملية أكثر صعوبة وأشد تعقيداً.

ثمة علاقة مباشرة بين الثابت الطائفي والمتحرك الإنساني، جيلاً بعد جيل. وكلما طال الزمن تتقعّر المشاعر الطائفية في نفسية الجيل الجديد، وتنعكس تالياً على سلوكه وعلى خياراته وعلى أولوياته المستقبلية. ولأن هذه المشاعر ليست ورماً يمكن استئصاله، ولا عضواً يمكن بتره، إنما حالة كلية في العقل والقلب معاً، فإن التعامل معها يتطلب تفهماً لأسبابها، وتفاهماً على مبدأ إزالتها، وحكمةً في اختيار الأسلوب والمنهج المناسبين لأداء هذه المهمة الوطنية الصعبة.

الانتقال من الطائفية إلى اللاطائفية عملية تغييرية ذات طابع ثوري. في مثل هذه الحالة من التغيير، فإن المجموعات الأهلية بكل ميراثها الطائفي (والذي كان ملاذها في مراحل الأزمات)، قد تواجه تحدي اللاطائفية باستجابات متعددة لا يستغرب أن تأخذ أحياناً أشكالاً بدائية لا تتفق مع مقتضيات العصر والتطور؛ من هذه الأشكال محاولة التخندق وراء الذات ورفض التغيير خوفاً من فقدان خصوصيتها الثقافية، وهي خصوصية يصعب، في كثير من الأحوال، تعريفها وتحديدها، ومنها اللجوء إلى تدعيم النزعات المتطرفة في الطائفة في محاولة يائسة لسد الطريق أمام تغيير يبدو لها وكأنه يتحقق بالفرض وليس بالاختيار، وكما يرى عالم الاجتماع السويسري جان زيغلر فإن «تحديث بنية المجتمع (اقتصادياً) غالباً ما يُحيي سلفية الذهنيات».

بعد الطائف، يعكس منطقان فكريان مختلفان أجواء المناخ السائد في لبنان. يتشبث المنطق الأول بالأطر الفكرية السابقة للطائف والتي توالدت في مرحلة الحرب الداخلية. ويزعم هذا المنطق أن الطائفية قادرة ليس فقط على وصف الواقع اللبناني، إنما على فلسفة استمراريته والتنبؤ بمساره المستقبلي. أما المنطق الثاني فيرى أن هذه الأطر الفكرية قد حكمت على نفسها بالموت لأنها جرّت لبنان إلى الحرب الداخلية، ولأنها استُخدمت كثغرات لتسلل قوى خارجية إقليمية ودولية وظّفت الاقتتال اللبناني لحسابات غير لبنانية، وبالتالي فإن لبنان في حاجة إلى أطر فكرية حديثة تكون أكثر قدرة على إعادة تركيب المجتمع على أسس من العدالة والمساواة واحترام حقوق الإنسان.

لا بد من احترام أمرين أساسيين لتحقيق عملية الانتقال التغييري في لبنان: الأمر الأول هو عدم إسقاط الأطر الفكرية الطائفية بقرار «مقصلي»،

ذلك لأن هذه الأطر تتمتع بخلفية فكرية تراكمية، وبمصالح اقتصادية متشابكة وبنى اجتماعية عميقة الجذور.

الأمر الثاني هو عدم فرض الأطر الفكرية اللاطائفية بقرار «تتويجي»، ذلك لأن هذه الأطر الناهضة على شرعيتها، تحتاج إلى مرحلة تاريخية من الصراع الحواري الحرّ والمنفتح مع الأطر القديمة المتهاوية، بحيث يلد هذا الصراع صيغة تحتضن وترعى العيش اللبناني المشترك، وتقرر مساره في القرن الواحد والعشرين.

تعمل اللجنة الوطنية الإسلامية ـ المسيحية للحوار، التي انبثقت عن قمة بكركي الروحية 1993، على توحيد الخطاب الوطني للمرجعيات الدينية المتعددة، وذلك انطلاقاً من الثوابت الوطنية التي تتمسك بها هذه المرجعيات. وإذا كان من اليسير ملاحظة المسافة الواسعة (في الخطاب الوطني) بين المرجعيات الدينية وقوى الأمر الواقع أثناء الفتنة، فإنه من اليسير ملاحظة انعدام أي مسافة (في الخطاب الوطني) بين المرجعيات الدينية الإسلامية والمسيحية.

فالبطريرك صفير، في حديثه عن «الحروب المتتالية على أرضنا طوال سبع عشرة سنة»، وجد أن من نتائجها الوخيمة، عدا الخراب والدمار والتشريد والتهجير، أن مزقت النسيج الاجتماعي اللبناني، فأظهرته مجتمعاً متخلّفاً لا يقوى على مواجهة تحديات الحياة، ولا على تحمل مسؤولياته تجاه نفسه ووطنه، وهذه صورة غير صحيحة عن لبنان واللبنانيين الذين أثبتوا، عبر تاريخهم الطويل، أنهم شعب، وإن تعددت مذاهبه وجذوره الفكرية، يظل موحد الأهداف والتطلعات، له تراث وتاريخ مشترك، وقد صهرته الأحداث في بوتقة الألم، فكان أن قاتل الأخ أخاه قبل أن يقاتل أبناء هذا المذهب أبناء ذلك، وهذا ما كذّب المقولة بأن الحروب اللبنانية كانت مذهبية أو طائفية أو أهلية، ولكنها صفحة انطوت إلى الأبد[1].

ويعكس الإمام محمد مهدي شمس الدين رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى هذه الروح ذاتها، والموقف نفسه عندما يقول:

---

(1) ألقيت الكلمة أمام المؤتمر الدائم للحوار اللبناني، مدرسة الحكمة ـ 22/ 5/ 1994.

«إن أي طائفة في لبنان لا يمكن أن تنجز مشروعاً خاصاً بها، ولا يمكن أن يوجد لبنان من خلال مشروع خاص للمسلمين، كل المسلمين أو بعضهم، كما أنه لا يمكن أن يوجد لبنان من خلال مشروع خاص للمسيحيين، كل المسيحيين أو بعضهم، إن لبنان يتكون من هاتين المجموعتين وأي طائفة تحاول أن تنجز مشروعاً خاصاً ستخلق حالة دمار شامل ولن ينجح هذا المشروع. ولا معنى للبنان دون مسيحييه كما أنه لا معنى له دون مسلميه. لبنان لا يكتمل معناه إلا بمسلميه ومسيحييه ولا تكتمل مسيحية مسيحييه إلا بمسلميه. لبنان يتكون على أساس صيغة العيش المشترك، وطناً نهائياً لجميع بنيه، وعالى قاعدة إلتزام المشروع الوطني العام، مشروع الدولة المدنية التي ليست ولن تكون لطائفة أو مع فئة فضلاً عن أن تكون دولة أشخاص، إنها دولة الجميع وللجميع عدالة ومساواة وكرامة»[1].

ومن المهمات الأساسية، التي تعهدت اللجنة القيام بها، تشجيع ثقافة الحوار بين اللبنانيين على المستويات الأهلية كافة لردم الهوة التي حفرتها سنوات المحنة الطويلة. وتتكون ثقافة الحوار الإسلامي ـ المسيحي في لبنان من ثلاثة مصطلحات هي:

- الحوار.
- الإسلام والمسيحية.
- لبنان.

أولاً: الحوار

ينطلق الحوار من أمر أساسي وجوهري جداً، وهو البحث عن الحقيقة في وجهة نظر الآخر، بمعنى أن الحقيقة ليست حكراً على أي طرف. إن الاعتقاد بأن أي واحد منا على صواب لا يعني بالضرورة أن الآخرين على خطأ. إن الحوار هنا يعني عدم إهمال أو تجاهل أو التقليل من أهمية وجهات النظر الأخرى.

يشتمل الحوار على ميادين عديدة:

---

(1) ألقيت الكلمة أمام المؤتمر الدائم للحوار اللبناني، مدرسة الحكمة ـ 22/ 5/ 1994.

هناك، أولاً، حوار الحياة، وهو يعني الاهتمام بالآخر، وتفهم خلفياته والاعتراف بتميُّزاته، ومن ثم بناء عيش مشترك معه على قاعدتي التفهم والاعتراف.

وهناك، ثانياً، حوار العمل، وهو يعني العمل معاً اجتماعياً وإنسانياً واقتصادياً، ومن شأن ذلك أن يحقق انصهاراً مجتمعياً وتداخلاً في العلاقات وتكاملاً في المصالح.

وهناك، ثالثاً، حوار النقاش، النقاش الفكري وحتى العقدي؛ ليست غاية هذا الحوار توحيد الديانات، إنما تفاهمها، وليست الوسيلة إلى ذلك التوقف أمام التباينات بل البحث عن المشترك فيما بينها.

وهناك، رابعاً، حوار التجارب، بما في ذلك التجارب الدينية. وهنا أيضاً ليست الغاية ممارسة العبادة مثل الآخر، ولكن إدراك الحقيقة بأن الآخر يمكن أن يعبد الله بطريقة مختلفة.

من الملاحظ أن ثمة تقصيراً في الحوار الذي يتطلب تفهماً أفضل لخلفيات الطرف الآخر، واعترافاً أصدق بتميزاته. ولقد وعت الورقة الإسلامية ـ المسيحية الموحَّدة، التي أذاعتها اللجنة الوطنية الإسلامية ـ المسيحية للحوار، هذا الأمر عندما دعت إلى «إسقاط وإزالة كل الآثار السلبية والإفرازات الشاذة للفتنة التي عصفت بلبنان»، وعندما دعت كذلك إلى «خلق حالة من التجاوب الإيجابي بين شرائح المجتمع اللبناني كافة، وبين كل من السلطتين التشريعية والتنفيذية، بحيث تعكس القوانين والقرارات إرادة شعبية غير مجتزأة، مما يعطي للدولة ولمواقفها صدقية وطنية تصونها وتدعمها».

ومن الملاحظ، كذلك، أن ثمة تقصيراً في حوار العمل الذي يتطلب عملاً مشتركاً في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والتربوية. فقد عززت أحداث الفتنة الدامية من قيام مؤسسات اجتماعية طائفية لتغطية عجز مؤسسات الدولة، أو تقصيرها أو تعثرها، فدعت الورقة الموحدة إلى «تجاوز الأنانية الطائفية وإلى الانفتاح على مصلحة الوطن الواحد لكل الطوائف ولكل اللبنانيين».

كما دعت إلى «طمأنة المواطن وتشجيعه للانتقال من فيء الطائفة إلى كنف الدولة المسؤولة عن أمنه واستقراره، وعن توفير مقومات الحياة الحرة

والكريمة له بما في ذلك الضمانات اللازمة للعمل والدراسة والمعالجة الطبية وسواها من الضمانات الاجتماعية».

ومن الملاحظ، أيضاً، أن حوار النقاش يكاد يكون مقتصراً على حلقات فكرية وأكاديمية ضيقة، وأن الثقافة الدينية المشتركة لا تزال وقفاً على النخبة المهتمة، ولم تتحوَّل بعد إلى ثقافة شعبية مفتوحة ومتفتحة، لذلك دعت الورقة الموحدة إلى «خلق حوار دائم بين الدولة والمواطنين، وبين اللبنانيين أنفسهم مسيحيين ومسلمين، على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، عبر تنظيم ندوات وعقد مؤتمرات مشتركة وعبر وسائل الإعلام»، وذلك بهدف «إبراز الروح المدنية والعمل على وأد التعصب الطائفي». ونظمت اللجنة بالفعل عدة لقاءات موسعة في مناطق لبنانية متعددة.

أما حوار التجارب فيحتاج إلى قوة دفع من خلال كتب التربية الوطنية، وإعادة صياغة كتب التاريخ على النحو الذين دعت إليه الورقة الموحدة، ولا تقلِّل هذه الدعوة من أهمية التجربة اللبنانية الغنية من خلال مؤسسات التعليم والعمل، ومن خلال الروابط العائلية والاجتماعية المشتركة، والحاجة ماسة إلى التعجيل بتجاوز الظاهرة غير الصحية بوجود أحزاب وجمعيات طائفية أو مذهبية إلى قيام أحزاب وجمعيات تضم لبنانيين من مختلف الأديان والمذاهب والمناطق، ذلك أن مؤسسات الدولة لا تقتصر على المؤسسات الحكومية الرسمية، ولكنها تشمل المؤسسات الأهلية أيضاً.

ثانياً: الإسلام والمسيحية

ينطلق الحوار الإسلامي ـ المسيحي بصورة عامة من قاعدتين أساسيتين:

القاعدة الأولى دينية، وهي أن الإيمان بالمسيحية رسالة من عند الله، يقع في أساس الإيمان الديني الإسلامي، والقرآن الكريم يقول في الآية 13 من سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.

هذا يعني أن الدين واحد، والشرائع مختلفة من إبراهيم حتى محمد ﷺ. وفي الآية الكريمة دعوة من الله إلى عدم التفرقة على أساس إقامة هذا الدين الواحد. وفي الآية 48 من سورة المائدة يقول القرآن الكريم: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، وهذا يعني

أن تعدد الشرائع لا يعني التفرقة، لأن الله هو مصدر التعددية في الشرائع.

أما **القاعدة الثانية** فسياسية، بمعنى أنه يجب فك الارتباط في الثقافة العامة بين الصراع الإسلامي ـ الغربي والعلاقات الإسلامية ـ المسيحية. فالمسيحية عامة، والمسيحية العربية خاصة ليست خندقاً أمامياً للمعسكر الغربي، ولو أنها وافقت أن تلعب هذا الدور، لما وجد الغرب في الأساس حاجة إلى زرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي. كذلك فإن المسيحيين العرب ليسوا طابوراً خامساً للاستعمار، ولو وافقوا على أن يكونوا كذلك لما دفعوا هم أنفسهم حتى أثناء الحروب الصليبية ثمن وقوفهم إلى جانب إخوانهم المسلمين العرب ضد حملات الغزو، ثم إن المسيحية ليست عقيدة مستوردة من الغرب، إنها كالإسلام واليهودية من تجليات السماء على هذه الأرض. إن محاولات الاستغلال التي تعرَّضت لها المسيحية العربية في الماضي، والتي تجري اليوم، تستهدف ضرب العلاقات المسيحية الإسلامية لإحداث ثغرات في الجبهة العربية يسهل أمام النوايا السيئة التسلل عبرها. رد الفعل الإسلامي يجب أن يعي أهمية عدم الوقوع في هذا الفخ، وبالتالي يجب أن يتخذ رد الفعل منحى توافقياً أخوياً مع المسيحية العربية، وانفتاحاً على المسيحية بصورة عامة، وذلك للوقوف معها في وجه عاديات الزمن الرديء، والقرآن الكريم يقول في سورة المائدة، الآية 82: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، ولنا في القدس قاعدة مشتركة لتعميق التلاقي وتأصيله في مواجهة مخطط التهويد الذي يستهدف المقدسات الإسلامية والمسيحية معاً، وتذويب الحقوق العربية القومية الواحدة.

ثالثاً: لبنان

ليس لبنان، ولا نريده أن يكون مجرد زائد واحد إلى عدد الدول العربية، أو إلى عدد الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة. لبنان يكون رسالة أو لا يكون. ولبنان الرسالة هو لبنان العيش المشترك، وحامل لواء نموذج حضاري يُحتذى في أي مجتمع يتألف من تعدديات دينية أو مذهبية أو حتى إثنية، وبالتالي فإن أي إيذاء لهذه الرسالة يقع على يد اللبنانيين يلحق أذى كبيراً ليس بلبنان وحده إنما بكل هذه المجتمعات الأخرى، وبالتالي فإن الدفاع

عن صيغة العيش المشترك في لبنان وصيانتها من أي عبث ليس مجرد مسؤولية لبنانية فقط ولكنه مسؤولية إنسانية إلى حدٍّ بعيد.

لا شك في أن المجتمع اللبناني المتعدد الأديان والمذاهب يحتاج إلى توافر أمرين أساسيين لضبط استقراره ووحدته:

الأمر الأول هو الحرية. ففي المجتمع المتعدد تشكل الحرية صمام أمان لا غنى عنه. ولا يقتصر مفهوم الحرية هنا على مجرد حق التعبير عن الرأي وممارسة الشعائر، إنها احترام رأي الآخر وطريقة ممارسته لشعائره. وعندما يتربى النشء في أسرة روحية على احترام عقائد وشعائر وطقوس الأسر الروحية الأخرى، تكتمل صورة الحرية وتتعزز مرتكزاتها.

الأمر الثاني هو الديمقراطية. إن المؤسسات الديمقراطية (المبنية في لبنان على قاعدة الميثاق الوطني) تشكل القاعدة التي يقوم عليها التآلف الوطني، وتؤمن الضوابط الجماعية التي توفر المناعة الوطنية ضد آفات التشرذم والتمزق. أما تجاوز الواقع التعددي إلى وحدة تفرضها أي أيديولوجية (قومية أو غيرها) فإنه قفزة في المجهول.

والاحتفاظ بالخصائص الذاتية لكل أسرة روحية لا يعني انعزالاً مذهبياً أو انقساماً دينياً، بل وحدة في تنوع غني. فالجسد اللبناني يتكون من كل الأعضاء، وليس بمقدور أي عضو أن يكوّن الجسد كله.

لا شكَّ في أن المعادلة الوطنية التي يحتاج إليها لبنان، تقتضي مزيداً من الديمقراطية ومزيداً من المحاسبة، بحيث يحاكم المجرم لعمله، فلا يشكل اتهامه أو إدانته اتهاماً لطائفته أو إدانة لها، ولكننا لا نستطيع بحكم مستلزمات النقاهة التي نمرُّ بها، منتقلين من الغلو الطائفي إلى الصحة الوطنية، أن نعتمد أي ديمقراطية. ديمقراطيتنا يجب أن تقوم على ميثاقنا الوطني؛ فنحن دولة ميثاقية في الأساس. ميثاق 1943 الذي قامت عليه دولة ما بعد الانتداب، وميثاق 1989 الذي تقوم عليه دولة ما بعد الحرب الداخلية.

فعلى قاعدة الميثاق الوطني نبني هيكل ديمقراطيتنا، ونبني بالتالي نظامنا السياسي كله.

قد يبدو هذا النسق من الديمقراطية مشوَّهاً أو غير كامل، وقد يبدو النظام السياسي ركيكاً أو هزيلاً، إلا أن ذلك كله يبقى محدود الضرر إذا كان

يوفر سياجاً سليماً للوفاق الوطني الذي يجب أن يبقى فوق كل اعتبار.

من هنا نفهم ما ورد في مقدمة وثيقة الطائف من أن «لا شرعية سلطة تناقض ميثاق العيش المشترك». وبالتالي فإن هدفنا الأسمى ليس البحث عن النظام الديمقراطي الأمثل، بل عن النظام الأكثر توافقاً وتجاوباً مع تركيبتنا المجتمعية، والأكثر قدرة على صيانة مجتمعنا من خطري التفسُّخ والتصادم. نريد أكبر قدر ممكن من الديمقراطية، ولكن سقف هذا القدر من الديمقراطية يحدده الميثاق الوطني الذي ارتضيناه أساساً لعيشنا المشترك، والذي تضمَّنه دستورنا الجديد.

إن مجتمعاً ديمقراطياً حراً تتفاعل فيه الجماعات دون حواجز أو عقد، وتمارس فيه الدولة الدور الأساسي في إزالة الفروقات بن هذه الجماعات مع احترام خصائصها الحميمة، قادر على الارتفاع إلى مستوى الرسالة التي تجعل من لبنان دولة يعتز بها أبناؤه جميعاً.

ثقافة التعدد... والوحدة الوطنية

ترتفع في لبنان علامات استفهام حول علاقة الدين بالثقافة، وحول معنى أن تكون الثقافة وجهاً من وجوه الإيمان بدين معين، وحول كيفية تحقيق وحدة شعب متعدد الثقافات، وحول ما إذا كان هناك، بالضرورة، تناقض جوهري بين الوحدة الوطنية والتعددية الثقافية، ولا يقتصر هذا الأمر على لبنان وحده، ولكنه يشمل المجتمعات العديدة الأخرى في العالم التي تتمتع بتعددية دينية أو عرقية أو ثقافية.

خرج الباحث الأميركي توماس ل. فريدمان، من عمله الطويل في لبنان، بتجربة غنية حاول توظيفها في خدمة المجتمع الأميركي بعد عودته إلى بلاده. ذلك أن هذا المجتمع يتألف من مجموعات من المهاجرين البيض والسود والصفر واللاتينيين «والشرق أوسطيين»، أي أنه مجتمع متعدد الإثنيات، متعدد الديانات، متعدد اللغات، وإن كانت اللغة الإنكليزية هي السائدة، وإن كانت المسيحية (الإنجيلية) هي الأوسع انتشاراً. لم تستطع البوتقة الديمقراطية الليبرالية أن تصهر كل هذا الخليط وأن تجعل منه وحدة صافية، فالاختلاط لم يؤد إلى الاندماج. قللت الحرب الأهلية من حدة التمييز العنصري ولكنها لم تتمكن من إلغائه.

ووفرت حركة مارتن لوثر كينغ، في عهد الرئيس الأسبق ليندون جونسون (وبعد اغتيال جون كندي) في عام 1965، فرصة جديدة لتطوير قوانين المساواة بحيث تستجيب أكثر لمتطلبات العدالة والمساواة بين عناصر

الشعب الأميركي، ولكنها بقيت عاجزة عن استئصال جذور التمييز التي وجدت في التربة الاجتماعية الأميركية جواً صالحاً للنمو. حاولت مسيرة المليون أسود، التي جرت في واشنطن في ديسمبر 1995، التصدي لها ولكن دون أن تحقق نجاحاً يذكر.

هناك خطوط تماس بين السود والبيض، وهناك خطوط تماس أخرى بين السود واليهود، وهناك خطوط تماس بين المهاجرين من أميركا اللاتينية والمكسيك، وبين السود والبيض معاً، ثم إن «الشرق أوسطيين» يشعرون بالضياع وعدم الانتماء، فيما يعيش الصينيون في مدنهم الخاصة داخل المدن الأميركية، ويعيش الهنود الحمر، وهم السكان الأصليون، في معسكرات منعزلة مثل الڤيروس الذي يُعزل تمهيداً لاستئصاله والقضاء عليه.

استخلص الباحث الأميركي فريدمان دروساً من لبنان، ودعا إلى اعتمادها في الولايات المتحدة كمدخل لمعالجة هذه القضية الصعبة والمعقدة.

يقول فريدمان إن تجربته تقوم على قاعدتين أساسيتين هما المدرسة واللغة.

بالنسبة للمدرسة لاحظ فريدمان أن للمسيحيين (الكاثوليك والأرثوذكس) وللمسلمين (السنة ـ الشيعة ـ الدروز) مدارسهم الخاصة بهم، وأن تعدد المدارس، على هذا النحو، جعل عملية اختراق المجتمع اللبناني أكثر سهولة عندما استوجبت الأزمة ذلك، وخرج من هذه الملاحظة بالدعوة، في محاضرة ألقاها حول هذا الموضوع في مؤتمر لأساتذة التعليم في ميامي في عام 1993، إلى وجوب تعزيز المدرسة الرسمية الأميركية، والتأكيد على أهمية نظام التعليم الرسمي في الولايات المتحدة المختلفة. وجد فريدمان في النظام الرسمي «أداة أساسية تساعد على المحافظة على وحدة الشعب الأميركي».

أما بالنسبة للغة، فقد لاحظ فريدمان أن التعليم في لبنان يتم بالفرنسية أو الإنكليزية أو العربية، ولاحظ أيضاً أنه لا توجد لغة تعليم واحدة، وخرج من ذلك بالدعوة إلى تعزيز الاعتماد على الإنكليزية لغة أساسية للتعليم في الولايات المتحدة، أما اللغات الأخرى فدعا إلى تلقينها لتكون مجرد جسر إلى الثقافة الإنكليزية.

القاعدة التي خرج بها فريدمان هنا تقول: «إن التعددية الثقافية هي طريق

إلى الهاوية»، وحذر من: «أن الأميركيين يعانون ما فيه الكفاية من جراء سوء التواصل بالإنكليزية».

تحدث فريدمان عن انطباعات الأساتذة بعد إلقاء محاضرته فقال إنه دهش لما سمعه منهم من أنهم يشاركونه الرأي، ولكنهم يشعرون بأنه لا يجوز سياسياً الإعلان عن ذلك بسبب طغيان موقف أصحاب نظرية احترام التعدديات الثقافية الذين يعتبرون التعددية نهاية في حد ذاتها.

إن الهدف الأسمى هو المجتمع، ولا يمكن المحافظة على وحدة أي مجتمع ما لم تشعر كل مجموعة فيه أنها تشكل حلقة في سلسلة واحدة. إذا كان دور اللغة والثقافة هو تطويع هذه الحلقات حتى تبقى متداخلة ومتكاملة، فإن التعبير عن الخصوصيات الحميمة لكل مجموعة لغةً أو ديناً أو إثنية أمر ضروري في حدِّ ذاته لإغناء الشعور بالذات، وبما يعتز به من متميزات.

وبذلك يمكن تحقيق الهدفين غير المتناقضين في وقت واحد، وهما المحافظة على وحدة السلسلة وتماسكها من دون إلغاء أي حلقة من حلقاتها. إن أي اضطراب أو أي معاناة تصيب أي حلقة تهتز لها حلقات السلسلة كلها. فالشعور المشترك لا يكون إلا إذا كانت الجماعات في حالة تماس دائم بين بعضها بعضاً. فهي، من جهة أولى، تسعى دائماً للإعراب عن تمايزاتها الخاصة، وهي، من جهة ثانية، تلتزم بسقف لممارسة هذا الحق الطبيعي بكيفية تحافظ فيها على الروابط التي تشدها إلى بقية الجماعات في الوطن الواحد. تلك هي جدلية العلاقة بين التنوع والوحدة المجتمعية.

من السهل تركيب مجتمع متعدد أو متنوع على قاعدة «نحن» في مواجهة الآخرين، إلا أن هذا المجتمع يبقى هشاً، سهل الاختراق، وسريع الانحلال. ومن الصعب ـ ليس من المستحيل ـ المحافظة على وحدة مجتمع متنوع على قاعدة التداخل والتكامل بين «نحن» و«هم». ومن مقومات هذه القاعدة إغناء الروابط المشتركة وتكثيفها وإبرازها واحترامها، من دون التنكر للخصوصيات مهما كانت نرجسية.

إن المسافة بين الخصوصيات الحميمة والجوامع المشتركة تجسّدها ثقافة التعدد، وهي ثقافة يشكل الاعتراف بالآخر، واحترامه والانفتاح عليه والتكامل معه، عمودها الفقري. تقوم ثقافة التعدد على نظام معرفي وقيمي ومفاهيمي

مشترك، أو على الأقل لا يتناقض مع النظام الذي تقوم عليه الخصوصيات الحميمة. ومهمة هذه الثقافة هي هزُّ الثوابت والمعتقدات والتصدي للمسلمات من اليقينيات الخاصة التي تتنافر مع الثوابت ومع المسلمات الوطنية المشتركة، وبالتالي منع انتصاب أسوار ثقافية أو عقيدية مقفلة على مفاهيم تمنع الاحتكاك بها، وتعطل عملية مقارعتها الحجة، أو حتى مجرد وصول الضوء إليها.

إذا كانت خلفية التعدد الثقافي تجسد إرثاً من تراكمات الاستخفاف بالآخر، أو الحذر منه أو عدم الثقة به، فإن ثقافة التعدد تجسد، على العكس من ذلك، حالة انفتاح واحترام وثقة به، فهي بالتالي تشكل صمام الأمان للتعدد الثقافي، وضابطاً حكيماً لتجسدات هذا التعدد وتجلياته. يبقى التعدد الثقافي مقبولاً في المجتمع الواحد إذا توفرت له مظلة ثقافة التعدد، ولكن إذا تمرد التعدد الثقافي على ثقافة التعدد، وإذا بادر إلى خرقها إنكاراً لها أو استعلاءً عليها، عند ذلك يستقوي التعدد على الوحدة المجتمعية ويتحول إلى مشروع انسلاخي مع وقف التنفيذ.

تقول وثيقة اليونسكو إن الحرب تبدأ في عقول الناس، ولذلك تشدد المنظمة الدولية على أن الثقافة هي الوصفة الناجعة للسلام. يؤكد ذلك أن الحروب التي تفجرت خلال هذا القرن أشعلتها صراعات حول العقائد والأفكار والهويات.

بعد اندحار النازية والفاشية، وبعد سقوط الشيوعية، تعتلي المسرح الصراعات الإثنية خاصة إذا كانت مرتبطة بخلفية دينية على النحو الذي يجري في البلقان والقوقاز وشبه القارة الهندية وإيرلندا، أو بخلفية قبلية، على النحو الذي يجري في أفريقيا وأفغانستان، أو بخلفية لغوية على النحو الذي يجري في كندا وبلجيكا وأسبانيا وغيرها. . .

هناك اعتقاد مخادع بأن النقاء (الديني أو العرقي أو اللغوي) كفيل بتحقيق السعادة والاستقرار والازدهار، وأن التعدد هو بمثابة قنبلة موقوتة قابلة للانفجار وتدمير كل الإنجازات والأحلام. تطرح نظرية المجتمع المادي المتفلّت من أي ارتباط عقيدي معادلة لفك الارتباط بين التقدم والنقاء، وتقدم المادية اللاعقائدية على أنها المدخل إلى السلام. في كتاب «الحرب والقرن العشرين: دراسة في الحرب والضمير المعاصر»، للكاتب البريطاني كريستوفر كوكر، مقدمة للدبلوماسي البريطاني المتقاعد روبرت كوبر يقول فيها: «إن

عملية التحديث التي جرت في أوروبا، في القرن الأخير، حملت معها الغربة والضياع، وجرى البحث عن الخلاص في المطلقات، وفي الجماهير، وفي الحروب، وربما يكون من السهل إثارة مشاعر الخوف من الإسلام (رغم أن معظم المجتمعات الإسلامية غير ناجحة سياسياً واقتصادياً وهي بالتالي لا تشكل تهديداً يذكر) لمجرد أن الإسلام يمثل فكرةً، في الوقت الذي لا نقدم نحن بل ولا نملك أي فكرة».

إن من إيجابيات تحدي الأفكار المشوشة أن الثقافة والانفتاح على الآخرين يمكن أن يحررا الناس مما تختزنه ذاكرتهم من ثقافة الحقد، ومن مشاعر الألم بالاقتناع، وهذا التحرر هو في حدِّ ذاته السد الذي يقف في وجه مجازر التطهير العرقي كما حدث في أفريقيا (بوروندي)، أو التطهير الديني كما حدث في البلقان (البوسنة)، أو التطهير العرقي والديني معاً كما حدث في القوقاز (الشاشان).

إن الثقافة التي تربي على الاختلاف والتمايز لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الاختلاف والتمايز، أما الوحدة في الدولة المتعددة دينياً، مثل لبنان، أو المتعددة إثنياً، مثل الولايات المتحدة، أو المتعددة لغوياً، مثل الهند وبلجيكا، فإنها تصبح هي الضحية.

ذكر نداء السينودس في البند 30 (الفقرة ج): «إن ما يكوِّن هوية بلادنا، كما يكوِّن هوية كل بلد هي أولاً ثقافته، وهي ثقافة بلد متعدد الجماعات، وبالتالي متنوع الثقافات، إنه بلد ينتمي إلى المشرق العربي، وينفتح في آن على باقي العالم».

في الأساس تؤكد المواثيق الدولية وفي مقدمها ميثاق حقوق الإنسان على الحق الثقافي بما في ذلك حق التعليم، وحق المشاركة في الحياة الثقافية إنتاجاً واستهلاكاً، وحق الهوية الثقافية. هذا الحق الأخير وضع في الأساس لضمان حقوق الأقليات في الأمبراطورية العثمانية المندثرة، ثم استخدم للمحافظة على شعوب وأعراق بدائية كان يخشى عليها من الانقراض أو التذويب، خاصة في أفريقيا وأميركا اللاتينية، وهو أخذ أبعاده الحديثة بعد أفول الاستعمار وحصول أمم كثيرة على استقلالاتها، وجدت هذه الأمم أن الاستقلال السياسي يبقى هلامياً ما لم يكن مقروناً باستقلال ثقافي يؤكد شخصية الأمة، ويحفظ لها تراثها وتاريخها وخصوصياتها.

ومع تصغير مساحة العالم من خلال التقدم التقني الذي حققته وسائل الاتصال والتواصل، فإن الإغراق الإعلامي ـ الثقافي يكاد يطغى على قوة المناعة الذاتية لدى هذه الأمم للدفاع عن ثقافاتها وتقاليدها، وبالتالي عن شخصياتها من حملات الغزو الثقافي التي تتعرض لها.

هناك تباين حادٌ في وجهات النظر بين أصحاب نظرية الدفاع عن الحرية المطلقة لتدفق المعلومات، وأصحاب نظرية الدفاع عن حق المحافظة على الذات الثقافية.

الوضع في لبنان لا ينطبق على أيٍّ من هذه النماذج. فلا توجد أقلية تطالب باسترجاع حق ذاتي تغتصبه أكثرية معادية، ولا توجد أقلية يخشى عليها من الانقراض أو الذوبان، ولا توجد أقلية تسعى للانسلاخ والاستقلال.

صحيح أن في لبنان تعدداً دينياً ومذهبياً لا يمكن صيانته من دون احترام حق الاختلاف والتباين، وصحيح أن الإيمان الديني والمذهبي ينمّي أعرافاً وتقاليد ويكوّن ذوقاً جماعياً خاصاً بأهله، وصحيح أن هذه الأعراف والتقاليد والأذواق هي، في حدِّ ذاتها، جزء من البنية الثقافية؛ إلا أن الصحيح كذلك هو أن الهوية الثقافية أمر آخر، إنها العمود الفقري لوحدة أي مجتمع، بها يكون واحداً، ويستحيل بتعددها المحافظة على وحدة الدولة والسلطة. فالهوية هي الصفة العامة الجامعة. فإذا كانت هناك تعددية في الهوية فإن ذلك يعني تعددية في الكيان، بحيث تمثل كل هوية مجتمعاً كيانياً خاصاً.

التباين في الثقافة الدينية ليس محصوراً بين المسلمين والمسيحيين. هناك تباين بين المسيحيين الكاثوليك والمسيحيين الأرثوذكس، والبروتستانت والسريان، الخ. وهناك تباين المسلمين السنَّة والشيعة والدروز والعلويين، بل هناك تباين بين المسلمين السنَّة على اختلاف مذاهبهم الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية الخ.. فإذا كان التباين والاختلاف يرسمان حدود الهوية الثقافية فإن الله وحده يعرف كم هي عدد الهويات الثقافية في لبنان العشرة آلاف كيلو متر مربع!.. لذلك فإذا كان من حق كل أسرة روحية أن تمارس حقها في الاستمتاع بنرجسيتها الدينية الخاصة، وإذا كان من واجب كل الأسر الروحية الأخرى أن تحترم هذا الحق، فإن ذلك يجب أن لا يعني تحويل الاختلاف إلى خلاف، والتوافق إلى طاحونة تفتت الشخصية الجماعية للأمة.

لا توجد حقوق مطلقة، متفلتة من الضوابط أو متجاوزة لحقوق الآخرين. إن للإنسان حقاً، وللشخصية الجماعية حقاً. في المجتمعات المتعددة هناك حق التمايز وهناك حق التماسك، وليس صحيحاً أبداً أنهما خطان متوازيان لا يلتقيان. تكمن نقطة التقائهما في ثقافة التعدد، وهي ثقافة قلّة حتى الآن، وما لم تصبح ثقافة عامة ومتأصلة فإن الهوة بين المفاهيم المختلفة لمعنى التعدديات الثقافية سوف تزداد عمقاً واتساعاً.

الفصل التاسع

السينودس من أجل لبنان

في الثاني عشر من حزيران ـ يونيو 1991، أعلن البابا يوحنا بولس الثاني، أمام بطاركة الكاثوليك اللبنانيين، قراره عقد مؤتمر راعوي خاص بلبنان «لإعادة بناء لبنان بعد حرب استمرت ست عشرة سنة». وفي الرابع والعشرين من كانون الثاني ـ يناير ـ 1992، عيَّن البابا مجلس أمانة لتنظيم هذا المؤتمر من عدد من المطارنة الذين يمثلون الكنائس الكاثوليكية وهم: غي نجيم ويوسف بشارة (موارنة)، حبيب باشا وكيريلوس بسترس (روم كاثوليك)، مخايل جميل (سريان كاثوليك)، باتاكيان (أرمن كاثوليك)، بولس بسيم (لاتين) ولويس الديراني (كلدان)، وعهد إلى المطران بشارة الراعي (موارنة) دور المنسق المحلي.

وفي العشرين من حزيران ـ يونيو ـ 1992، وجَّه البابا رسالة إلى المسيحيين اللبنانيين أعلن فيها أنه اختار موضوعاً للمؤتمر بعنوان: «المسيح رجاؤنا بروحه نتجدَّد، ومعاً نشهد للمحبة». أطلق على هذا المؤتمر اسم السينودس؛ وهي كلمة لاتينية تعني العمل معاً والسير معاً. وقد سبق للفاتيكان أن نظم منذ عام 1967، برئاسة البابا بولس السادس، تسعة مؤتمرات من هذا النوع لبحث قضايا دينية، أو لبحث أوضاع مسيحيين في قارة معينة، ولكن كان السينودس حول لبنان الأول من نوعه يُخصَّص لدولة.

بدأت الخطوة العملية الأولى بوضع 72 سؤالاً حول قضايا روحية وعامة مختلفة عهد إلى جميع الأبرشيات في لبنان بتجميع الأجوبة عليها لتكون أساساً

لصياغة ورقة العمل الأولى. بعض تلك الأسئلة كان يتعلّق بقضايا كاثوليكية، وبعضها الآخر كان يتعلق بالعلاقات الروحية بين الكاثوليك وغير الكاثوليك في لبنان، وبعضها الثالث كان يتعلق بالعلاقات الوطنية بين المسلمين والمسيحيين.

بعد تجميع الأجوبة، تولّى المطران بشارة الراعي، مطران جبيل للموارنة، صياغة أول مشروع لورقة العمل، ودعا المطران جورج خضر، مطران جبل لبنان الأرثوذكسي، كما دعاني، بصفة شخصية، إلى لقاء عُقد في منزل المطران خضر في برمانا صيف 1992، لمناقشة مشروعه.

بعد قراءة النص سجّلتُ عدة اعتراضات صريحة ومباشرة، وانتقدت التوجه العام للمشروع اعتقاداً مني بأنه تناول موضوع العلاقات الإسلامية ـ المسيحية من منطق «نحن وهم». وأيّدني، في ذلك، المطران خضر الذي سجّل بدوره اعتراضات عديدة أخرى.

تقبّل المطران الراعي انتقاداتنا بروح عالية وبإيجابية، وتمنّى عليّ أن أعيد كتابة مشروعه: «بالصيغة التي ترضي الأرثوذكس وتلقى قبولاً عند المسلمين»، وذلك من دون أن أنسى أن المشروع، هو في الأساس، صادر عن مرجعية مارونية كاثوليكية.

استعنتُ بمقترحات كتبها المطران جورج خضر، وكتبتُ نصّاً جديداً طرحته في اجتماع ثانٍ، عقدناه في منزل المطران خضر في برمانا؛ في هذا الاجتماع وافق المطرانان على الصيغة الجديدة التي أُرسلت، فيما بعد، إلى الفاتيكان لتكون أول لبنة مشتركة مسيحية ـ مسيحية، ومسيحية ـ إسلامية في صرح السينودس.

كنتُ أعتقد أن هذه العملية سرّية ومحصورة بثلاثتنا فقط، إلى أن فوجئت بعد فترة بالمطران مخايل الجميل، مطران السريان الكاثوليك، يتّصل بي ليهنئني على أمرين، أولاً على المشاركة في الإعداد للسينودس، من الجانب الوطني الإسلامي ـ المسيحي، ثم على ارتياح الفاتيكان للصيغة التي توليتُ إعدادها وتقبُّله لما ورد فيها.

بعد ذلك صدرت وثيقة الخطوط العريضة (Lineamenta) في عام 1993، إلا أنها جاءت موسّعة ومختلفة عن الصيغة التي توافقنا عليها في برمانا. وقد

أثارت تلك الوثيقة تحفُّظات مسيحية أرثوذكسية وإسلامية معاً، مما انعكس سلباً على مبدأ المشاركة في متابعة الإعداد للسينودس. فالأرثوذكس أعربوا عن اعتقادهم بأن المؤتمر كاثوليكي وأنهم بالتالي غير معنيين به مباشرة، وأعرب المسلمون عن اعتقادهم بأن المؤتمر مسيحي وأنهم بالتالي خارج دائرته تماماً.

وفي عام 1995، صدرت وثيقة ورقة العمل للمؤتمر (122 صفحة). ففيما يتعلق بالكاثوليك قالت الوثيقة[1]: «إن المسيحيين الكاثوليك لم يكونوا وحدهم في مجابهة معضلاتهم فيما هم يبذلون الجهود ليتطهَّروا ويكتشفوا مجدداً جذور إيمانهم. عرفوا أن بإمكانهم الاعتماد، من الآن فصاعداً، على المساعدة الأخوية والصلاة اللتين يقدمهما لهم كل إخوتهم في الإيمان الذين كانوا، في كل مكان في العالم، يهتمُّون بمصيرهم، تلبيةً لطلب صريح من البابا، أبيهم جميعاً: وهو جمعية خاصة تتعلق بالكنيسة الكاثوليكية في بلد معين، لكنه يجب أن يُشرك، وإن بطريقة غير مباشرة، كل مؤمني الكنيسة الجامعة... إن الكنيسة جمعاء مدعوة إلى أن تعيش هذه المبادرة في روح تضامن عميق».

وفيما يتعلّق بالعلاقات بين الكاثوليك وغيرهم من المسيحيين قالت الوثيقة[2]: «إن الكنيسة الجامعة في لبنان هي حاضرة على الأخص بشكل كنائس بطريركية ذات قوانين خاصة وشخصية، وسواء كانت أرثوذكسية أو كاثوليكية، فهي ترجع إلى الأزمنة الأولى للتبشير المسيحي، وهي تشهد بأمانة الكنائس الرسولية القديمة. لقد ورثت بالنتيجة ماضياً طويلاً من القداسة والمصائب والمحن، كانت أعظمها، دون شك، الانقسامات الماضية التي تشكل اليوم عذابه الأكبر. في نهاية القرن العشرين هذا، وافتتاح الألف الثالث، تحسُّ هذه الكنائس نفسها مدعوَّة، مع كل إخوتها المسيحيين في العالم أجمع، إلى أن يلتئموا في الوحدة، ويوحِّدوا في المحبة والحق نعاجهم المشتتة حتى تكتمل أخيراً رغبة المسيح الحارة عشية موته. على أي حال، إن هذه الكنائس تسهم إسهاماً كبيراً في الكنيسة الجامعة بتنوُّع طقوسها وتقاليدها اللاهوتية والروحية. مظهرها الحاضر يبيِّن أن الوحدة ليست بحثاً في التماثلية،

---

(1) سينودس الأساقفة ـ الجمعية الخاصة من أجل لبنان ـ المسيح رجاؤنا: بروحه نتجدَّد، ومعاً للمحبة نشهد ـ وثيقة العمل ـ حاضرة الفاتيكان 1995 ـ ص8.

(2) المرجع السابق ـ ص21.

بل في هبة المحبة المتبادلة للذات ولخيورها. الله المحبة، أما هو ثالوثٌ واحدٌ ومتعدّد».

أما فيما يتعلّق بالعلاقات المسيحية ـ الإسلامية، قالت الوثيقة[1]: «الرجاء المسيحي تدعمه القيم المشتركة لكل التوحيديين.. ومنهم المسلمين الذين تنظر إليهم الكنيسة بكل احترام... «فالشرق الأوسط» كان وما زال المهد التاريخي للإيمان بالله. والصلاة والصوم والحج، وهي الوصايا التقليدية للتقوى، مشتركة لكل المؤمنين وتجمع بين الديانات الثلاث، مع تعزيز وتنمية القيم الاجتماعية للتضامن والسلام والضيافة والعدالة والخير»...

بلورت الوثيقة الإطار السياسي الأول لمفهوم الفاتيكان للصيغة اللبنانية، وذلك عندما وصفت لبنان بأنه[2] «ملتقى الشعوب وفسيفساء الطوائف التي اختارت العيش معاً، رغم اختلافاتهم العرقية، اللغوية والدينية، ليعطوا للعالم الدليل على أن قيام ديمقراطية متعددة الطوائف، تحترم حقوق الجميع، ما يزال ممكناً اليوم رغم المآسي التي شهدها التاريخ الحديث. وفي دستور الجمهورية اللبنانية المعدل في 21 أيلول 1990، أن لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية، تقوم على احترام الحريات العامة وفي طليعتها حرية الرأي والمعتقد. هذه الديمقراطية البرلمانية تقوم على العدالة الإجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين من دون أي تمييز أو تفضيل، أما الحوار الوطني، الذي يعود اليوم الجميع إلى استئنافه، فيجب أن يقوم على هذه القيم الإنسانية الثابتة التي تمزج بشكل متناسب بين الوحدة والتنوُّع..».

وفيما يتعلق بجدلية العلاقة بين الدولة والكنيسة، وضعت وثيقة العمل إطاراً عاماً وواضحاً لهذه العلاقة، فذكرت[3]: «إن التمييز بين الكنيسة والمجتمع السياسي جرى توضيحه عند إنشاء دولة لبنان الكبير سنة 1920، وعند نيل البلاد الاستقلال سنة 1943. ومع ذلك، لم يكن التعاون المنسجم بين الكنيسة والدولة مدروساً كفايةً، ولا مطبَّقاً بعقلانية في واقع الحياة اليومية. هذه الملاحظة تحتاج إلى إنجاز على ضوء المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي

---

(1) سينودس الأساقفة ـ الجمعية الخاصة من أجل لبنان ـ المسيح رجاؤنا: بروحه نتجدَّد، ومعاً للمحبة نشهد ـ وثيقة العمل ـ حاضرة الفاتيكان 1995 ـ ص21.

(2) المرجع السابق ـ ص113.

(3) المرجع السابق ـ ص105.

يؤكد بهذا الخصوص أنه «لفي بالغ الأهمية أن ننظر نظرة صحيحة إلى العلاقات بين الجماعة السياسية والكنيسة، لا سيما في المجتمعات التعددية. ويجب أن نميِّز، بموضوح تام، بين الأعمال التي يقوم بها المؤمنون، أفراداً أم جماعات، باسمهم الخاص، كمواطنين مسترشدين بضميرهم المسيحي، والأعمال التي يقومون بها باسم الكنيسة وبالاتحاد مع رعاياهم». لم تكن الحروب الممتدة من سنة 1975 إلى سنة 1991 لتسهِّل تقدم هذا التفكير. فيما حصل، مع تقلُّص دور الدولة، يبدو كرجعة إلى الوراء، ولكن الثقة بمشاركة الجميع في إعادة البناء ناتجة اليوم عن أن اللبنانيين أنفسهم فتحوا مجدداً وسوية الطريق في بلادهم أمام إعادة نهوض القيم الأساسية لكل بناء سياسي: حرية الاعتقاد المطلقة، الإقرار بوجود الفوارق الدينية وشرعيتها بالتساوي بين الجميع، حق المشاركة في الحكم في إطار غير تنافسي بل توافقي، وحق الإقامة والتنقل في كل أنحاء البلاد. وإذا حُرِم لبنان من هذه القيم، فَقَدَ وجهه المميَّز، ولم يعد حامل رسالة خاصة في المنطقة وفي العالم. وبقدر ما يتمتع الجميع بهذه القيم، يتأكد وجود البلاد وجوهرها.

يعود للمواطنين اللبنانيين، إذاً، أمر ترتيب مشاكلهم السياسية بوعي، ولهم حريتهم في إنشاء أحزاب، ومحاورة شركائهم في هذا المجال. لا تفرض الكنيسة عليهم التنكُّر لحقوقهم الإنسانية والوطنية، ولكن، على الكنيسة أن تتدخل، متضامنة مع كل المواطنين، عندما يتعلق الأمر بحقائق وقيم ذات صلة بمعنى الوجود المطلق، وهكذا تتميز الكنيسة عن الجماعة السياسية. فليس للكنيسة حدود زمنية، وليست وثيقة الارتباط بأي نظام سياسي. موقعها في الخارج يمكِّنها من الحكم على كل الأمور، باسم الإنجيل، انطلاقاً من مؤشر وحيد هو احترام الإنسان، والأخوة المتضامنة مع الجميع».

المشاركة الإسلامية في السينودس

منذ الخطوة الإعدادية الأولى للسينودس، كانت هناك رغبة علنية واضحة من البابا يوحنا بولس الثاني في أن يشارك المسلمون اللبنانيون في المؤتمر، وقد نقل هذه الرغبة البابوية السفر البابوي السابق في لبنان بابلو بوانتي، وعدد من البطاركة والمطارنة الكاثوليك إلى المرجعيات الروحية الإسلامية في دار الفتوى (المفتي الشيخ محمد رشيد قباني)، وفي المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى (الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين)، وفي مشيخة عقل الطائفة الدرزية (الشيخ بهجت غيث)، وجرت عدة لقاءات واجتماعات لشرح أهمية المشاركة وأبعادها. وقد أبدت هذه المرجعيات الإسلامية، في المرحلة الأولى، تجاوباً متحفظاً، إلا أنها اعتذرت، من حيث المبدأ، عن عدم الإجابة على الأسئلة الواردة في القسم الرابع من مجموعة الـ 72 سؤالاً، وحصرت مشاركتها في إبداء وجهة نظر عامة من قضية الوفاق الوطني والعيش المشترك من دون أن ترتبط مسبقاً بصيغة تصدر فيما بعد عن مرجع ديني مسيحي غير لبناني تلزمها أو تلتزم بها، وبنت المرجعيات الإسلامية موقفها على أساس أن مؤتمر السينودس هو مؤتمر كنسي، يُعقد في الفاتيكان، وبدعوة من البابا وبرئاسته، أي أنه بمحصلته مؤتمر مسيحي ديني لا يعقل لمرجعيات دينية إسلامية أن تكون جزءاً منه، أو أن تلزم نفسها بما يمكن أن يصدر عنه.

عزّز هذا التحفظ سؤال طرحناه على أنفسنا وهو؛ ماذا يكون موقفنا إذا بادرت إيران مثلاً إلى تنظيم مؤتمر راعوي حول لبنان بالتعاون مع المرجعيات الإسلامية الشيعية اللبنانية؟.. أو إذا بادر الأزهر في مصر إلى تنظيم مؤتمر

مماثل بالتعاون مع المرجعيات الإسلامية السنيّة؟.. إذا قبلنا دعوة البابا، كيف نبرِّر عدم استجابتنا لمثل هذه الدعوات؟.. وإذا قبلناها، كيف نحافظ على عدم تبعيتنا الدينية إلى مرجعيات خارجية؟.. ثم ماذا يحلُّ بوحدتنا الوطنية عندما نكرِّس وضعاً تتوجه بموجبه كل مجموعة دينية، من المجموعات التي تتشكل منها العائلة اللبنانية، إلى ما وراء الحدود بحثاً عن حل لمشكلة، أو عن دعم لموقف، أو عن مؤازرة في مرحلة من مراحل السيرورة التاريخية للوطن؟..

كان التغلب على هذا التحفظ يحتاج إلى جرأة أدبية عالية، وإلى بُعد نظر واسع وإلى ثقة بالنفس قوية. بلوَرَ قرار الانتقال من التحفظ إلى الاستجابة عدة أمور من أهمها:

1 ـ التأكيد بأن السينودس يعقد من أجل لبنان، وليس من أجل كنيسة لبنان فقط.

2 ـ إن أمام المؤتمر قضايا وطنية تهم اللبنانيين جميعهم وليس قضايا كنسية تهم المسيحيين وحدهم.

3 ـ يمكن الاحتفاظ بمسافة بين كَنَسية المؤتمر والمرجعية الإسلامية من خلال الاتفاق على حضور الوفد الإسلامي كمراقب وليس كمشارك.

4 ـ إن الحضور الإسلامي يعكس الحرص الإسلامي على تأكيد وحدة العائلة اللبنانية، وهو حرص تؤكده أيضاً دعوة المسلمين للمشاركة.

5 ـ بما أن للفاتيكان دوراً مؤثراً على الكنيسة الكاثوليكية وعلى الكنيسة المارونية، وبما أن الفاتيكان، على لسان البابا نفسه، يعتبر لبنان رسالة وليس مجرد مساحة جغرافية، فإن الحضور الإسلامي يعزز من صدقية هذا الشعار، ويؤكد التجاوب الإسلامي معه والمساهمة في بلورته.

6 ـ إذا اعتذر المسلمون عن قبول الدعوة، من حيث المبدأ، فإن المؤتمر الراعوي سوف يُعقد من دونهم بالتأكيد، ولكن سيكون لانعقاده بُعْدٌ سياسي ونكهة دينية مختلفَيْن، مما قد يضع البابا أمام اجتهادات وتأويلات قد تسيء إلى الروح الوفاقية التي يُعقد أساساً من أجلها، ثم إن الاعتذار، في حدِّ ذاته، قد يُحْمَل على غير محمله، وقد يوضع في إطار إنكفائية إسلامية غير مقصودة عن الجهد المشترك مع المسيحية لإعادة بناء لبنان الرسالة والنموذج.

7 ـ تدخُّل رئيس الحكومة، الأستاذ رفيق الحريري، مع المرجعيات الإسلامية الدينية وإقناعها بأهمية البعد الوطني للمؤتمر إلى جانب بعده الديني المسيحي، وبأهمية نقل وجهة النظر الإسلامية حول أسس العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين حتى لا تأتي قرارات المؤتمر وتوصياته وتوجهاته بمعزل عن وجهة النظر الإسلامية الوطنية، فكان القرار الإسلامي بالحضور.

وهكذا تمَّ التوافق بين الفاتيكان والمرجعيات الإسلامية، عبر السفير البابوي المونسينيور بابلو بوانتي، على أن يحضر وفد إسلامي سني - شيعي - درزي. ورغم أن الفاتيكان أرادها دعوة للمشاركة المفتوحة، فقد رغب المسلمون في أن تكون المشاركة بصفة مراقب[1]. مع ذلك مارس الوفد مهمة مزدوجة:

المهمة الأولى داخل المؤتمر، تمثلت في إلقاء الكلمات في الجلسات العامة، وفي حضور جلسات اللجان والمشاركة في نقاش جميع القضايا المطروحة.

أما **المهمة الثانية** فكانت خارج المؤتمر، وقد تمثلت في عقد جلسات عمل مع عدد من الكرادلة مثل الكاردينال سيلفستريني، والكاردينال أرينزي، والكاردينال أتشيغاري، والكاردينال سكوت. لم تكن تلك جلسات مجاملة، بل كانت جلسات عمل مطولة.

وخلال لقاء العشاء الخاص مع البابا، في مقرِّه الخاص في الفاتيكان، تحوّل اللقاء إلى حوار ودِّي مكّننا من أن نشرح للبابا، يوحنا بولس الثاني، وجهة النظر الوطنية الإسلامية من العديد من القضايا اللبنانية الخاصة والعربية العامة، وأن نجيب على أسئلته المحددة حول بعض القضايا التي تتعلق بالفقه الإسلامي، وبالمناسك الدينية الإسلامية، وبالعلاقات الإسلامية المسيحية على المستويين اللبناني والعربي.

وضعتنا هذه المشاركة، داخل السينودس وخارجه، في أجواء إيجابية جداً، وشجعتنا على أن ننقل إلى المرجعيات الإسلامية السياسية والدينية في بيروت أصداء الانفتاح الصادق والعزيمة القوية من أجل العمل على تعزيز الوحدة الوطنية، ومواجهة تحديات المستقبل بإرادة واحدة. بدَّدت هذه

---

(1) تشكَّل الوفد الإسلامي من: محمد السماك ممثلاً دار الفتوى، وسعود المولى ممثلاً المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، وعباس الحلبي ممثلاً الطائفة الدرزية.

الانطباعات التي نقلتها أجهزة الإعلام اللبنانية التحفُّظات الإسلامية السابقة، واستقطبت حول السينودس معظم الذين كانوا متحفِّظين أو حتى رافضين له من حيث المبدأ.

لقد كنا شهوداً على تصميم السينودس بتوجيه من البابا، ومن خلال وقائع جلسات اللجان، على أن يعطي قوة دفع جديدة للوفاق الوطني بعد الطائف، مستدلِّين على ذلك من نص وثيقة العمل، ومن الكلمات التي أُلقيت في الجلسات العامة بما فيها، وخاصة كلمات بعض السادة الكرادلة، ومن المناقشات التي جرت في اللجان والمقترحات التي بلورتها، ومن اللقاءات مع البابا نفسه، ومع الكرادلة وما أبدوه من تفهم وتجاوب مع وجهات النظر التي أبديناها أمامهم.

كنا دائماً نكبح جماح التمنيات بالحسابات الواقعية، وكانت هذه الحسابات الواقعية تقودنا دائماً إلى أن السينودس ليس هدفاً في حدِّ ذاته، بل وسيلة، وأنه ليس منبراً لتسجيل المواقف، بل قاعدة للانطلاق نحو التغيير، وأن من مقومات التغيير تحقيق تفاهم وطني يعطي الكنيسة اللبنانية دوراً مميزاً في صناعة الشرق الأوسط الجديد.

أردنا، من وراء الاشتراك في السينودس، أن يكون هذا المؤتمر الذي عُقد على أعلى مستوى مسيحي، وبعد إقرار وثيقة الوفاق الوطني في الطائف 1989، عنواناً لمرحلة جديدة في التاريخ القومي للمسيحيين العرب؛ ذلك أن للمسيحية العربية دوراً رائداً في صناعة الفكر القومي العربي، وفي إحياء التراث الثقافي العربي، وفي المحافظة على اللغة العربية في المراحل الأخيرة من حياة الرجل العثماني المريض. في تصوُّرنا أن المسيحية العربية مدعوة اليوم لأن تلعب دوراً مماثلاً، وهذا ما دعونا إليه بصدق في السينودس، الأمر الذي لقي من البابا نفسه تقديرا وتثميناً عالياً. وقد أوضحنا كيف أن التسويات السياسية العربية ـ الإسرائيلية، التي عُقدت حتى الآن، ترسي قواعد لشرق أوسط جديد، وكيف أن هذه التسويات التي فرضتها حالة اللاتوازن الاستراتيجي، بين إسرائيل والدول العربية، لا تلقى قبولاً شعبياً، لذلك فإن من الطبيعي أن تبادر إسرائيل إلى صيانتها وتعزيزها من أجل المحافظة على ديمومتها، باختراق الرفض العربي لها، ويمدَّ جسور حوارية مع الأكثرية العربية الإسلامية في المنطقة. وحذَّرنا من أن هذا النوع من الحوار، الذي بدأت

الاتصالات التمهيدية له منذ بعض الوقت، يقفز من فوق المسيحية العربية، ويهمشها، بل ربما يكون على حسابها، ذلك أن مصلحة إسرائيل هي مع الأكثرية الإسلامية التي تريد أن تحصل على الاعتراف منها بالكيان الإسرائيلي وليست مع المسيحية التي تنكرها في الأساس.

من أجل ذلك دعونا في السينودس[1] إلى أن يرتفع المؤتمر الراعوي إلى

---

(1) فيما يلي نصُّ الكلمة التي ألقيتُها في جلسة افتتاح السينودس في الفاتيكان:

يشرّفني أن أمثّل دار الفتوى في هذا اللقاء الروحي ـ السينودوس ـ من أجل لبنان. إن حضوري هنا يعكس اهتمامين أساسيين: **الاهتمام الأول** هو الإيمان بوحدانية الله، **والاهتمام الثاني** هو الإيمان بوحدة لبنان.

بالنسبة للاهتمام الأول، فإن الإسلام يعلّمنا بأن الدين واحد، وأن التشريعات الدينية مختلفة. وكما تعرفون فإن الإسلام، كدين، لم يبدأ مع النبي محمد ﷺ ولكنه بدأ مع النبي إبراهيم عليه السلام. إن سيدنا محمد لم يكن المسلم الأول ولكنه كان آخر الأنبياء المسلمين. إن الإسلام، أي الخضوع لله، يتضمن كل تلك المسيرة الدينية من إبراهيم إلى محمد عليه السلام. من أجل ذلك يشكل الإيمان بالسيد المسيح عاملاً من عوامل الإيمان في العقيدة الإسلامية، والقرآن الكريم يقول في سورة الشورى، الآية 13: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

أما بالنسبة للاهتمام الثاني فإن المقصود هو أن اللبنانيين جميعهم يشكلون شعباً واحداً. وإذا كنا نتألف من ثمانية عشر عائلة روحية فإن ذلك ثروة وغنى في حدّ ذاته. إن المحافظة على وحدة دولتنا في إطار هذه التعددية الدينية هي مسؤولية لبنانية بقدر ما هي مسؤولية إنسانية. من أجل ذلك ننظر، باحترام وتقدير كبيرين، إلى مبادرة الحبر الأعظم البابا يوحنا بولس الثاني، ونشعر أن علينا واجب الإعراب عن الامتنان لكل من قدم لنا يد المساعدة أثناء محنتنا السابقة، وخاصة إلى سوريا وإلى الدول العربية الشقيقة الأخرى، ولنا وطيد الأمل في أن يشكل هذا السينودوس قفزة جديدة، بعد وثيقة الطائف وعلى قاعدتها، باتجاه ترسيخ الوحدة الوطنية في لبنان، وباتجاه تحقيق تفاهم وتعاون إسلامي ـ مسيحي أوسع في العالم الإسلامي وفي العالم أجمع.

من أجل بلوغ هذا الهدف النبيل، علينا أن نضخَّ مزيداً من الدم في شرايين الحوار الوطني، الحوار الذي يعني البحث عن الحقيقة في وجهة نظر الآخر، ذلك أن الحقيقة ليست آحادية، وإيمان الواحد منا بأنه على حق لا يعني بالضرورة أن الآخر على خطأ.

هناك عدة أنواع من الحوار يجب أن نركّز عليها:

1 ـ حوار الحياة، بمعنى الاهتمام بالآخر، وتفهُّم خلفياته والاعتراف بخصوصياته المميزة، ومن ثم بناء حياة مشتركة معه على قاعدة التفهُّم والاعتراف والاحترام.

2 ـ حوار العمل، بمعنى العمل معاً اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، ومن شأن ذلك أن يساعد على إرساء علاقات مشتركة على قاعدة المصالح المتداخلة.

3 ـ حوار النقاش، ليس بهدف توحيد الأديان، بل بهدف جعلها شفافة أمام الآخرين، وبهدف =

مستوى مواجهة هذا التحدي المصيري، وأن يبادر إلى درس استراتيجية للكنيسة العربية تنطلق من العمق التاريخي للكنيسة اللبنانية، وأكدنا على أن للمسلمين مصلحة أساسية في ذلك. فعلى الصعيد الوطني اللبناني لا حياة للمسلمين دون المسيحيين، ولا للمسيحيين دون المسلمين. وعلى الصعيد القومي، فإن المسيحية العربية هي جزء أساسي من الشخصية العربية ومن كيان الأمة. أما على الصعيد الديني فإن القرآن الكريم يقول: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

= الكشف عن العوامل المشتركة التي تزخر بها في الأخلاقيات وحتى في العقائد.

4 - حوار التجارب، بما في ذلك التجارب الدينية، ليس بهدف عبادة الله مثل الآخر، ولكن بهدف إدراك إمكانية عبادة الله الواحد بطرق مختلفة.

ففي عالم الأنترنت، وتدفُّق المعلومات والاستثمارات، والتبادل التجاري، على مدى الأربع والعشرين ساعة، فإن القومية تبدو وكأنها تمزق قريتنا العالمية: من يوغسلافيا السابقة إلى الاتحاد السوفياتي السابق، إلى الشاشان، ونيجيريا وكشمير، تبدو الدول، ذات التعدديات الإثنية والدينية، في حالة تهاوٍ وانهيار. إن تصاعد الانقسامات الدينية والإثنية لا يجري فقط في دول أفريقيا وآسيا الفقيرة، بل في أوروبا وأميركا الشمالية الغنيتين. صحيح أن المتغيرات العالمية تقرِّبنا أكثر فأكثر، غير أن ذلك يحتم المزيد من الدفاع عن ترجسية تمايزاتنا الإنسانية كما يصفها فرويد. وفي الحالة اللبنانية فإننا ندرك أنه ما لم نوفِّر لعائلاتنا الروحية، بخلفياتها الدينية المتنوعة، شعوراً بالانتماء، وبأن شخصياتها وتراثها تشكل خطوطاً ثمينة في نسيج المجتمع اللبناني، فإن الوحدة المجتمعية الحقيقية تكاد تصبح مستحيلةً.

علينا، كلبنانيين، أن نقف في وجه أي تصوُّر لتعددية تكون هدفاً نهائياً في حدِّ ذاتها؛ تعددية تكون بديلاً عن الوحدة المجتمعية وعن المواطنية المتكافئة وحسن الجوار. إن تنوعاً، بمعزل عن روح الجماعة، يقود إلى القبلية. إن تجمعاً من دون روح التنوع، يقود إلى الانعزالية. في الوقت نفسه يتحتم علينا أن نعمل على فكِّ الارتباط في ثقافتنا الدينية والوطنية بين الصراعات التاريخية والمعتقدات الدينية، بين الأمور السياسية اليومية والأسس التي تشكل ثوابت دائمة في المشترك من عقائدنا. بذلك يصبح لبنان أكثر من مجرد زائد واحد إلى عدد الدول العربية، ويصبح، كما نريده وكما يريده الحبر الأعظم، رسالة تسامح واحترام وتآخ بين المجموعات الدينية التي يتألف منها.

إن ذلك هو هدف سياستنا الوطنية. فالسياسة ليست فنَّ الممكن، بل إنها فن تحويل المفيد إلى ممكن، كما يقول الرئيس الفرنسي جاك شيراك.

مرة أخرى، أشكركم لحرصكم بأن تشارك دار الفتوى في لبنان كمراقب في هذا السينودوس، مبتهلاً إلى المولى العليِّ القدير أن يساعدنا جميعاً لسلوك الطريق الصحيح الذي يوصلنا روحياً ووطنياً إلى أهدافنا النبيلة المشتركة. بارك الله بكم والسلام عليكم.

(1) سورة المائدة، الآية 82.

وهكذا، كيفما نظر المسلم إلى الأمر يجد نفسه محكوماً بمعادلة الارتباط المصيري الديني والقومي والوطني مع المسيحي، وبالتالي، يجد نفسه في موقع واحد معه لبناء المستقبل المشترك.

كانت تلك أبعاد المشاركة الإسلامية في السينودس، وهي مشاركة تتعامل مع لبنان كرسالة وليس كموقع جغرافي.

كان من حدود مشاركتنا الإسلامية أن وضعنا الفتنة التي عصفت بوطننا وراء ظهرانينا، وكان من أبعاد تلك المشاركة الصمود معاً في وجه التحديات التي تستهدف تهميشنا وشرذمتنا، والعمل معاً على إعادة بناء المجتمع والدولة بما ينسجم مع تطلّعاتنا المستقبلية الواحدة.

السينودس والنداء الأخير

استغرقت أعمال السينودس شهراً كاملاً، خصص الأسبوع الأخير منه لصياغة النداء الأخير وهو نداء «لا يعتبر بياناً ختامياً ولا توصيات ولا مقرّرات، لأن السينودس هيئة استشارية وليست هيئة تقريرة. ومن هنا فإن النداء الأخير يعتبر نداءً تحريضياً وتوجيهياً ـ إذا صحّ التعبير ـ يوجهه السينودس إلى اللبنانيين والعالم»[1].

وقد آثرتُ، مع زميليّ عباس الحلبي وسعود المولى، أن نغادر الفاتيكان بعد انتهاء أعمال اللجان مباشرة، حتى لا نكون طرفاً في عملية صياغة النداء الأخير، محافظةً منا على الصفة التي ارتضيناها لأنفسنا، وهي أن نكون وفداً مراقباً لا مشاركاً. وللأمانة لا بدّ من الإشارة إلى أنني آنست توجهاً لدى بعض أعضاء السينودس، وخاصة من الذين انتدبوا للعمل في لجنة الصياغة، بأن يتضمن النداء مواقف متشددة تعبّر عن شعور بالمعاناة أكثر مما تعبّر عن روح التوافق التي سادت الاجتماعات. وقد نبّهتُ الكاردينال سكوت، أمين السرّ العام للسينودس، والكاردينال أرينزي، مسؤول الحوار مع غير المسيحيين، والكاردينال أتشيغاري (الذي انتدبه البابا لمهمة في جزين في جنوب لبنان لعدة سنوات)، إلى هذا الأمر ورجوتهم مع زميليّ، التدخل مع لجنة الصياغة لتجنُّب صدور أي نصّ يمكن أن يشوّه، أو أن يُستغلّ لتشويه الهدف الذي أراد البابا تحقيقه من وراء المؤتمر. وبعد أن حصلنا على تفهُّم مطمئن، عدنا إلى

(1) بيان مجلس البطاركة والمطارنة الكاثوليك في لبنان، الصادر عن بكركي بتاريخ 15 ـ 11 ـ 1995.

بيروت لنبشّر بصفحة جديدة من الوفاق الوطني، وبقوة دفع قوية لتكريس العيش المشترك وتجذيره. غير أن النداء الأخير، الذي نُشر في أواخر عام 1995، تضمَّن بنوداً لم تكن في مستوى هذه الطموحات. فقد أثار النص ردود فعل سلبية من مرجعيات سياسية مسيحية وإسلامية، كما أثار اعتراضات المرجعيات الدينية الإسلامية التي بدت وكأنها أصيبت بخيبة أمل مؤلمة. وخوفاً من أن تتحوَّل المواقف الكنسية المدافعة عن هذه الوثيقة وردود الفعل الإسلامية المنتقدة لها إلى سجال ينعكس سلباً على العلاقات الإسلامية - المسيحية، اتخذت المرجعيات الدينية - الإسلامية، بالتفاهم مع رئيس مجلس الوزراء الأستاذ رفيق الحريري، مبادرتين سريعتين.

توجهت **المبادرة الأولى** نحو الداخل اللبناني، إذ قررت هذه المرجعيات الامتناع عن انتقاد الوثيقة علناً، واكتفت ببيان صدر عن الأمانة العامة للقمة الروحية الإسلامية نصَّ على ما يلي:

«يتصل مندوبو الأجهزة والمؤسسات الإعلامية اللبنانية بالمرجعيات الدينية الإسلامية مستوضحين رأيها بشأن البيان الذي صدر عن السينودس. إن الأمانة العامة للقمة الروحية الإسلامة مخولة بتوضيح ما يلي:

أولاً: إن ممثلي المرجعيات الإسلامية في السينودس حضروا المؤتمر بصفة مراقبين لا مشاركين.

ثانياً: إن البيان، بصرف النظر عن مضمونه، يمثل وجهة نظر الجهة التي صدر عنها.

ثالثاً: إن أي رأي، بشأن ما ورد في البيان من قضايا عامة، هو شأن عام وحق متاح لكل اللبنانيين.

رابعاً: إن الحرص على الوفاق الوطني وعلى الوحدة الوطنية يجب أن يتقدم على كل اعتبار آخر».

وتوجَّهت **المبادرة الثانية** نحو الفاتيكان لحثّه على التدخُّل وإنقاذ لبنان من ردود الفعل المترتبة عن النداء الأخير. وقد كلَّفني صاحبا السماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد رشيد قباني ورئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الشيخ محمد مهدي شمس الدين، أن أحمل إلى البابا يوحنا بولس الثاني رسالة باسمهما، وأن أشرح له الموقف الإسلامي من النداء الأخير.

وبالفعل توجهتُ إلى الفاتيكان حاملاً الرسالة التالية:

«بمناسبة انتهاء أعمال السينودس من أجل لبنان، الذي عُقد بدعوة منكم وبرعايتكم، يسرُّنا أن نعرب لكم عن تقديرنا لاهتمامكم بقضية لبنان وحرصكم على وحدة أبنائه من المسلمين والمسيحيين.

لقد نقل إلينا ممثلونا السادة محمد السماك وسعود المولى وعباس الحلبي، مدى الاهتمام والرعاية والتكريم التي أحطتموهم بها، كما نقلوا لنا أجواء المحبة والانفتاح التي سادت أعمال السينودس بحضوركم الشخصي، الأمر الذي ترك في نفوسنا أطيب الأثر.

غير أن البيان، الذي صدر عن السينودس، لم يعكس، في معظم فقراته، الآمال التي كنّا نعلّقها عليه لدفع مسيرة الوفاق الوطني بين المسلمين والمسيحيين قدماً إلى الأمام. فبدلاً من أن يُبرز البيانُ الإيجابياتِ التي توطد علاقات الثقة والتضامن بين اللبنانيين، تجاهلَ الكثير من الإنجازات التي حَقّقتها الدولة، وأضافَ إلى ذلك تصوُّرات تتجاوز الواقع في سلبياتها، ولا تعكس جهودنا وتطلُّعاتنا لتجاوزه متّحدين ومتضامنين.

إننا، إنطلاقاً من موافقتنا على انتداب ممثلين عنّا بصفة مراقبين إلى السينودس، نجد أنه من المفيد أن تكونوا على بيِّنة من شعورنا بالقلق نتيجة النقاش السياسي ـ الديني ـ الإعلامي الذي بدأ يتفاعل حول بعض ما ورد في البيان، والذي نخشى أن لا يخدم الهدف الوحدوي الوطني والإنساني النبيل الذي نعتقد أنَّ السينودس عُقد أساساً من أجله.

لذلك، ورغبةً منا في تأكيد تعاوننا معكم من أجل تجنيب وطننا، الذي لا نشكُّ في محبتكم لكل أبنائه، أي شعور بخيبة الأمل، وحرصاً منا على مواصلة العمل مع المرجعيات الروحية المسيحية في لبنان التي نشكّل معها عائلة وطنية واحدة، نأمل أن يتضمَّن البيان، الذي سيصدر عنكم، ما يعكس محبتكم وحرصكم على وحدة هذا الوطن وسلامته وصدقية الرسالة التي يرمز إليها».

وصلتُ إلى روما يوم الأربعاء السابع من شباط ـ فبراير 1996. في ذلك الوقت كان البابا يقوم بزيارة رسمية لعدد من دول أميركا الجنوبية، فاجتمعتُ إلى كل من الكاردينال سكوت، والكاردينال أرينزي، وشرحتُ لهما الموقف

الإسلامي مفصَّلاً من كل نقطة من النقاط التي تضمَّنها النداء الأخير.

وأبرز هذه النقاط هي:

1 ـ القول بالهوية الثقافية لكل طائفة دينية في لبنان، علماً بأن في لبنان 18 طائفة معترفاً بها رسمياً. وقد جاء في البند 19 من «النداء الأخير» ما يلي[1]: «إن لبلدنا خصائصها وهي ثمرة تاريخ خاص بها، وهو بلد متعدد الطوائف، إنها صيغة العيش المشترك التي تحترم **الهوية الثقافية لكل طائفة فيه**».

2 ـ القول بالديمقراطية التوافقية، بما يوحي أن يكون لكل طائفة حق النقض في القضايا الأساسية. وقد جاء في البند 21 من النداء الأخير ما يلي[2]: «. . . والانتقال من الولاء الطائفي إلى الولاء الوطني يقتضي له نظام سياسي وطيد، وهذا النظام يقوم على **الديمقراطية التوافقية**، ولا يمكنه أن يكون تحت رحمة أيديولوجية الأكثرية».

3 ـ إغفال الإنجازات الإنمائية والعمرانية التي حققتها الدولة بعد الوفاق الوطني، وهو ما يوحي به البند 41 من النداء الأخير الذي يقول[3]: «إن التطوُّر الاقتصادي يحوِّل لبنان إلى فردوس ضريبي لجلب الرساميل إليه، **لكن هذه الرساميل تستثمر خاصة في أعمال المضاربة، والقليل منها في المشاريع التي تخلق فرص عمل للبنانيين**».

وتحميل الدولة، وليس الحرب التي تعصف بلبنان، مسؤولية النتائج الاقتصادية والاجتماعية السلبية التي يعاني منها اللبنانيون، على النحو الذي أشار إليه البند 40 من النداء الأخير الذي يقول[4]: «إن التطور الاقتصادي والاجتماعي **يطبع العلاقات الإنسانية في بلدنا بطابع المركنتيلية**. فالتضخم يزيد في هشاشة وضع المعوزين الاقتصادي، والطبقة الوسطى تقلَّصت كثيراً إمكانياتها، وثلث السكان يعيش تحت خط الفقر، والبطالة تزداد يوماً بعد

---

(1) نداء الجمعية الخاصة لمجمع الأساقفة (السينودس) من أجل لبنان ـ منشورات اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام ـ المركز الكاثوليكي للإعلام ـ ص12.

(2) المرجع السابق ـ ص13.

(3) المرجع السابق ـ ص22.

(4) المرجع السابق ـ ص21.

يوم، مما يدفع بالشبيبة إلى الهجرة. فعلى الدولة أن تضع تشريعاً وترسي نظاماً اقتصادياً يحولان دون أن يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً».

4 ـ ربط «السلام الداخلي بجلاء القوات السورية من لبنان»، وهو أمر يتناقض تماماً مع سياسة الدولة التي تعتمد على الدعم السوري لتثبيت دعائم السلم الأهلي، كما أن استخدام كلمة جلاء تعطي الانطباع بأن القوات السورية هي قوات احتلال مع أنها موجودة في لبنان بطلب من الدولة اللبنانية. فقد ورد في البند 50 من النداء الأخير ما يلي[1]: «. . . لا يحق لأحد أن يعزلنا عن طاولة السلام، وأن يحلَّ محلنا ليهتم بمصالحنا، كما لو كنا قاصرين وتحت الوصاية. فلتعد سيادة البلد على أرضه بتحريرها من الاحتلال الإسرائيلي تنفيذاً لقرارات الأمم المتحدة، **كما أن السلام الداخلي يجب أن يترجم بجلاء القوات السورية من لبنان** وببسط وجود الجيش اللبناني على كامل الأراضي اللبنانية».

أبدى كل من الكاردينال سكوت والكاردينال أرينزي تفهماً عميقاً للشروحات التي قدمتُها إلى كل منهما، كما أبديا قلقهما من جراء ردود الفعل السلبية التي رافقت إذاعة النداء الأخير وآثارها المحتملة، وتم تسجيل محضر تفصيلي بوقائع اللقاء عُرض على البابا بعد عودته من رحلته إلى أميركا الجنوبية مع نصِّ المذكرة الإسلامية.

لقد حرص الكاردينال سكوت على التقليل من أهمية النداء الأخير، وأكد لي: «**إن المهم هو وثيقة الإرشاد الرسولي التي ستصدر عن البابا نفسه متوجاً بها أعمال السينودس، وأن هذه الوثيقة البابوية هي التي تلزم الكنيسة وتحدد موقف البابا، أما النداء الأخير فإنه مجرد تعبير عن وجهة نظر غير ملزمة لأحد**»، كما أكد لي: «**إن الإرشاد الرسولي سوف يكون مختلفاً في النصِّ وفي المقاربات**»، وأكد لي كذلك أن الملاحظات، التي نقلتُها إليه باسم المرجعيات الإسلامية، سوف تكون موضع اهتمام من البابا الذي يقدِّر تقديراً عالياً المشاركة الإسلامية في أعمال السينودس، ليس من حيث الشكل فقط، بل من حيث الدور البنَّاء الذي قام به الوفد الإسلامي من خلال مساهماته في اللجان وفي الجلسات العامة.

---

(1) نداء الجمعية الخاصة لمجمع الأساقفة (السينودس) من أجل لبنان ـ منشورات اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام ـ المركز الكاثوليكي للإعلام ـ ص 26.

الفصل العاشر

من جدران الجماعات إلى وحدة الشعب

بتاريخ الواحد والعشرين من أيلول ـ سبتمبر 1983، عُقد مؤتمر إسلامي في دار الفتوى ضم القادة الروحيين والسياسيين من المذاهب الإسلامية كافة. اتخذ هذا المؤتمر قراراتٍ عدة أُطلق عليها اسم «الثوابت الإسلامية»[1]، ينص الثابت الأول منها على ما يأتي:

---

(1) وردت «الثوابت الإسلامية» في البيان الصادر عن اللقاء الإسلامي الموسع الذي عُقد في دار الفتوى في بيروت بتاريخ 21/9/83، وشارك فيه كل من مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد ونائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الشيخ محمد مهدي شمس الدين ورئيس المحكمة الشرعية الدرزية العليا الشيخ حليم تقي الدين، والرؤساء: عادل عسيران وصائب سلام وسليم الحص والوزير السابق سامي يونس والنائبان حسين الحسيني وحسن الرفاعي.

أولاً: لبنان وطن نهائي بحدوده الحاضرة المعترف بها دولياً، سيداً حراً مستقلاً، عربياً في انتمائه وواقعه، منفتحاً على العالم، وهو لجميع أبنائه، له عليهم واجب الولاء الكامل ولهم عليه حق الرعاية الكاملة والمساواة.

ثانياً: لبنان جمهورية ديموقراطية برلمانية تقوم على احترام الحريات العامة وضمانها، وعلى مبادىء العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص بين جميع اللبنانيين من دون تمييز.

ثالثاً: يلتزم لبنان النظام الاقتصادي الحر، ويعتمد الإنماء الاقتصادي والاجتماعي تخطيطاً ونهجاً وتوجهاً في تطوير طاقات المجتمع الإنتاجية والإنسانية.

رابعاً: إعطاء القضايا الاجتماعية حقها الكامل في العناية بما يؤدي إلى إلغاء شقة التفاوت بين المناطق والفئات اللبنانية ومعالجة المعضلات الناتجة عن الأزمة.

خامساً: التمسك بلبنان متلازم مع التمسك بوحدته الكاملة غير المنقوصة أرضاً وشعباً ومؤسسات.

سادساً: رفض أي شكل من أشكال اللامركزية السياسية، سواء طرحت في صيغة الكونفدرالية أو الفيدرالية أو الاتحاد بين ولايات أو كانتونات أو غيرها من أشكال الكيانات الذاتية، لأن كل هذه =

«لبنان وطن نهائي بحدوده الحاضرة المعترف بها دولياً، سيداً حرّاً مستقلاً، عربياً في انتمائه وواقعه، منفتحاً على العالم، وهو لجميع أبنائه، له عليهم واجب الولاء الكامل ولهم عليه حق الرعاية الكاملة والمساواة».

في الحيثيات التي تشكل الأسباب الموجبة لاتخاذ هذا الموقف، وردَ ما يلي:

«في الوقت الذي بات الواقع المتردي فيه يهدد وجود المسلمين اللبنانيين في معناه ومظاهره، وهو ما يرفضه المسلمون، ليس على أساس أنهم يريدون تحقيق الذاتية الإسلامية على حساب الذاتية الوطنية اللبنانية، وإنما على أساس أن المسلمين اللبنانيين يريدون من موقفهم هذا تصحيح الوضع اللبناني في مساره التاريخي لأجل تحقيق الذاتية الوطنية الصادقة وتعزيزها، وتحقق من خلالها ذاتية كل فئة لبنانية بما تقتضيه مبادىء العدالة والمساواة، فلا تذوب ذاتية فريق ولا تشوّه على حساب عملقة مصطنعة لذاتية أخرى».

إن قراءة متعمِّقة للثوابت الإسلامية العشرة، التي صدرت عن اللقاء الإسلامي السياسي - الروحي الذي عقد في دار الفتوى في 21/ 9/ 1983، ولحيثياتها، تبيِّن بوضوح أن المسلمين رسموا لأنفسهم وبمبادرة منهم، وبإجماعهم، الطريق للخروج من الطائفية إلى المواطنية، وحطّموا بقراراتهم تلك الجدران الطائفية والمذهبية للجماعات، وانفتحوا بثقة بالنفس، وبإيمان بالمستقبل، على وحدة الشعب اللبناني بعائلاته الروحية جميعها. كان الأساس

= الطروحات وأمثالها تضع لبنان على شفير التقسيم والتفتيت، وكلاهما مرفوض رفضاً مطلقاً، بينما يرحب باللامركزية الإدارية التي تعزز الحكم في المناطق وتختصر المسافة بين المواطن ومصدر الخدمة في مختلف المجالات.

سابعاً: إلغاء الطائفية السياسية بكل وجوهها في جميع مرافق الدولة ومؤسساتها.

ثامناً: الرفض القاطع لكل ما يتعارض مع الشرعية من مظاهر وممارسات بما في ذلك محاولات الهيمنة الحزبية أو الفئوية، وكذلك استمرار وجود الميليشيات والتنظيمات المسلحة ووسائل الإعلام غير الشرعية والجبايات المالية غير المشروعة.

تاسعاً: الإقرار بحق المهجرين، منذ بداية أحداث 1975، بالعودة إلى المساكن أو المناطق التي هجروا منها تبعاً لمبدأ حق كل مواطن بالإقامة في أي مكان من وطنه لبنان.

عاشراً: العمل على إنهاء الاحتلال الإسرائيلي وتأمين انسحاب جميع القوات غير اللبنانية من لبنان وفقاً لقرارات مجلس الأمن الدولي 425 و426 و508 و509 و520، ورفض أي محاولة لفرض معاهدة صلح أو تطبيع علاقات مع إسرائيل.

الذي بنى المسلمون عليه تلك القرارات الإدراك العميق بأن الطائفة ليست سوى قبيلة روحية، وأن القبيلة تقوم على روابط النسب العرقي (أو الديني)، وهو أمر وهمي كما يقول ابن خلدون. أما الأمة فهي حقيقة يمسك العقل بناصيتها، وهي ترتبط بالملموس لغةً وثقافةً وجنساً وإرادة مشتركة.

بعد ستِّ سنوات، بتاريخ الثاني والعشرين من تشرين الأول 1989، صدرَ عن مؤتمر البرلمانيين اللبنانيين، الذي عُقد في الطائف، الميثاق الوطني الجديد. تنصُّ الفقرة «أ» من المادة الأولى من الميثاق على ما يلي:

«لبنان وطن سيِّد حرٌّ مستقل، وطن نهائي لجميع أبنائه، واحد أرضاً وشعباً ومؤسسات، في حدوده المنصوص عنها في الدستور اللبناني والمعترف بها دولياً».

وتنصُّ الفقرة «ط» على ما يلي:

«أرض لبنان أرض واحدة لكل اللبنانيين. فلكل لبناني الحق في الإقامة على أي جزء منها والتمتع به في ظل سيادة القانون، فلا فرز للشعب على أساس أي انتماء كان، ولا تجزئة ولا تقسيم ولا توطين».

وتنصُّ الفقرة «ي» على ما يلي:

«لا شرعية لأيِّ سلطة تناقض ميثاق العيش المشترك».

وفي المادة الثانية من الميثاق، التي تتعلق بالإصلاحات السياسية نصَّت الفقرة الخامسة على أن يتم توزيع المقاعد النيابية وفقاً للقواعد الآتية:

«أ ـ بالتساوي بين المسيحيين والمسلمين.

ب ـ نسبياً بين طوائف كل من الفئتين.

جـ ـ نسبياً بين المناطق».

هذا الالتزام الوفاقي الوطني، تجدر قراءته في ضوء خلفية لم تأخذ حقها في عملية تقييم ميثاق الطائف، ذلك أنه، جغرافياً، تقع الطائف، التي يحمل هذا الميثاق اسمها، على بُعد بضعة عشر كيلومتراً فقط من مكة المكرمة، أقدس بقعة على الأرض بالنسبة للمسلمين؛ ومعنوياً رعت المؤتمر، بتكليف من جامعة الدولة العربية، ثلاث دول عربية هي المملكة العربية السعودية، والمملكة المغربية، والجزائر، وهي دول إسلامية أيضاً لا توجد فيها أي أقلية وطنية غير إسلامية، كما أن سوريا، توأم لبنان، وافقت على الميثاق وتعهدت

بالمساعدة على تنفيذه، وشجعت على إقراره دستورياً وفي الحياة العامة.

في جوهر الديمقراطية أنها نظام لتحقيق المساواة بين الناس. ولقد ارتضى المسلمون في الطائف صيغة للديمقراطية تكرّس اللامساواة، فآثروا بذلك سلامة العيش الوطني على حقّ المساواة، وهو موقف يعكس مدى تفهُّمهم لمقتضيات الوفاق الوطني وحرصهم على ديمومته وسلامته.

بعد ست سنوات على صدور وثيقة مؤتمر الطائف (أي من 26 ـ 11 ـ 1989 إلى 14 ـ 12 ـ 1995)، صدر النداء الأخير الذي تناول موضوع تعدد الطوائف ووحدة الوطن في أكثر من مادة، لعل أبرزها ما وردَ في المادتين 21 و22، وتنصُّ المادتان على ما يلي:

«الانتقال من الولاء الطائفي إلى الولاء الوطني يقتضي له نظام سياسي وطيد يُشرك كلاً من الطوائف باتخاذ القرارات الوطنية، بحيث لا تفرض أية طائفة على الأمة ما لا يناسب إلاّها، ولا يتلاءم وتقاليد الطوائف الأخرى. وهذا النظام يقوم على الديموقراطية التوافقية، ولا يمكنه أن يكون تحت رحمة أيديولوجية الأكثرية».

«وإنه ليسعدنا أن نرانا على اتفاق مع ممثلي الطوائف الإسلامية الذين كان حضورهم فاعلاً فيما بيننا، في ما خصَّ بناء أمّتنا اللبنانية التي على كلٍّ من طوائفنا أن تتجاوز مفهومها لمصالحها الخاصة والدفاع عها، لتفهُّم مصالح الطوائف الأخرى، وتدافع عها دفاعها عن مصالحها. ويسعدنا أيضاً أن نرى أن هذ الاتفاق لا يقوم فقط على تلاقي مصالح عابرة، ولكنه ثمرة اتحاد مؤمنين راسخين كل في إيمانه، وداعين لما بين عقائدهم من فوارق على الرغم من أنهم جميعاً يبحثون عن الله، وهم رفاق عمل في مدينة الأرض، ورفاق زيارة مقدسة نحو مدينة الله».

قد لا يثير هذا النصُّ إشكالات أساسية إلا عندما ننظر إلى مضمونه من خلال ما يستبعده وينفيه، وليس فقط من خلال ما يثبته وما يترتب عليه. فالنداء الأخير يقول بنظام الديمقراطية التوافقية، وهو يرفض، استكمالاً، مبدأ ديمقراطية الأكثرية.

أما نصُّ الطائف فإنه عندما يقول بالمناصفة في عدد أعضاء مجلس النواب ومجلس الوزراء، دون أن يتوقف أمام الحقوق الطبيعية لأي أكثرية عددية، قد تتمتع بها أي طائفة من الطوائف اللبنانية، فإنه يكون بذلك قد

أرسى قاعدة وفاقية أساسية. تتجاوز هذه القاعدة موضوع الديمقراطية العددية، وتؤكد على المناصفة ليس بالحق بل بالتوافق. وهذا يعني أن الديمقراطية في لبنان هي ديمقراطية ميثاقية تقوم على ميثاق وطني يرسي قاعدة توافقية ثابتة لتكون أساساً للعيش المشترك، ومن ثم فإنه يجرد أي سلطة تناقض العيش المشترك الذي يقوم على هذا التوافق من الشرعية.

تقبّل المسلمون نصّ الطائف عن طيب خاطر، ولكنهم لم يجدوا مبرراً للترحيب بنصّ النداء الأخير في هذا الشأن، ليس لأنه تجاهل نص ميثاق الطائف، ولكن لأن صياغته أوحت بأنه يدعو إلى ديمقراطية طوائف وليس إلى ديمقراطية مواطنين، وبالتالي فإنه أوحى بأنه يعطي الطائفة ـ أيَّ طائفة ـ حق النقض في الشؤون الوطنية العامة، خلافاً للصيغة الدستورية المتوافق عليها الآن. والقلق الذي أبداه مسلمون ومسيحيون معاً انطلق من احتمال أن يؤدي ذلك إلى إضافة مدماك جديد إلى الجدران التي تفصل بين الجماعات الروحية اللبنانية بدلاً من أن يمد جسراً بينها لتحقيق وحدة الشعب. كان من شأن ذلك تجديد التأكيد على العمل بنظرية إيجاد «الآخر»، من أجل إبراز وجود «الأنا»، ذلك أن الوعي بـ«الأنا» يتم دائماً عبر الآخر، إلا أن هدفنا كان، من خلال الثوابت الإسلامية، ثم من خلال ميثاق الطائف والاشتراك في مؤتمر السينودس، تجاوز هذا الأمر بحيث يكون «الأنا» هو كل اللبنانيين.

في الأساس، يقوم لبنان، الدولة والكيان، على صيغة حياة مشتركة توافقَ عليها اللبنانيون بعائلاتهم الروحية المختلفة، وهو صيغة تعاقدية إنسانية تفسح في المجال أمام كل المواطنين لتحقيق ذاتهم، في تنوع أصيل وتكامل متجانس بين بعضهم، في إطار دولة القانون الواحدة. نظم الدستور اللبناني أسس هذه الصيغة باعتماد مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين اللبنانيين، وبتأمين التوازن في الحياة السياسية الوطنية.

بموجب ذلك تؤكد المواطنية ارتباطها بالمعرفة والاستدلال والوعي، وتبقى الطائفية تعبيراً عن التعالي الوجداني؛ ذلك أن من مخاطر الجنوح الرومانسي الطائفي الاستغناء عن المشخص الوطني والالتزام بالمجرد العاطفي بما يؤدي إلى تجاهل الخطاب الوطني الواحد، والقفز من فوق مستوى استدلالاته الفكرية والتزاماته الفردية والجماعية معاً.

وكما جاء في الورقة الموحدة للجنة الوطنية الإسلامية ـ المسيحية

للحوار، التي أقرّتها المرجعيات الدينية الإسلامية والمسيحية جميعها «فإن اللبنانيين الحريصين على روح الوفاق الوطني، وبالتالي على بناء الدولة الواحدة، مدعوون للعمل بروح الميثاق، وبمستلزمات صيغة الوفاق الوطني والوقوف صفاً واحداً في وجه كل ما يشكل خروجاً على هذه الأسس والمبادىء، لأن الوطن يقوم على إرادة بنيه مجتمعين، ولأن ما ينتقص من هذه الإرادة يضعف الوطن كله.

كذلك فاللبنانيون مدعوون جميعاً إلى إنجاح وتعزيز كيان الدولة، سواء بالمشاركة في السلطة أو بالمعارضة البناءة من داخل النظام، الأمر الذي يقتضي، قبل كل شيء، احترام الدولة: روحاً وميثاقاً وصيغةً ودوراً فعالاً، وضمن هذا المفهوم الصحيح تكون الدولة مسؤولية وطنية عامة يضطلع بها جميع اللبنانيين».

ولقد بيّنت اللجنة في ورقتها الموحّدة: «أن التآخي الوطني بين المسيحيين والمسلمين في لبنان ليس مجرد التزام تفرضه مرتكزات العيش المشترك، وضرورة تجنُّب الفتنة، ولكنه قدر وخيار ومهمة إنسانية نبيلة تجعل من لبنان صاحب رسالة عالمية».

من أجل ذلك، أكدت اللجنة أنه «لا بد من العمل على توحيد الخطاب الوطني بحيث يتجاوز الأنانية الطائفية إلى الانفتاح على مصلحة الوطن الواحد لكل الطوائف ولكل اللبنانيين».

«ويقتضي هذا الأمر قيام دولة وطنية عادلة وواعية بحيث تفتح آفاق المشاركة في صناعة الغد الأفضل أمام القوى الوطنية الصاعدة، وبحيث تطمئن المواطن وتشجعه للانتقال من فيء الطائفة إلى كنف الدولة المسؤولة عن أمنه واستقراره، وعن توفير مقومات الحياة الحرة والكريمة».

إن تجاوز جدران الجماعات إلى وحدة الشعب، يستوجب التمييز بين الممكن الذهني، والممكن الواقعي، واستشفاف ممكنات المستقبل يقودنا إلى أن ندرك أن الْتِماس الطريق إلى أفضل هذه الممكنات، وإلى أكثرها استجابة لتطلعنا الوطني المشترك، يحملنا على الإقرار باستحالة تنفيذ عملية التجاوز هذه دفعة واحدة؛ ويحثُّنا على ربط برمجة التنفيذ، ومرحليات التنفيذ، وآليات التنفيذ، بضوء أخضر من الجماعات اللبنانية كلها بإيثار الوطن على كل ما عداه.

الفصل الحادي عشر

زيارة البابا إلى لبنان

أزاحت التطمينات الأولية التي نقلتُها من الفاتيكان إلى المرجعيات الإسلامية في بيروت كابوس القلق الذي كان يؤرقها. كان عليَّ أن أبدد شكوك وتخوُّفات العديد من الجمعيات والمنظمات الإسلامية، وعلى رأسها المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى، وهي شكوك تناولتني شخصياً وأُلصقت بي «تهمة توريط المسلمين اللبنانيين بمؤتمر مسيحي لا ناقة لهم فيه ولا جمل». وبلغت الاتهامات حدَّ الإدّعاء بأن المؤتمر استخدم المشاركة الإسلامية للتغطية، وأن النداء الأخير هو نداء أخير، وأن إخراجه قابل للإيحاء بأنه جاء نتيجة توافق مع المسلمين رغم مناقضة بعض بنوده مع التوجُّه الوطني لمسلمي لبنان.

فُهم تغييب اتفاق الطائف تماماً من أي إشارة في النداء الأخير على أنه يعني أن الوفاق الوطني لم يتم، وأنه لا بدَّ من صياغة وفاق جديد يقوم على تعددية ثقافية دينية، وعلى ديمقراطية تعطي كل طائفة حقَّ النقض - الفيتو -، كما فهمت النصوص التي تحدثت عن عزل لبنان عن طاولة السلام والحلول محله «كما لو كنا قاصرين وتحت الوصاية»، كما جاء في البند 50 من النداء، بأن المقصود بذلك هو سوريا. ويعكس هذا النصُّ شعوراً بعدم الثقة بسوريا وبالإيحاء بأنها دولة محتلَّة للبنان فيما هي دولة شقيقة تضحّي من أجل المحافظة على وحدته وعلى سلمه الأهلي، وتتصدى للمخطط الصهيوني الذي يستهدف تمزيقه كمدخل إلى إعادة رسم خريطة «الشرق الأوسط» السياسية على أسس عرقية ودينية ومذهبية.

امتنع رئيس الحكومة الأستاذ رفيق الحريري عن التعليق على النداء الأخير، في محاولة منه لتبريد الأجواء المشحونة نتيجة السجال العلني حول مضمونه، كما تمنى الرئيس على المرجعيات الإسلامية الاكتفاء بالبيان الذي صدر عنها، وحثَّ اللجنة الوطنية الإسلامية المسيحية للحوار على بذل كل الجهود مع كل المرجعيات والفعاليات الأخرى من أجل وضع حدٍّ للسجال الطائفي الذي ارتفع صوته عالياً وبشكل يدعو للقلق.

لم يكن من السهل تبديد تلك الشكوك في ضوء نصّ النداء، كما لم يكن من السهل تصحيح ما ورد فيه بعد أن نُشر النصُّ بصورة رسمية، إلا أن الثقة بسلامة نوايا البابا يوحنا بولس الثاني تجاه لبنان، وتفهُّمه العميق لمعادلة تركيبته الطائفية والسياسية المعقَّدة، وفَّرت قوة معنوية للمراهنة على تصحيح صورة السينودس وإعادة تثبيت صدقيته.

وبالفعل، لم يكد يمرُّ وقت قصير على عودتي من روما، حتى بادرت المرجعيات الدينية المسيحية إلى توضيح الفقرات التي أثارت ردود الفعل الإسلامية، وقد تمثَّل ذلك في:

1 ـ عدم الدفاع، أو تبرير ما ورد بشأن الوضع الاقتصادي.

2 ـ التوضيح المتكرر بأن المقصود بالتعددية الثقافية هو الثقافة الدينية باعتبار أن لكل دين تقاليد وعاداتٍ وأعرافاً خاصة به.

3 ـ تقديم تعريف للديمقراطية التوافقية بمعنى الحفاظ على شخصية الطوائف المميزة حتى لا تطغى الأكثرية العددية لأي طائفة على بقية الطوائف الأخرى، من دون أن يسيء ذلك إلى وحدة الدولة أو المجتمع.

4 ـ التأكيد على أن المقصود بربط خروج القوات السورية بالسلام الداخلي هو أن من مؤشرات تحقيق هذا السلام الداخلي، يتمثل في انتهاء مهمة القوات السورية، وليس المقصود أن وجود هذه القوات بالذات هو سبب عدم تحقيق السلام الداخلي.

5 ـ والتأكيد كذلك على أن المطالبة بالسيادة وبرفض الوصاية هو موقف مبدئي عام، وأنه حقٌّ طبيعي لكل شعب، وليس المقصود بذلك الإساءة إلى سوريا، أو اتهامها.

6 ـ تحميل الترجمة من الفرنسية إلى العربية مسؤولية استخدام عبارة

جلاء القوات السورية، مع أن المقصود هو خروج القوات السورية وإعادة انتشارها، كما نصَّ على ذلك ميثاق الطائف 1989.

في 16 و17 فبراير ـ شباط 1996، قام رئيس الحكومة الأستاذ رفيق الحريري بزيارة رسمية ثانية إلى الفاتيكان، وخلال لقائه مع البابا يوحنا بولس الثاني أكد الرئيس الحريري له[1]: «أن لبنان أمام مفترق طرق بفعل المتغيرات التي تواجهها المنطقة، ومثل هذه الظروف تستدعي تضامناً داخلياً لعبور هذه المرحلة، ولا بد أن يكون للفاتيكان الدور الفاعل في هذا الاتجاه، خصوصاً أن عاصمة الكثلكة في العالم تعتبر أن لبنان دولة الرسالة والحوار بين المسيحيين والمسلمين في العالم، ومثل هذا الدور لا يمكن أن يضطلع به بلد يعاني تركيبة هشة ترسم علامات استفهام على خطابه مع الخارج. ولهذا تمنَّى الرئيس الحريري أن يأتي الإرشاد الرسولي داعماً الوحدة الوطنية في مواجهة استحقاقات الشرق الجديد».

وأكد البابا للرئيس الحريري حرصه على[2]: «بقاء لبنان صاحب رسالة التعايش والحوار، واستعداده لبذل كل المطلوب لتعزيز هذا الدور للبنان»، كما أكد رغبته «في زيارة لبنان من منطلق ما توفره من دعم الوفاق الوطني».

وعندما لاحظ البابا وجودي في عداد الوفد المرافق للرئيس الحريري قال لي: «ها أنت معنا بعدما شاركتنا في السينودس. هل أنت راضٍ عنه؟»، فأجبته: «أتمنى أن يكون دولة الرئيس وَضَعَكَ في حدود ردود الفعل»، فاكتفى البابا بالابتسام.

وفي هذا اللقاء تم التأكيد على أمرين أساسيين:

الأمر الأول: هو حرص البابا على زيارة لبنان وتقديره للترحيب الإسلامي بزيارته.

الأمر الثاني: هو تأكيد البابا بأن وثيقة الإرشاد الرسولي التي ستصدر عنه ستكون مختلفة عن نصِّ النداء الأخير. تكرَّس هذان الأمران أثناء زيارة رابعة قام بها الرئيس رفيق الحريري للفاتيكان قبل أن يقوم البابا في أيار ـ مايو 1997 بزيارته التاريخية إلى لبنان.

---

(1) جريدة النهار 23 ـ 2 ـ 1996.

(2) المرجع السابق.

في الأساس، بدت الزيارة البابوية وكأنها تحقيق لنشوة روحانية طالما سعى البابا إليها؛ فهو لم يخفِ مشاعِر الألم والمرارة عندما تأجلت زيارته إثر حادث التفجير الإجرامي الذي استهدف كنيسة سيدة النجاة في الكسليك شمال بيروت في عام 1993، ورغم ذلك بقي على حماسه الشديد، وكأن القيام بالزيارة نسك عبادي يحرص على أدائه. وكان في كل مرة يلتقي فيها الرئيس رفيق الحريري في الفاتيكان يؤكد تصميمه على الزيارة، قبل مؤتمر السينودس وبعده. وقد دفعته مبادراته التكريمية للرئيس الحريري إلى خرق البروتوكول الفاتيكاني عدة مرات ليعرب عن تقديره له شخصياً وللإنجازات الوطنية الإنمائية الهامة التي يحققها، ولينقل من خلاله إلى اللبنانيين عموماً، وإلى المسلمين خصوصاً، مشاعر الود والتقدير والاحترام. ويعرف البابا أن الرئيس الحريري شخصياً هو الذي تولى إقناع المرجعيات الإسلامية في لبنان بأهمية وبجدوى المشاركة الإسلامية في مؤتمر السينودس، وذلك تأكيداً للبعد الوطني للمؤتمر إلى جانب بعده الروحي الكنسي، وفي خلفية التفكير الفاتيكاني أن الوفاق الوطني بين المسلمين والمسيحيين يشكل جسر العبور إلى الوفاق الوطني بين المسلمين والمسيحيين في الدول العربية الأخرى، ولذلك يُعتبر البابا لبنان رسالة وليس مجرد دولة؛ رسالة عيش مشترك بين أديان ومذاهب مختلفة تشع على الدول المتعددة الأديان والإثنيات في العالم كله.

«الإرشاد الرسولي» ولبنان

في صيف عام 1978، ولأول مرة منذ 455 عاماً، انتخب مجلس الكرادلة في الفاتيكان الكاردينال البولندي كارول فوجتيلا ليكون أول بولندي يعتلي السدة البابوية. مع ارتفاع الدخان الأبيض من مدخنة المجمع الفاتيكاني اتخذ الكاردينال فوجتيلا اسماً جديداً له هو البابا يوحنا بولس الثاني.

خلف البابا الجديد، البابا يوحنا بولس الذي توفي بعد ثلاثين يوماً فقط من تسلمه منصبه خلفاً للبابا الأسبق بولس السادس. كان هذا البابا واقعياً مؤمناً بسياسة الانفتاح على الاتحاد السوفياتي رغم عقيدته الشيوعية الإلحادية، غير أن البابا يوحنا بولس الثاني كانت له وجهة نظر أخرى.

في العام الأول لانتخابه ـ وبعد زيارة رسمية للمكسيك ـ قام البابا الجديد بأول زيارة لمسقط رأسه في بولندا. كانت بلاده ترزح كغيرها من دول أوروبا الشرقية تحت السيطرة الشيوعية. في عام 1982 كان ثاني اثنين مع الرئيس الأميركي الأسبق رونالد ريغان في لقاء سري تقرر فيه تنسيق الجهود الأميركية والفاتيكانية لإسقاط النظام الشيوعي في بولندا. يكشف كتاب صدر في عام 1996 عنوانه «قداسة البابا يوحنا بولس الثاني والتاريخ السري لعصرنا»، للمؤرخ كارل برنشتاين، أن البابا اجتمع إلى وليم كيسي، مدير وكالة المخابرات المركزية الأميركية، وإلى السفير الأميركي فارنون والترز لوضع أسس المخطط المشترك. وهكذا سقطت «أمبراطورية الشيطان»، كما كان الرئيس ريغان يسمي الاتحاد السوفياتي. وبسقوطها

انتهت الحرب الباردة، ودخل العالم مرحلة جديدة تتسم بمحاولات الولايات المتحدة احتكار الزعامة وتجريد حلفائها من أي دور رئيسي، متخلية حتى عن المبادىء الأخلاقية وعن القيم الروحية التي كانت الحافز وراء الشراكة البابوية في عملية إسقاط الشيوعية. ولقد تعرض البابا يوحنا بولس الثاني في عام 1981 لمحاولة اغتيال على يد عميل تركي يدعى علي آغا كان يعمل لحساب جهاز المخابرات البلغاري التابع للـ«كي. جي. بي»، ونجا منها بأعجوبة بعد أن أصيب في بطنه.

كان التحالف الأميركي ـ البابوي جبهة من اثنتين وجد الاتحاد السوفياتي السابق نفسه مضطراً لخوضهما في وقت واحد. أما الجبهة الثانية فهي جبهة التحالف الأميركي ـ الإسلامي في أفغانستان. لقد أغدق الأميركيون على المجاهدين الأفغان أحدث أنواع الأسلحة الخفيفة؛ بما فيها صواريخ ستينغر التي تطلق من الكتف، وحثوا حلفاءهم من الأغنياء المسلمين على تمويل الثورة الأفغانية حتى تمكنت تلك الثورة من تحويل أفغانستان إلى فيتنام سوفياتية. السقوط الشيوعي في كابول تكامل مع السقوط الشيوعي في وارسو. وهكذا بدأت حبات السبحة السوفياتية، منذ عام 1989، تفرط الواحدة بعد الأخرى حتى جاء غورباتشوف الذي استقبله البابا في الفاتيكان في عام 1989 وأكمل المهمة من داخل أسوار الكرملين نفسه!!..

كان البابا أسقفاً على مدينة كراكوف في جنوب بولندا، وهي مدينة مجاورة للمعسكر الألماني أوشفيتز، وتقع كاتدرائيتها، التي يقيم فيها الأسقف، فوق مرتفع يطل على نهر غزير المياه صيفاً وشتاء. عندما دخل العثمانيون، في العصور الوسطى، هذه المنطقة أثناء حصار ڤيينا، عسكروا في الضفة الجنوبية للنهر، كانت كراكوف تقع في الضفة الشمالية. وكان البولنديون المقاومون للهجوم العثماني يراقبون التحركات العكسرية من وراء أسوار المدينة المرتفعة، وكانوا في كل مرة يسجلون تحركات عسكرية مريبة يبادرون إلى النفخ في الأبواق لتحذير الناس ولاستنفار قواهم العسكرية. استمر هذا التقليد حتى اليوم، فمساء كل يوم ومع غروب الشمس (عندما كان الجنود العثمانيون يتجمعون لأداء صلاة المغرب مما يوحي بأنهم يستعدون للقتال) يعتلي سور المدينة، المطل على النهر، مجموعة من حملة الأبواق الذين ينفخون مذكرين (وليس

محذرين). ورغم فولكورية هذا المشهد حالياً، فإنه يغذي ذاكرة تاريخية حافلة بقصص المجابهات والصدامات مع الإسلام.

الأسقف فوجتيلا هو ابن هذه البيئة، ولكنه بعد المقاومة الإسلامية الأفغانية ضد الشيوعية، والدور الذي قامت به لإسقاط أمبراطورية الشيطان بدأ ينظر إلى الأمور من زاوية مختلفة. في مقارباته للإسلام وجد البابا جوامع مشتركة عديدة أشار إليها مراراً؛ منها الإيمان بالله الواحد، ومنها الإيمان باليوم الآخر وبالثواب والعقاب، ومنها التراث الإبراهيمي، ومنها بتولة مريم، ومنها الإشارة إلى المعجزات الخارقة للسيد المسيح، ومنها الدعوة إلى فضائل الأخلاق واعتبارها جزءاً متمماً للعبادة.

سلك الانفتاح على الإسلام عدة ممرات؛ منها الممر السعودي، عبر رابطة العالم الإسلامي حيث عقدت لقاءات حوارية في الفاتيكان نفسه، ومنها الممر الليبي، عبر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، حيث عقدت لقاءات مماثلة في الفاتيكان وفي طرابلس الغرب، ومنها الممر الأكاديمي ـ العلمي من خلال سلسلة من الدراسات والأبحاث والندوات والمؤتمرات التي تبرز المزيد من الجوانب الإيجابية والقيم الروحية المشتركة في عالم تطغى عليه العلمانية والمادية والإلحادية. وقد وجد الفاتيكان في الإسلام شريكاً للدفاع عن الإيمان وعضداً للوقوف في وجه موجات التفلت المتتالية من الضوابط الأخلاقية على صعيد الفرد والجماعة.

وقد تحالف البابا مرة ثانية مع الإسلام، ولكن هذه المرة ضد الولايات المتحدة نفسها. ففي المؤتمر الدولي حول الأسرة والسكان، الذي عقد في القاهرة في أيلول ـ سبتمبر 1995، وجد الفاتيكان في الإسلام حليفاً استراتيجياً. فقد قُدمت إلى المؤتمر وثيقة تقع في 113 صفحة تدعو دول العالم المشتركة في المؤتمر، وعددها 185 دولة، إلى تخصيص مبلغ 17 مليار دولار حتى العام 2000 لإنفاقها على مخطط دولي لوقف زيادة عدد سكان الكرة الأرضية. كانت مواد الوثيقة قد أُقرَّت مسبقاً بنسبة 90 بالمئة، فقرة واحدة منها، هي الفقرة الثامنة في الصفحة الخامسة والعشرين، كانت موضع معارضة الإسلام والفاتيكان، وهي فقرة أعدتها الولايات المتحدة وتمسكت بها تقول فيها: «إن الإجهاض الآمن والشرعي هو حقٌّ لكل امرأة». معارضة الفاتيكان والإسلام قامت على أساس أنه ليس من حق الإنسان أن يكون شريكاً لله في

تقرير من يُخلق ومن لا يُخلق، ولذلك وقفا معاً، ولمدة تسعة أيام من المناقشات الحادة مع الولايات المتحدة، ضد هذه الفقرة حتى تمَّ إسقاطها.

التحالف الفاتيكاني غير المباشر مع الإسلام أسقط العقيدة الشيوعية وأمبراطوريتها، والتحالف الفاتيكاني المباشر مع الإسلام أسقط المبدأ اللاديني الذي كانت الولايات المتحدة تحاول فرضه على 185 دولة في العالم.

غير أن مسالك وممرات هذا التعاون الإسلامي ـ الفاتيكاني كانت تصطدم بعقبة كأداء هي المشكلة اللبنانية في بعدها الطائفي البغيض. فالفاتيكان كان ينظر إلى مأساة لبنان على أنها مأساة العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين، وكان، بالتالي، يخشى من أن يؤدي انهيار الصيغة اللبنانية إلى انهيار حلمه الطموح بإقامة تفاهم مسيحي ـ إسلامي عالمي.

في عام 1987 كنتُ مدعواً لإلقاء محاضرة في مالطا حول الإسلام والتعددية. صودف في الوقت نفسه قيام البابا يوحنا بولس الثاني بزيارة رسمية للجزيرة. كانت تلك أول زيارة بالتاريخ يقوم بها بابا إلى هذه الدولة المتوسطية الصغيرة. وبترتيب مع أسقف العاصمة فاليتا نظم لقاء لتحية البابا في كاتدرائية القديس يوحنا التاريخية التي تقع في قلب المدينة. كان المدعوون قلة مختارة من شخصيات أكاديمية ودبلوماسية من أديان مختلفة، وكان أسقف فاليتا يقرأ اسم كل شخص أمام البابا واسم بلده، ثم يتقدم الشخص المعني ليصافح البابا ويتابع تحركه إلى المقعد المخصص له. وعندما وصل دوري، وقرأ الأسقف اسمي مقروناً بلبنان، استوقفني البابا وأمسك بيدي بكلتا يديه وقال لي: «مِن لبنان؟ مسكين لبنان. ماذا تفعلون في لبنان؟». أجبت البابا على الفور: «نعم يا سيدي من لبنان، وأنتم ماذا تفعلون من أجل لبنان؟». أذكر جيداً كيف أن وجه البابا امتقع باللون الأحمر وهو يقول لي: «اسمع يا بني... ليس هذا الوقت المناسب للكلام، ولكن سترى أننا نفعل كل شيء من أجل لبنان».

لفتت هذه المبادرة من البابا أنظار سائر المدعوين، وأشارت إليها الصحف المحلية في وقتها. بعد عدة سنوات، وفي نهاية عام 1994، مثَّلت دار الفتوى في المؤتمر الراعوي ـ السينودس ـ من أجل لبنان، الذي عقد في الفاتيكان بمبادرة من البابا وبرئاسته الشخصية.

استمر المؤتمر شهراً كاملاً، قضيت منها ثلاثة أسابيع مشاركاً في المؤتمر

بصفة مراقب مما هيأ لي فرصاً يومية للقاء البابا، والتعرُّف عليه عن قرب، وتمتين العلاقة معه. في اليوم التالي لافتتاح المؤتمر تقدمت من البابا، وكان يحيط به عدد من الكرادلة بمن فيهم البطريرك مار نصر الله بطرس صفير، وقلت له: هل تذكر لقاء مالطا؟. سألني: ماذا عن مالطا؟، فقلت: هل تذكر اللبناني الذي استوقفته في كاتدرائية القديس يوحنا؟. فجأة لمعت عينا البابا وأمسك بيدي بكلتا يديه كما فعل في مالطا وقال: هذا أنت؟. أنا أذكر الحديث تماماً. لم أنسَ حرفاً منه. ولكني لم أعد أذكر مع من جرى. إنني مسرور لوجودك هنا، وإننا نعلق أهمية كبيرة على المشاركة الإسلامية في مؤتمر السينودس. قلت للبابا: الآن، ومن خلال هذا المؤتمر، حصلت على جواب على السؤال الذي طرحته عليك في مالطا. إنني أشكرك على اهتمامك بلبنان، وعلى محبتك الصادقة لأبنائه جميعاً.

وتتابعت اللقاءات اليومية، قبل الظهر وبعده، على مدى ثلاثة أسابيع، قبل بدء الجلسات وبعدها، وأذكر أنه في يوم جمعة، وأثناء إحدى الجلسات الصباحية، أرسلتُ ورقة بتوقيعي إلى الأمين العام للمؤتمر الكاردينال «سكوت» أبلغه فيها أنني وزميليَّ المسلمين، الدكتور سعود المولى ممثل المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، والدكتور عباس الحلبي ممثل الطائفة الدرزية، لن نتابع الجلسة لأننا سنتوجه لأداء الصلاة في مسجد روما. عندما قرأ الكاردينال «سكوت» ورقتي أشار إليَّ مبتسماً وهو على المنصة أن: «نعم»، ثم مرَّر الورقة إلى البابا نفسه فقرأها وأعادها إليه وهو يهمس في أذنه كلمات غير مسموعة. وقبل أن نغادر قاعة الاجتماع أبلغ الكاردينال «سكوت» المؤتمرين بصوت مرتفع بمضمون الورقة، وأعلن باسم البابا أن المؤتمر يتمنى على الإخوة المسلمين المشاركين أن يدعوا الله، أثناء صلاتهم، لنجاح السينودس لما فيه خير لبنان ووحدة أبنائه.

كانت تلك مبادرة تتعدى شكلية المجاملة لصدورها عن البابا نفسه، رمز ورأس الكنيسة الكاثوليكية، وعندما يدعو البابا المسلمين للصلاة إلى الله من أجل نجاح مؤتمر مسيحي يعقد في الفاتيكان وبرئاسته وبحضور أكثر من مائة وخمسين كاردينالاً ومطراناً وأسقفاً، فإن لذلك معنى لا يمكن إلا أن يؤخذ بكل أبعاده ومعانيه الرمزية والواقعية.

تكرَّر ذلك عندما دعانا البابا لتناول العشاء إلى مائدته. لقد سبق للبابا أن

دعا شخصيات إسلامية رسمية إلى مائدته، ولكن تميزت دعوتنا بأنها كانت المرة الأولى التي يُدعى فيها مسلمون إلى المائدة الشخصية للبابا وفي بيته الخاص في الطابق الثالث من مبنى الفاتيكان المطلّ على ساحة القديس بطرس. أثناء العشاء تعمَّد البابا عدم تقديم الخمرة، علماً بأن الخمرة هو جزء من المائدة المسيحية، وأن تحويل الماء إلى خمر هو معجزة من معجزات المسيح. لقد كان تأثرنا عميقاً بهذه المبادرة تصدر عن المرجع المسيحي الأول في العالم لثلاثة لبنانيين ليسوا مرجعيات إسلامية دينية بل ممثلين مدنيين لهذه المرجعيات.

تناولت الأحاديث السياسية والدينية، التي جرت مع البابا أثناء العشاء، وبعد ذلك في مكتبته الخاصة في بيته، موضوع التسامح الديني. فسأل البابا لماذا لا يُسمح للمسيحيين ببناء كنائس في السعودية مع أنه وافق وشجَّع على بناء مسجد في روما. وقد أجبته بأنه لا يوجد مسيحيون سعوديون، وأن المسيحيين الأجانب في المملكة ينتمون إلى كنائس مختلفة إنجيلية وأرثوذكسية وسريانية وكاثوليكية، ولا يمكن بناء كنيسة لكل مجموعة في كل مدينة. وسأل عن مناسك الحج والتراث الإبراهيمي، كما سأل عن الدروز وعقائدهم الدينية، كما وجَّه عدة أسئلة حول إسرائيل والمقاومة الوطنية. وتحدث عن شطارة اللبناني وتفوُّقه، فانتهزتُ الفرصة وسألته: «هل تسمح لي أن أروي لك نكتة عن الشطارة اللبنانية؟» فأجاب بالإيجاب، وهو يبتسم. فقلتُ له: «تقول النكتة إن اللبناني يلتقي بك أمام باب دوّار، فيدفعه تهذيبه إلى أن يدعوك للمرور قبله، ولكنه مع ذلك يصل قبلك». ضحك البابا كثيراً، وقال: «هكذا صوَّروا لي شطارة اللبناني بالفعل». وفي اليوم التالي قال لي الكاردينال أرينزي: «لقد سجَّلتَ حتى الآن ثلاث سوابق تاريخية. فأنت أول مسلم يشترك في السينودس، وأول مسلم يستضيفه البابا إلى مائدته الشخصية في بيته، وأول مسلم يروي نكتة للبابا». أثناء هذا اللقاء الودي قدمتُ للبابا كتابي «موقع الإسلام في صراع الحضارات»، وقدم لي الكاردينال أرينزي كتاب البابا، الذي أثار اهتماماً واسعاً في العالم المسيحي والعلماني على حدٍّ سواء، وعنوانه: «اجتياز عتبة الأمل»، وقد تُرجم الكتاب، الذي كتبه البابا (وهو أستاذ للفلسفة سابقاً) باللغة البولندية، إلى عشرين لغة.

إن في العالم دولاً ومنظمات ومفكِّرين كثيرين يؤمنون بأهمية لبنان

الرسالة، ولكن لا أحد ينافس البابا يوحنا بولس الثاني في إيمانه بهذه الرسالة، وفي سعيه الدؤوب من أجل تعزيز صدقيتها باعتبار أن الحفاظ عليها هو بمثابة نسك ديني وأمانة في عنق الإنسانية كلها.

صحيح أن البابا يوحنا بولس الثاني مهتم جداً بالعيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين، ولكنه مهتم، وبالقدر نفسه، بالعيش المشترك بين المسيحيين من كنائس مختلفة. فالبابا يدرك أن في لبنان 14 كنيسة مختلفة، وأن نجاح التعايش بين هذه الكنائس ضروري ليس فقط لذاته إنما هو ضروري للبنان وللتفاهم الإسلامي ـ المسيحي، وهذا ما يفسِّر حرص البابا على مشاركة ممثلين عن الكنائس اللبنانية في مؤتمر السينودس، فكان هناك ممثلون عن الأرثوذكس والسريان والكلدان والإنجيليين والأرمن والأقباط، فلم يشأ البابا أن يكون المؤتمر كاثوليكياً، ولا حتى مسيحياً بالمطلق، بل أراده مؤتمراً وطنياً جامعاً، وهو ما عكسه في وثيقة الإرشاد الرسولي التي أذاعها في اليوم الأول من زيارته، والتي جاءت في نصِّها، وفي مضمونها وفي روحيتها، مصداقاً للآمال المعقودة عليها.

يشكل هذا النهج البابوي ظاهرة في حدِّ ذاتها. فالفاتيكان لا يعرف بابا مهتم بالتفاهم الإسلامي ـ المسيحي كالبابا يوحنا بولس الثاني، ولا يعرف بابا منفتح على الإسلام بسعة انفتاحه. وعندما أحالت بلدية روما إلى البابا الطلب الذي تلقته من سفارات الدول الإسلامية في إيطاليا لبناء مسجد ومركز إسلامي، ردَّ البابا ناصحاً بلدية روما بالموافقة دون تردد. وبالفعل فقد قدمت البلدية الأرض (حوالي 20 ألف متر مربع) هدية لبناء المسجد والمركز الثقافي الإسلامي، الذي أنجز بمساهمات من عدة دول إسلامية، وبتمويل أساسي من المملكة السعودية. وعندما تناولنا العشاء إلى مائدة البابا كان حريصاً على أن يجعلنا ندرك أن موقفه من بناء مسجد روما يعكس صفاء نواياه تجاه المسلمين، وحرصه على أن تسمو العلاقات المسيحية ـ الإسلامية إلى مستوى المعاملة بالمثل، على النحو الذي أشرت إليه.

لا يجهل البابا أن الذاكرة التاريخية عند المسلمين، وعند المسيحيين الأوروبيين ملأى بالصور السلبية والمنفِّرة، ولكن أمله كبير في إمكانية تصحيحها وتجاوزها. فالأمل عنده قوة معنوية كبرى، وهو يخالف الفيلسوف

الفرنسي رينيه ديكارت الذي قال في القرن السابع عشر: «أنا أفكر، إذن أنا موجود». ويقول البابا في كتابه «اجتياز عتبة الأمل»: إن هذه النظرية قلبت فلسفة توما الأكويني (من القرن الثالث عشر) رأساً على عقب؛ ذلك أن الوجود يأتي قبل التفكير». ويقول البابا: «إن الوجود هو الذي يجعل التفكير ممكناً»، ويرى البابا أنه لو أن ديكارت قال: «أنا موجود إذن أنا أفكر» لاختلف تاريخ العالم في الثلاثماية سنة الماضية اختلافاً جذرياً.

استمرت زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى لبنان أقل قليلاً من يومين، وبالنظر لقصر مدّتها لم يكن بالإمكان تنظيم زيارات له إلى مقارّ المرجعيات الإسلامية في بيروت استجابة لحرص متبادل منه ومن هذه المرجعيات على اللقاء، وقد تم التفاهم على عقد اللقاء في القصر الجمهوري في بعبدا، باعتبار أنه بيت اللبنانيين جميعاً. حُدِّد موعد اللقاء قبل إذاعة وثيقة الإرشاد الرسولي، مما أدّى إلى التساؤل: ماذا إذا جاء الإرشاد الرسولي على شاكلة النداء الأخير؟.. أليس الترحيب بالبابا ترحيب مسبق بالوثيقة التي ستصدر عنه؟.. وكيف نرحِّب بوثيقة لا نعرف مضمونها بعد أن اكتوينا بنار وثيقة النداء الأخير التي سبقتها؟..

لم يطل التردد الذي أملاه طرح هذه التساؤلات، فالثقة بحسن تفهُّم البابا، وبحسن نواياه والاطمئنان إلى سلامة الأجواء التي سادت الفاتيكان بعد زيارات الرئيس الحريري المتكررة للبابا، مكّنت المرجعيات الإسلامية من تجاوز المخاوف التي عكستها هذه التساؤلات.

وهكذا، بعد ساعات قليلة من وصول البابا إلى بيروت، توجّه أصحاب السماحة، مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ الدكتور محمد رشيد قباني، ورئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين، يرافقهما رئيس المحكمة الشرعية الدرزية العليا الشيخ مرسل نصر، في سيارة واحدة، إلى القصر الجمهوري، وعقدوا اجتماعهم المشترك مع البابا. وقد رحّب أصحاب السماحة بالبابا، وأعربوا له خلاله عن تمنياتهم في أن تعزّز زيارته للبنان أواصر الوحدة الوطنية بين اللبنانيين جميعاً، ثم بحثوا معه الأمور الآتية:

أولاً: حق لبنان في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي في الجنوب والبقاع

الغربي حتى تتحرر جميع الأراضي اللبنانية، تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 425.

ثانياً: التمسك بصيغة العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين على قاعدة المساواة التامة في المواطنية في ظل دولة عادلة لا هيمنة فيها إلا للدستور وللقوانين.

ثالثاً: رفض الاستيطان، ومقاومة التهويد الإسرائيلي لمدينة القدس، والتمسك بعروبة المدينة المقدسة، والعمل على تطبيق المقررات والتوصيات التي صدرت عن المؤتمر الإسلامي ـ المسيحي الروحي، الذي عقد في بيروت في حزيران 1996 حول مدينة القدس. وقد سلَّم أصحاب السماحة نسخة عن هذه المقررات إلى الحبر الأعظم.

رابعاً: التأكيد على أهمية العمل المشترك من أجل إقامة صيغ متقدمة لتفاهم إسلامي ـ مسيحي على المستوى العالمي، على قاعدة القيم الأخلاقية التي حرص الإسلام والمسيحية على أن تسود في العلاقات الإنسانية.

وقد أبدى البابا يوحنا بولس الثاني كلَّ تفهم وتقدير وتعاطف مع وجهة نظر أصحاب السماحة، وتمَّ التفاهم على متابعة الاتصال من أجل تحقيق الأهداف المشتركة من هذا اللقاء.

وفي اليوم التالي للزيارة، وُزِّع النصُّ الفرنسي لوثيقة الإرشاد الرسولي أثناء القداس الاحتفالي الحاشد الذي نُظِّم في ساحة الشهداء في قلب بيروت. فإذا بالنصِّ يأتي مترفِّعاً ومصحِّحاً الهنات التي سقط فيها النداء الأخير، وإذا به يسمو، في مضمونه، إلى مستوى الرسالة التي يريد للبنان أن يضطلع بها، وإذا به يأتي مصدقاً للروح التي سادت السينودس، وللأهداف التي أراد البابا أن يكون السينودس أداة لبلورتها ومن ثم لتنفيذها.

إن قراءة متأنية ومتعمقة لفصول الإرشاد الرسولي تبيِّن أن الجانب غير الكنسي منه (أي غير المعني بدور الكنيسة الكاثوليكية، وبالعلاقات الإيمانية والليتورجيا بين الكنائس المسيحية المتعددة)، يشكل، في مضمونه وفي صياغته، قوة دفع جديدة لمسيرة السلم الأهلي وللمبادىء العامة التي توافَقَ اللبنانيون على اعتمادها أساساً لبناء مستقبلهم المشترك. فقد ذكرت وثيقة

الإرشاد[1]: «كانت العلاقات بين الكاثوليك والمسلمين في لبنان صعبة في مناسبات شتى، وقد تكون اليوم أيضاً، في نظر بعض المواطنين اللبنانيين، متسمة بالحذر بسبب ما حدث أحياناً من سوء تفاهم تغذيه ذكريات مؤلمة. وهناك أحكام مسبقة متأصلة في الذهنيات تسهم في تغذية انعدام الثقة المتبادل. ويثير القلق العميق بروز أشكال متنوعة من التطرف، الذي لا يمكن إلا أن يسيء إلى وحدة البلد، ويوقف الاندفاع الجديد الذي يجب إيلاؤه إياها، ويعيق العيش المشترك بين كل الفئات التي تكوّن مجتمعه. من أجل قيام الحوار البناء والاعتراف المتبادل، وبمنأى عن التباينات الكبيرة بين الأديان، من الأهمية بمكان أن يُصار إلى العمل، أولاً وقبل كل شيء، على تبيين ما يجمع ما بين اللبنانيين في شعب واحد، وفي أخوّة مشتركة تتجلى في لبنان يومياً، وبخاصة في العيش المشترك. بالإضافة إلى ذلك يعتبر المسيحيون والمسلمون، بعضهم بعضاً، شركاء في بناء البلد، فتتألق، أكثر فأكثر، في النفوس الرغبةُ في تعزيز التفاهم والتعاون في ما بينهم، وتنشأ في الواقع هيئات التقاء في سبيل مزيد من التعارف المتبادل العميق رغبةً في خدمة البلد معاً».

ويدقُّ الإرشاد الرسولي المسمار الأخير في نعش الحرب، وتالياً في نعش كل مشروع يستهدف لبنان عبر الحرب، وذلك عندما أعلن[2]: «لقد انتهت الحرب، ويجب اعتبار المصالحة سبيلاً إلى سلام وطيد يقوم بين جميع اللبنانيين، ولتكن خاتمة الحرب المسلحة خاتمة للحرب بين المصالح المختلفة، وخاتمة لتنازع المصالح الشخصية، التي تكون، أحياناً، أشدَّ خطراً، لأنها قد تصبح صراع الكل ضدَّ الكل. وليتذكر كلٌّ أنه ما من أحد يمكنه أن يجني شيئاً من الحرب، والجميع يخرجون منها مصابين لأن إصابة الأخ هي، أيضاً ودائماً، إصابة سائر مواطنيه. السلام والمصالحة وحدهما هما الإطار المؤاتي لمكان واقعي معترف به من كل لبناني في بلده، ولحل مشاكل الأشخاص والجماعات، داخل الأمة».

ويسفِّه الإرشاد أدبيات الحرب في أبعادها الثقافية والسياسية، ويطيح

---

(1) الإرشاد الرسولي، رجاء جديد للبنان ـ اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام، ص23 ـ 24.

(2) المرجع السابق، ص159 ـ 160.

بالمظلة الدينية التي استخدمت في السابق تغطية لها، فقد أكد[1]: «إن الكنيسة الكاثوليكية منفتحة على الحوار والتعاون مع المسلمين في لبنان، وتريد أن تكون منفتحة على الحوار والتعاون مع مسلمي سائر البلدان العربية، ولبنان جزء لا يتجزأ منها. وفي الواقع، إن مصيراً واحداً يربط المسيحيين والمسلمين في لبنان وسائر بلدان المنطقة، وكل ثقافة خاصة لا تزال تحمل طابع ما رفدتها به، على الصعيد الديني وغير الديني، الحضارات المختلفة التي تعاقبت على أرضهم. ومسيحيو لبنان وكامل العالم العربي، هم فخورون بتراثهم، يسهمون إسهاماً ناشطاً في التطور الثقافي. إن المسيحيين في جميع البلدان، ومن جميع الثقافات كافة، حيث انتشروا، لا يتمايزون عن سائر الناس، لا في البلد ولا في اللغة ولا في العادات... بل يتكيفون مع العادات المحلية في ما يتعلق بالكساء والغذاء وباقي مقتضيات الحياة.. فيما يُظهرون في نمط عيشهم قواعد خارقة ومستغربة حقاً». «بودّي أن أشدد، بالنسبة إلى مسيحيّي لبنان، على ضرورة المحافظة على علاقاتهم التضامنية مع العالم العربي وتوطيدها، وأدعوهم إلى اعتبار انضوائهم إلى الثقافة العربية، التي أسهموا فيها إسهاماً كبيراً، موقعاً مميزاً، لكن يُقيموا، هم وسائر مسيحيي البلدان العربية، حواراً صادقاً وعميقاً مع المسلمين. إن مسيحيي «الشرق الأوسط» ومسلميه، وهم يعيشون في المنطقة ذاتها، وقد عرفوا في تاريخهم أيام عزّ وأيام بؤس، مدعوُّون إلى أن يبنوا معاً مستقبل عيش مشترك، وتعاون يهدف إلى تطوير شعوبهم تطويراً إنسانياً وأخلاقياً، وعلاوة على ذلك قد يساعد الحوار والتعاون بين مسيحيي لبنان ومسلميه على تحقيق الخطوة ذاتها في بلدان أخرى».

ولعل أكثر القضايا الخلافية حساسية هي قضية إشكالية العلاقة بين المواطنية العامة والخصوصية المتمايزة، وقد سحب الإرشاد الرسولي فتيل هذه القضية عندما اعتبر[2]: «أن حياة الأخوّة والتضامن، داخل المجتمع الوطني، تفترض ألا يتصور أحد أن موقعه الخاص يحتمل أن يسوّغ له البحث عن امتيازات له أو لطائفته، بإبعاد الآخرين، وهي تقوم على التأكيد أن لكل أحدٍ،

(1) الإرشاد الرسولي، رجاء جديد للبنان ـ اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام، ص 149 ـ 151.

(2) المرجع السابق ص 154.

شرعاً، دوره في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والنقابية، في الأمانة لتقاليده الروحية والثقافية، طالما لا يتعارض ذلك والصالح العام ولا يهدِّد الحياة الوطنية».

إضافة إلى ذلك، يلقي الإرشاد الرسولي الضوء على مواقع الضعف في مسيرة الوفاق عبر تجديد دعوته لما سبق أن دعا إليه ميثاق الطائف نفسه، والذي أدّى عدم تنفيذ بنوده كاملة، وفي الصيغة المرتجاة، إلى تنامي الشعور بعدم الرضى. فالإرشاد يدعو إلى استنهاض الإرادات الفاعلة من أجل تجاوز هذه الصعوبات بما يؤدي إلى ارتفاع الأداء العام إلى مستوى ما يمثله لبنان من رسالة.

لا يقلّل من أهمية الإرشاد الرسولي أنه ليس ميثاقاً وطنياً، فهو يستمدُّ أهميته من أنه تتويج للمؤتمر الراعوي، ومن أنه صادر عن البابا يوحنا بولس الثاني نفسه، ثم من حيث أن مضمونه ينسجم مع جوهر الميثاق الوطني، ويتناغم معه، ويتكامل به. فقد حرص الإرشاد على التأكيد بأن[1]: «التزام السلام من قبل الجميع، أصحاب الإرادة الطيبة، يقود إلى مصالحة نهائية بين جميع اللبنانيين، وبين مختلف فئات البلد. والمصالحة هي نقطة انطلاق الرجاء لمستقبل جديد للبنان». كما حرص على التأكيد أنه[2]: «في السنين الماضية، انطبع لبنان بمحنة الحرب، واليوم تقضي هذه الآلام بتطهير حقيقي للذاكرات والضمائر، ولذلك ينبغي تعزيز السلام الدائم المبني بكل صبر وأناة، لأن السلام وحده بإمكانه أن يكون الينبوع الحقيقي للإنماء والعدالة».

الأمر الوحيد الذي رغب فيه الفاتيكان ولم نتجاوب معه هو مشاركة مجموعة من الشباب المسلمين في لقاء الشباب الذي نُظم في كاتدرائية حريصا ـ شمال بيروت ـ مساء اليوم الأول لوصول البابا.

نظِّم اللقاء بحيث تُلقى كلمتان أمام البابا، واحدة باسم الشباب والثانية باسم الشابات، وقد حسبنا لاحتمال أن يتحوَّل هذا اللقاء الديني إلى مناسبة لإلقاء كلمات سياسية. وأوجسنا خيفة من أن تتضمن الكلمات السياسية طروحات شبابية متفلّتة من ضوابط المسؤولية الشاملة. وكان في تقديرنا أنه لو

(1) الإرشاد الرسولي، رجاء جديد للبنان ـ اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام، ص159.

(2) المرجع السابق ـ ص155.

حدث ذلك فإن المجموعة الإسلامية ستجد نفسها أمام أمرين أحلاهما مرٌّ، إما أن تبقى شاهد زور على كلام لا تؤيده ولا يعجبها، وإما أن تنسحب تبرئةً للذمة، فآثرنا قبول الدعوة من دون تلبيتها، حرصاً على أن تمرَّ الزيارة من دون أن تشوبها شائبة. وهكذا حققت المشاركة الإسلامية الدينية والرسمية والشعبية، الهدف الأساسي، وهو توفير قوة دفع معنوية كبيرة لمسيرة الوفاق الوطني والسلم الأهلي، ووفَّر المؤتمر الراعوي ـ السينودس ـ والذي تُوِّج بزيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى لبنان، وبإذاعة وثيقة الإرشاد الرسولي، منبراً عربياً وعالمياً للبنان، ليس فقط للدفاع عن صيغة العيش المشترك الإسلامي ـ المسيحي وللتأكيد، على صدقيتها، إنما لتقديمها مثالاً يُحتذى رغم كل المعاناة التي تعرَّضت لها.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

الكتاب	الطبعة	السنة
* القرار العربي في الأزمة اللبنانية		1983 نفد
* الأزمة اللبنانية في دوامة الصراعات العربية		1984 نفد
* الإرهاب والعنف السياسي	(الطبعة الأولى)	1987
	(الطبعة الثانية)	1992
* الأقليات بين العروبة والإسلام		1990
* تأملات في الدين والإنسان والسياسة		1991
* النبوءة والسياسة (ترجمة عن الإنكليزية)	(الطبعة الأولى)	1989
	(الطبعة الثانية)	1990
	(الطبعة الثالثة)	1990
* الصهيونية المسيحية	(الطبعة الأولى)	1990
	(الطبعة الثانية)	1991
	(الطبعة الثالثة)	1993
* المسلمون في لبنان		1990 نفد
* استراتيجية الربط العربية بين النفط والسياسة		1991
* تبعية الإعلام الحر		1991
* العرب والأتراك في عالم متغيّر (بالاشتراك مع ثلاثة مؤلفين آخرين)		1993
* هل الإسلام هو الهدف؟ (كتيّب)		1993
* التسوية السياسية إلى أين (كتيّب)		1995
* موقع الإسلام في صراع الحضارات والنظام العالمي الجديد		1995
* التحولات المشرقية في السياسة المغربية		1996

رقم: 340 - 97



هذا الكتاب

جمع الكتاب بين الريادة في المحتوى، والعمق في المعالجة، فهو يتضمن:

- تاريخ الحوار الإسلامي المسيحي وأهميته.
- نظرة الإسلام إلى عيسى وأمه عليهما السلام.
- الجوامع المشتركة بين الأديان السماوية.
- قصة مخطوطات البحر الميت التي حجزتها حكومة إسرائيل عن العلماء.
- دور الدين في صناعة القرار السياسي.
- العلاقات الإسلامية ـ المسيحية، وتاريخ الصراع.
- العامل الإسرائيلي في الصراع الإسلامي ـ المسيحي.
- مغالطة اعتبار المسيحية العربية امتداداً للغرب.
- السينودس من أجل لبنان وزيارة البابا.
- الإرشاد الرسولي وأهمية ما تضمنه من توصيات.

وبذلك يعدُّ الكتاب خطوة مهمة في طريق يؤمل أن تؤدي إلى تفهُّم كل فريق الفريق الآخر، والتعايش معه، باحترام متبادل، وتعاون مثمر.